

حُسَيْنُ أَحْمَدُ أُمَيَّيْن

الموقف (الطضاري)
من النزعة الدينية
ودراسات أخرى



الموقف الحضاري
من النزوح الديني

الكتاب : الموقف الحضارى
ودراسات أخرى
الكاتب :حسين أحمد أمين
الطبعة الأولى ١٩٩٤

جميع الحقوق محفوظة

الناشر : سينا للنشر
المدير المسئول : رابحة عبد العظيم

١٨ ش ضريح سعد - القصر العيني -
القاهرة - جمهورية مصر العربية -
تليفون / فاكس : ٣٥٤٧١٧٨ / ٢٠٢.

القلاف : منير الشعراني
الاخراج الداخلي : إيتاس حسني
الصف : سينه للنشر

القسم الأول
عروبة وإسلام

الموقف الحضارى من التزعات الدينية

كان أعظمَ فضلٍ لحضارة الآشوريين فى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد على منطقة الشرق الأوسط، هو التقريب بين الشعوب فى أقطار المنطقة، ومزج ثقافتها وأديانها وتقاليدها فى نتاج جديد، عمَّ أرجاءها، وخدم قضية الإخاء والسلام بين الأمم.

وقد ساعد الآشوريين على تحقيق هذه المهمة عدة اعتبارات:

* تطبيق قوانين واحدة على كافة أراضى الإمبراطورية، استلهموا فى سنّها قوانين هامورابى الشهيرة فى بابل، وهو ما أرسى أساساً قانونياً مشتركاً فى مساحة واسعة من الشرق الأوسط، تمتدّ من حدود مصر إلى إيران، ومن هضبة الأناضول إلى الخليج الفارسى.

* تشجيع التبادل التجارى بين أقطار المنطقة، وهو تبادل هيمن الآراميون فيه على التجارة البرية، والفينيقيون على التجارة البحرية.. فإن كانت الشبكة الواسعة من الطرق الممهّدة قد أقامها الآشوريون أصلاً لتسهيل تنقل الجيوش من بلد إلى بلد، فقد خدمت وقت السلام تنقّل السلع وقوافل التجارة بين الأقطار.

* وضع حاميات فى مختلف أنحاء الإمبراطورية، هدفها إخماد حركات التمرد والعصيان، وتشكيلها من جنودٍ مختلفى الجنسيات أدّى الاختلاط فيما بينهم، واختلاطهم بأهالى المناطق التى يخدمون فيها، إلى المزيد من التقارب والتجانس والتفاهم، وإلى امتزاج ثقافتهم وتقاليدهم وعاداتهم ودياناتهم المتنوعة.

* نقل حشود غفيرة من الثوار والمتمردين من أوطانهم إلى أنحاء قاصية من الإمبراطورية على سبيل العقوبة، وعن رغبة فى استتباب الأمن، واختلاط تلك الحشود بمرور الوقت، وعلى نحو متزايد، بأهالى البقاع الجديدة التى نقلوا إليها.

* غلبة اللغة الآرامية وأبجديتها على لغات أقطار المنطقة، واستخدام مختلف الشعوب لها فى أسفارهم ومعاملاتهم بعضهم مع بعض، بحيث باتت أساساً ثقافياً مشتركاً فى الشرق الأوسط.

* مكافحة التعصب الدينى المحلى، وتشجيع النظرة الأوسع أفقاً إلى الدين والآلهة، بحيث ينكمش الجفاء والعداوة الناجمان عن اختلاف أديان شعوب المنطقة. وقد استلزمت مكافحة هذا التعصب الدينى قضاء الآشوريين على دولة إسرائيل عام ٧٢٢ قبل الميلاد.

وقد سبق إخناتون الآشوريين فى إدراكه أهمية هذه النقطة الأخيرة الخاصة بالدين، إذ ارتأى أن إحلال عبادة الشمس التى يمكن أن تفهمها شعوب الإمبراطورية المصرية، محل عبادة آلهة محلية، والتى لا يمكن أن تستهوى أفئدة غير المصريين، من شأنه أن يعزز من الروابط التى تربط بين أنحاء هذه الإمبراطورية. فإن كانت تطلعات إخناتون قد باءت بالفشل، فإن الفشل لم يكن راجعاً إلى قصور فى فكرته، وإنما كان بسبب قوة الرجعيين من كهنة آمون والنبلاء فى مصر الذين قاوموه وحاربوه وأسقطوه.

موقف الفرس من المؤسسات الدينية

وقد استفادت دولة الفرس التى قامت على أنقاض الحضارة الآشورية من وسائل الآشوريين فى إرساء أسس حضارة عالمية، غير أن هذه الاستفادة لم تبدأ إلا فى عهد داريوس الأكبر (٥٢٢ - ٤٨٦ ق.م)، فأما قورش وقمبيز قبله، فقد شغلا بالحرب وتوسيع حدود الإمبراطورية، دون العناية بخلق إدارة موحدة وسنّ قوانين واحدة للأقطار المفتوحة. بل إن قورش خلخل من دعائم الحضارة الواحدة فى الشرق الأوسط، بأن سمح بعودة الشعوب المختلفة إلى نظمها الدينية المحلية القديمة التى حاربها الآشوريون، وشجّع هذه العودة، حتى يظهر جنوده بمظهر محرّرى الشعوب من ربة الاستعمار، ويسهل عليهم النصر فى ميادين القتال.. لم يفعل ذلك مع اليهود وحدهم (وهو الذى أطلقهم من الأسر البابلى، وسمح لهم بالعودة إلى ديارهم بفلسطين)، بل ومع سائر الشعوب الأخرى.. غير أن مقتضيات الزمن والتطور والحضارة، سرعان ما ألزمت الفرس بالعودة إلى نهج الآشوريين. فسياسة قورش المتمثلة فى منح حق الإدارة الذاتية واسعة النطاق لكهنة المعابد، وللمؤسسات الدينية المحلية، نجم عنها فى وقت قصير، خلق يؤر للتمرد والثورة بقيادة زعماء محليين نوى مطامح سياسية، مما أقتنع الفرس بضرورة النكوص عنها. وإن قامت الثورة فى بابل، انتقم الفرس من أهلها بتدمير معبد الإله ماردوك. كذلك فإنه حين اشتعلت الثورة فى مصر عام ٣٤٣ ق.م، هاجمت القوات الفارسية المعابد الرئيسية ونهبتها، وشرّدت كهنتها.

وقد كان لإخماد الفرس لهذه الثورات، واقتناعهم فى النهاية بضرورة محاربة التنظيمات

الدينية فى أمصار الدولة، أثرهما فى القضاء على النزعات الانفصالية، وإفقاد رجال الدين وقارهم المستمد من عراقية قدم دينهم. وكانت نتيجة كل ذلك أن بدأت شعوب أقطار الإمبراطورية الفارسية تعيد النظر فى ماضيها الحضارى كله، وتعيد تقييمه، وتقتنع بضرورة الانصهار فى بوتقة الواقع الجديد، والتأقلم والتكيف له، بل ويمزجا امتزاج الثقافات والأديان والتقاليد، وكلها أمور سهكت على الإسكندر الأكبر (٣٣٤ - ٣٢٣ ق.م)، وعلى الدولة الرومانية بعده، مهمة خلق إمبراطورية متجانسة، ذات حضارة واحدة، عرفت من التسامح الدينى مالم يعرفه العالم القديم قبلهما.

إخناتون وكهنة آمون

نعود بعد هذا إلى إخناتون، فقد شهدت مصر فى عهده صراعاً بين القوى الداعية إلى التجديد والابتداع والعالمية والاستفادة من ثمار الحضارات المجاورة، وبين القوى المحافظة المتمثلة فى الكهنة وأشياهم ممن كانوا يرون فى أى تجديد أو بدعة خطراً على مصالحهم ونفوذهم، ولا يرون فى الحضارات الأخرى وفنونها ما يفوق أو يعادل ما قدمه الأسلاف من قدماء المصريين، ويفسرون أى انحطاط فى السلطة السياسية، أو أية هزيمة عسكرية، بأنه مظهر لغضب الآلهة على المصريين، لهجرهم سنة الأوثان، وتبنيهم لعادات أجنبية.

غير أن هذه الروح المحافظة، فى ذلك العهد كانت تخفى وراءها فى واقع الأمر قلقاً عميقاً وتاكلاً ملموساً فى الثقة بالنفس.. لقد كان بوسع المصريين فى الماضى - وقت الملكتين القديمة والوسطى، حين كانت الحواجز الجغرافية تحميهم من الصلات والغزوات الأجنبية - أن يعيشوا فى اكتفاء ذاتى قائم على الإيمان بأنهم أرقى بكثير من سائر الأمم، غير أن غزو الهكسوس لبلادهم زعزع من هذا الإيمان، كما زعزع منه - حتى بعد تمكنهم من طرد الهكسوس - ما نجم عن غزوهم لأقطار آسيوية، واتساع حجم مبادلاتهم التجارية مع هذه الأقطار، وكثرة المترددين المصريين على الخارج من الجنود والموظفين والتجار، وتدقق الأجانب على مصر، إما للاستيطان أو للانخراط فى صفوف الجيش المصرى، من اطلاع على حضارات أخرى مغايرة، ليست بعض مظاهرها بدون حضارة الفراعنة.

وقد كان أعظم أمجاد أمنحوتب الرابع، إدراكه أن العبادة القديمة السائدة فى مصر، لا

مكان لها فى ظل هذه الظروف الجديدة، وأحوال العالم المتغيرة حوله، وأن من شأن استمرارها أن يقضى على مصر بالتحجر. لهذا قام هذا الفرعون الثائر (الذى غير حتى من اسمه وجعله إخناتون) بإغلاق المعابد القديمة، ومحو اسم الإله آمون، وابتداع عبادة قرص الشمس الذى تتعدى أفضاله وأياديه حدود مصر، لتشمل الإنسانية بأسرها، والذى يمكن للمصريين أن يجدوه فى كل مكان يرحلون إليه فى هذا العالم الواسع، ويمكن لغيرهم أن يجدوه متى قدموا إلى مصر، بمجرد تطلع هؤلاء وأولئك إلى السماء فوقهم. وقد كانت هذه النظرة العالمية الثورية رد فعل منطقياً للواقع الجديد.. فهؤلاء المصريون المنفلتون على أنفسهم لأمد طويل، أدهشهم حين خرجوا من جحورهم، وحين شرعوا فى الانفتاح على العالم، أن يجدوا الشمس تسطع وتبعث الضوء والدفع فى كل مكان يرتحلون إليه خارج مصر شأنها فى بلادهم، وأدركوا أن هذا الإله العالمى الخير الذى يسبغ نعمته على البشر أجمعين، من شأنه متى اشترك البشر فى عبادته أن يخلق بينهم صلات من التفاهم والتآخى والسلام هى فى صالح الكافة، لا كتلك الآلهة المحلية التى هى من صنع الإنسان، والتى من شأنها أن تفرق لا أن توحد.

هزيمة إخناتون على يد الرجعية

كان إخناتون إذن هو أول الموحدين، وأول داعٍ فى التاريخ إلى النظرة العالمية الشمولية، غير أن أتباعه - للأسف - كانوا قلة قليلة وسط بحر زاهر، فقد ناصره الجند والتجار والإداريون ممن طوفوا وجابوا أنحاء الإمبراطورية، واطلعوا على أحوال الغير، وحضارات الغير، وديانات الغير، وخبروا تنوع الحياة وتنوع العقائد خارج حدود مصر.. وقاومه رجال الدين ممن كانوا يمقتون التأثيرات الأجنبية، وأسرّ النبلاء الذين ارتبطت مصالحهم وامتيازاتهم بعبادة آمون، وحشود من الغوغاء المذعنين لدجل رجال الدين ولهيمنة النبلاء. وكانت قوة الرجعيين هى السبب فى فشل أول محاولة لتعديل مسار مصر حتى تجارى النزعات العالمية الناهضة فى منطقة الشرق الأوسط.. وقد حاول توت عنخ آمون (زوج ابنة إخناتون وخليفته فى الحكم)، رغم عودته إلى عبادة آمون، أن يدخل بعض المفاهيم الجديدة فى العبادة القديمة، غير أن الكهنة والنبلاء ما كانوا ليطيعون بقاء أى أثر للمارق الفاسد إخناتون، الذى خرج عن معتقدات شعبه، وفتح الباب على مصراعيه أمام التأثيرات الأجنبية، فأجهضوا محاولات توت عنخ آمون، وهدموا قصور إخناتون ومعابده، ومحو اسم آتون حيثما وجد..

وسرعان ما تصالح الجيش بعد ذلك مع الرجعية، فكرّس قائده حور محب (الذى اغتصب السلطة عام ١٣٤٩ ق.م) كل جهوده واهتمامه للفوز، تاركاً شؤون البلاد كلها فى أيدي كهنة آمون وحلفائهم، وهم الذين تمكّنوا من القضاء على كل بدعة، وقمع كل تأثير أجنبى، وحكموا البلاد باسم شرع آمون، وادعوا لأنفسهم وحدهم سلطة تفسير هذا الشرع وتطبيقه، وتأويل نوايا الإله ورغباته.

وقد كان لانتصار الرجعية آثاره بعيدة المدى فى الحضارة المصرية وفنونها، وفى نفسية أفراد الشعب. فقد هُجر على الفور فن تل العمارنة بواقعيته وأساليبه المتحررة المتنوعة، وانحدر فنّا النحت والمعمار، انحداراً ملحوظاً فى عهد الرعامسة، بحيث بات التركيز الآن على الضخامة لا على الجمال ودقة الأداء.. كذلك تعاظم ميل المصريين إلى الانغلاق على أنفسهم من جديد، والتطلع إلى الماضى وأماجد السلف الصالح، ومحاولة السير على نهج المملكة القديمة فى تقاليدها ومعتقداتها وفنونها، وإن كانت الديانة الآن قد تسرّبت إليها خزعبلات شعبية من شأنها بعث الأمل فى نفوس المطحونين المتعبين من أفراد الشعب، فأضحى الخلود فى جنات النعيم من حق الجميع وفى متناولهم (لا من حق من يرضى فرعون عنهم فحسب)، وأصبح كافياً أن يوضع مع جثة الميت فى تابوته بعض التعاويذ والتمائم السحرية، حتى تضمن له كل الحماية الضرورية من مخاطر العالم السفلى.

دولة الإسلام وحضارة البيزنطيين

ثم نقفز فى التاريخ قفزة كبيرة إلى زمن الدولة الإسلامية، حتى نواجه ظاهرة غريبة محيرة... لقد أتيح لحضارتى الإغريق والرومان، مثلاً، مجال واسع من التأثير فى الشعوب الأخرى، دانيها وقاصيها، ممن خضع لحكمهم أو احتفظ باستقلاله عنهم، وبدا هذا التأثير جلياً فى أفكار هذه الشعوب وفنونها وعاداتها وأساليب عيشها، بل وحتى فى لغاتها.. فما الذى أعجز دولة الإسلام وهى فى أوجها (ونعنى بأوجها: القرون الأربعة الأولى بعد الهجرة) عن التأثير فى الحضارة البيزنطية المتاخمة، أو التأثير بها، لدرجة أن أبى كل من هاتين الحضارتين حتى أن تنتقى من الحضارة الأخرى بعض العناصر والمظاهر التى قد تكون نافعة لها، وجديرة بالاعتباس، مع تكييفها وفق الظروف المحلية؟

السبب في رأينا يرجع إلى ارتباط الحضارة في تلك الحقبة التاريخية، وفي كل من دولتي الإسلام والبيزنطيين، ارتباطاً وثيقاً بالدين، أدى إلى اتخاذ كل من الطرفين موقف التصلب والنفور والعداوة من الطرف الآخر.. فبناء الحضارة على أساس من الدين يقتضي التشدد في المحافظة على العقيدة، والتشدد في حماية العقيدة يقتضي قبول نمط حضارى واحد، ورفض ما عداه باعتباره كفوً محضاً أو مؤدياً إلى الكفر... فاما تاثر الحضارة العربية تأثراً عظيماً بحضارة الفرس، فقد سهله قضاء العرب منذ البداية قضاء مبرماً على الدولة الفارسية ودياناتها بحيث لم يعد ثمة حرج في التوسع من الاقتباس من الحضارة الغابرة، ولا داعٍ إلى تلك المشاعر من النفور والعداوة تجاه أبنائها.. أما حضارة البيزنطيين التي ظلت قائمة لثمانية قرون بعد ظهور الإسلام، فما تأثر بها غير أموي الشام الذين كان الدين لدى غالبيتهم هامشياً. لذلك فقد ظلت العلاقات بين حضارة الإسلام وحضارة البيزنطيين إلى وقت الحروب الصليبية (وحتى في زمن السلم الذي سمح بقيام بعض العلاقات التجارية بينهما)، علاقات متصلة غير ودية، وظل أبناء كل منهما موقنين بتفوق دينهم وأساليب عيشهم، على دين الآخرين وأساليب عيشهم، فلم يسعوا إلى تقليد أو اقتباس، مؤمنين بأن اقتباس أصحاب الدين الحق لأى مظهر من مظاهر حضارة الكفار، قد يدفع فيما بعد إلى اقتباس مظاهر أخرى، وهو ما من شأنه أن يؤدي في النهاية بالمؤمنين إلى التهلكة.

بين الإسكندر ونابليون

مثل هذا الوضع لم يكن معروفاً في زمن حضارتى الإغريق والرومان، وهما حضارتان لم يكن أهلها وقت انتشار تأثيرهما في مختلف بقاع العالم بشديدي الإيمان أو التمسك بدياناتهم، وكان الشك في آلهتهم قد بدأ يتطرق إلى نفوسهم. لهذا فإنهم لم يحاولوا أبداً أن يقتلعوا ديانات الشعوب الأخرى، وأن يفرضوا عليهم دينهم. وهو بالضبط ما سهل على تلك الشعوب تبني مظاهر الحضارة الهلينية، خاصة وهي ترى الإسكندر وجنده مثلاً يقدمون القرايين لآلهة كل قطر يفتوحونه. فإن كان بعض أباطرة الرومان، قد أصرّوا على أن تحل تماثيلهم في معابد أقطار الإمبراطورية، وأن تنال تلك التماثيل من العبادة والشعائر، ما تنال آلهتها هي، فقد كان الدافع لهذا الإصرار منهم، هو ضمان الولاء السياسى للرعية، لا الرغبة في نشر الدين الحق.

وقد تكرر الأمر نفسه فى العصر الحديث حين شرع الأوروبيون فى استعمار أقطار
آسيوية وإفريقية.. فقد أغفل المستعمرون - بدءاً ببونابرت - اعتبار الدين، بحيث لم يبدُ الأمر
فى صورة استعباد أهل ملّة معينة لأهل ملّة أخرى، وأكّوا أن مدنية الغرب الحديثة تقوم على
أساس من العلم والتجربة، ومبادئ الحرية والديمقراطية، لا على الدين، وأنه لا مانع بالتالى
يحول دون تبنى شعوب الأقطار المستعمرة لمختلف مظاهر الحضارة الغربية، بل ولا بأس حتى
من أن تصبغ تلك المظاهر عند تبنيها صبغة روحانية نابعة عن دياناتها. وقد كان المستعمرون
- فى بعض الحالات على الأقل - صادقين فى زعمهم، إذ لم يعد الدين عند غالبيتهم - كما
عند غالبية الإغريق والرومان - يعنى الكثير أو القليل. وهو بالضبط ما يسّر على شعوب
المستعمرات تقبل حضارتهم.. كل ما كان يهّم المستعمرون فى هذا الصدد هو أن «يهدموا
التعصب الدينى» على حدّ تعبير الآشوريين فى أواخر القرن الثامن قبل الميلاد، وتعير بونابرت
فى آخر سنى القرن الثامن عشر بعد الميلاد.

اضمحلال حضارة الإسلام

وننتقل الآن إلى العصر الحديث الذى يُقال بصده - ويحق - إن حضارة أوروبا
الغربية، قد فرضت أو كادت تفرض نفسها فيه على الكرة الأرضية بأسرها، بعد أن ظل العالم
لآلاف السنين (وحتى حوالى عام ١٥٠٠م) موزعاً بين أربع حضارات تكاد تكون متكافئة، هى
حضارات الصين، والهند، والشرق الأوسط، وأوروبا.

غير أن ما نسميه بحضارة أوروبا الغربية، إنما بزغت نتيجة ثورة عظيمة فى العلاقات
الدولية، كانت بدورها ثمرة التحسينات التقنية فى الملاحة البحرية التى يسّرت على كولومبوس
الوصول إلى أمريكا عام ١٤٩٢، وعلى فاسكو دا جاما الوصول إلى الهند عن طريق رأس
الرجاء الصالح عام ١٤٩٨، وعلى ماجلان الطواف حول الأرض فى الأعوام ما بين ١٥١٩
و١٥٢٢، فربطوا برحلاتهم بين الوجه الأطلسى لأوروبا، وبين معظم أنحاء العالم، وقد كانت
أوروبا الغربية أكثر بقاع الأرض استفادة من هذه الثورة، إذ أصبحت منذ ذلك الحين ملتقى
ثمار الحضارات المختلفة، وملتقى البدع من كل صنف، مما سمح للأوروبيين بتبني كل ما
يروقههم ويروونه مفيداً، مما وجدوه لدى غيرهم، ودفعهم هذا التبني لزيادة وخيرة ما عند

الحضارات الأخرى إلى إعادة النظر فى حضارتهم هم، وإعادة التنسيق والتركيب، بل وإعادة البناء على أسس من هذا التراث الحضارى الموسّع، ومن الأفكار والنظم والتطلعات والابتكارات والبدع التى لا تعرف حداً.

إذن فقد كانت بدايات القرن السادس عشر إيذاناً ببدء تفوق حضارة أوروبا الغربية على غيرها، وإيذاناً ببدء اضمحلال الحضارة الإسلامية. وقد عزا بعض المؤرخين عندنا وعندهم بداية هذا الاضمحلال إلى أسباب أهمها تأثير الحصار البحرى الأوروبى فى أحوال تجارة المسلمين، وفقدان هؤلاء لما كان يعود عليهم من ربح وفير نتيجة التوسط بين أوروبا والشرق الأقصى فى تجارة التوابل بالأخص. غير أن السبب الحقيقى لهذا التدهور فى الواقع - وهو ما قد يدهش البعض له - هو استمرار الانتصارات العسكرية للعثمانيين على أعدائهم فى أوروبا وغيرها لأمد طويل بعد بدء هذا الحصار البحرى الأوروبى، وحتى هُزمت جيوشهم عند أبواب ثيننا عام ١٦٨٣ م. فلو أن قُطع الأوروبيين لطريق تجارة المسلمين مع الشرق الأقصى فى عهد السلطان الفورى نجم عنه على الفور ما كان ينبغى أن ينجم عنه من إحساس المجتمع الإسلامى بالخطر الخارجى الذى يتهدده، وبضرورة تعديل الأوضاع الداخلية تعديلاً يكفل التصدى لهذا الخطر، والتكيف تكيفاً إيجابياً وفق الظروف الجديدة، لكان حال المسلمين اليوم غير ما هو عليه من ضعف. غير أن المؤسف فى الأمر هو أن جيوش العثمانيين (السادة الجدد للشطر الأعظم من العالم الإسلامى) ظلت تحرز نصراً بعد نصر، وتوسّع حدود الدولة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً على مدى ما يقرب من قرنين. وهى انتصارات أوهمت المسلمين الغافلين أنهم بها قد صدّوا الأخطار الخارجية والداخلية، ولطمأنتهم طمأننة غريبة قاتلة على استمرار مجد دولة الإسلام وتفوقها على عالم الكفرة الكلاب، مما أسفر عن روح محافظةٍ مبالغٍ فى المحافظة، ورفضٍ عن استعلاء لكافة البدع، واستخفافٍ بضرورة النظر فى حضارة الأعداء بغرض اقتباس العناصر النافعة منها.

ثم عامل آخر ذو تأثير حاسم فى الرجعية والجمود اللذين أصابا عالم الإسلام فى ذلك العصر، فمنذ بداية القرن السادس عشر، أصبح النزاع بين إيران الشيعية والدولة العثمانية السنّة، سمة رئيسية للتاريخ الإسلامى لمدة ثلاثة قرون، وكان من الحدة والعنف بحيث بدا صراع الدولتين مع أوروبا بالمقارنة به صراعاً هامشياً. وكانت نتيجة هذا الصراع بين السنيين والشيعية أن زاد حرص القائمين على الدين، هنا وهناك، على التمسك بأهداب عقيدة محافظة متصلة جامدة، لا تسمح بأى تجديد أو بدعة أو تأثر بمؤثرات خارجية، وزاد تمسكهم بطابع

التطلع إلى الماضي لا المستقبل الذى يميز الشريعة الإسلامية.. وهو طابع شجّع المسلمين على التعلّق بالقديم، وعلى إغفال عنصر كان قائماً فى التراث الثقافى فى دولة الإسلام إبان عصور ازدهارها ونهضتها، وساهم مساهمة جلية فى تفوّقها زمناً طويلاً على الأوروبيين وغيرهم... وقد كان هذا سبباً رئيسياً فى أن عصر النهضة الأوروبية لم يكن له صدى قوى أو خافت فى العالم الإسلامى. فبعد بداية طيبة ونزعة إلى الاستفادة من هذه النهضة لدى محمد الفاتح فى الدولة العثمانية، والإمبراطور أكبر فى الهند، إذا بالسلطانين سليم وسليمان القانونى فى إستنبول، وأورانجزيب فى دلهى، يرون خطراً فى كل فكرة جديدة، وكل دعوة إلى إصلاح، وكل نزعة إلى ابتداع، وكل اتجاه إلى التساؤل وإعادة النظر، وإذا تلك النهضة فى الفنون والآداب والعلوم التى شهدتها أوروبا فى ذلك العصر، لا تواكبها من بعيد أو قريب نهضة مماثلة فى العالم الإسلامى، لا فى الدولة العثمانية، ولا فى دولة الفرس، ولا فى دولة المغول بالهند.

والأدهى من ذلك أن سياسة القهر التى انتهجها حكام المسلمين ورجال الدين على سواء تجاه كل مبادرة فكرية حرّة، كان لها من الآثار الوخيمة على الإسلام ما لا نزال نعانى منه إلى يومنا هذا.. فقد بات التصدى لتلك المبادرات الفكرية الحرة تصدياً إدارياً من السلطة، لا تصدياً فكرياً من أصحاب الرأى المخالف. وقد شلّ هذا القمع العنيف كل محاولة من أجل التجاوب مع المتغيرات فى العالم المحيط بنوالة الإسلام، ومن أجل مجابهة التحديات الجديدة. فكان أن وجد المثقفون السلامة إما فى التزام الصمت، أو الالتزام بما يمليه علماء الدين.. ثم كانت ثمرة أخرى لهذا الافتقار إلى الحوار الفكرى بين أصحاب الآراء المختلفة: وهى أن علماء الدين الرجعيين، وقد اطمأنوا إلى مناصرة الحكام الفاشمين لهم، ومؤازرة السلطة السياسية والعسكرية، وإلى فقدان المفكرين للجرأة على التحدى والنقاش، لم يجدوا ضرورة للتسلح بالمزيد من العلم والمعرفة من أجل ضمان النصر فى أى جدل أو حوار مع المخالفين. وبالتالي فقد أهملوا الدرس والتحصيل، وقلّت بضاعتهم من العلم، وانصرفوا عن تراثهم الفكرى الرائع، مكتفين بالاستناد إلى الحكومة فى حماية العقيدة، ومحاربة البدعة، وهو بالضبط ما لا يزال يحدث إلى اليوم، إذ نرى رجال الدين الرسميين كلما ظهر كتاب أو مقال يخالف فكرهم، يهرعون فى جزع إلى السلطة يضرعون إليها أن تصدر هذا الكتاب أو تقمع فكر هذا الكاتب، وإن نرى عدداً من المسميّين بالمفكرين الإسلاميين - فى مصر مثلاً - كلما ظهر صوت واحد ينادى بربط الإسلام بالعالم المعاصر، هبوا يصرخون مطالبين بإخماد هذا الصوت، ويتعجبون كيف تسمح الحكومة به فى قلب العالم الإسلامى، ومدينة الألف مئذنة!

فى كل هذا، لا فى فقدان تجارة التوابل، تكمن المحنة الحقيقية للإسلام فى العصر الحديث، ويكمن سرّ الفشل.

عالم اليوم

. وحال العالم الإسلامى اليوم عظيم الشبه بحاله فى ظل دولة العثمانيين: هى العزلة ذاتها، وهو التجزؤ الفكرى ذاته، والاستغراق فى التفاهات والتّرهات والانشغال بمشاكل الساعة الراهنة عن التيارات الكبرى والتطورات البالغة الأهمية التى يشهدها العالم الخارجى.. ففى الوقت الذى تقترب فيه المجموعة الأوروبية من تحقيق وحدتها، ويذوب فيه الجليد فى أوروبا الشرقية، ليسمح ببذر بنور الديمقراطية والحرية، وتتجه الآمال إلى توثيق أوأصر الألفة والتعاون الاقتصادى والسياسى بين شطرى أوروبا بعد الانهيار المفاجىء للستار الحديدى، وتشرع فيه جمهوريات ما كان يُعرف بالاتحاد السوفيتى فى إعادة البناء، وشق طريق جديد تنبذ فيه أخطاء الماضى ومآسيه، وتتعالى أصداء هذه الأحداث فى أركان العالم من الصين إلى شيلي مروراً بجنوب أفريقيا بل وحتى بينين، نرى ردّ فعل الغالبية العظمى فى عالمنا الإسلامى تجاه هذه التطورات الأوروبية لا يختلف ذرة واحدة عن ردّ الفعل عند محمد بن عبد الوهاب زعيم الحركة الوهابية فى القرن الثامن عشر: وهو أن السبيل الوحيد إلى مقاومة التحدى هو العودة إلى ما كان عليه السلف الصالح، وإلى جلايبهم ولحاهم، وقمع كل بدعة مستحدثة.

لقد لمستُ أثناء رحلة لى إلى أوروبا عام ١٩٩٠ حالة من النشوة تسرى فى الإعلام الغربى، ناجمة عن الأحداث المتلاحقة فى شرق أوروبا، وعن الأمل الناهض فى إقامة «البيت الأوروبى الموحد» ثم «النظام العالمى الجديد».. ولعلنى لا أكون مغالياً أو واهماً إذا ادّعت أننى استشعرتُ نزعة إلى الاستعلاء لدى الأوروبيين الغربيين، قد تنقلب إذا استمرت الأمور فى سيرها على ما يوافق هواهم إلى ضيق صدر بمخلفات أية حضارة أو عقيدة، قد تعرقل من المسيرة تجاه هذا النظام العالمى الجديد، وتؤخر من إرساء أسس حكومة عالمية تتصدى لمشكلات كوكب الأرض الصغير.. وأغلب ظنى أنه إذا استمر العالم الإسلامى على تحجره وسخافاتة، فإنه سيدفع هؤلاء القوم إلى التساؤل: «إذا كنّا قد نجحنا فى تقويض دعائم العقيدة الماركسية، رغم ما تحيط نفسها به من سلاح ودعاية، ورغم أصولها الأوروبية، فما

بالنا لا نزلزل أركان عقيدة متخلفة متحجرة لدى هؤلاء البرابرة الذين لا يملكون سلاحاً، ولا يتقنون فنون الدعاية، ولا يستمتعون من الدنيا بغذاء أو كساء إلا ما نجود به عليهم؟».

وفى رأى أنه فى استمرار نمو التيارات الدينية الرجعية، فى عالمنا الإسلامى، ونمو هيمنتها على مجريات الأمور فيه، ما سيضمن قطعاً أنه لن يكون لنا موقع فى ذلك النظام الذى يخطط له من الآن أبناء البيت الغربى الموحد إلا موقع التبعية الحضارية والاقتصادية. فإن أردنا إنقاذ الإسلام، والإبقاء على دور حيوى إيجابى له فى الحضارة الجديدة التى بدأنا نلمح بواكيرها، فلا بد من إيجاد رابطة بينه وبين النظام العالمى الجديد، بأن ننمى من عناصره التى من شأنها أن تُثرى هذه الحضارة، وأن نقمع ما شابهُ على مدى القرون من عناصر تفرق ولا توحد بين البشر.

فإن كان لابد من التطلع إلى سلف صالح، فإن إختاتون بنظرتة الثاقبة إلى وسيلة ربط بلاده وديانيتها بأحوال العالم المتغيرة حوله هو بكل تأكيد ذلك السلف الصالح.

خاتمة

إن ما يصنعه المتطرفون الدينيون فى العالم الإسلامى اليوم، أشبه شىء بما كان يصنعه نابونيدوس آخر ملوك بابل (٥٥٥ - ٥٣٩ ق.م)، قبل سقوط دولته على أيدي الفرس. فقد شاعت بين شعب بابل فى زمنه مشاعر الإحباط والتشاؤم واليأس، والاحتجاج على المظالم ومجريات الأمور فى مجتمعهم، والاعتقاد بأن الدولة آخذة فى التحلل والانحيار. وكان من رأى نابونيدوس أنه لا سبيل إلى التصدى للوضع وإنقاذ الموقف إلا بالعودة إلى ما كان عليه السلف الصالح، وإحياء أمجاد الماضى، وإعادة بعض مظاهر حضارة بابل إبّان ازدهارها.. فإذا هو يشرع، ضمن ما شرع فيه، فى تنظيم حملة واسعة النطاق للبحث عن مواقع المعابد القديمة بهدف اكتشاف تصميماتها المعمارية، حتى يبنى فى تلك المواقع بعينها معابد هى نسخ مطابقة تماماً للأصل. وقد كان فى جهوده هذه ما يوحى بإحياء قوياً بنفاد جعبته من الثقة بالنفس، ومن القدرة على الابتداع من أجل مواجهة المشكلات المعاصرة لمجتمعه، بحيث توهم أن بمقدوره استعادة الثقة لو أنه تطلع خلفه إلى أمجاد عصر كان يزخر بسمات قوة لم تعد لديه.

مشكلات التحوار مع الجماعات الدينية المتطرفة

الأصل في التحوار بين المفكر ونقّاده، أو بين صاحب الرأي وخصومه، هو أن يكون الحوار وسيلة لتنبيه المفكر أو صاحب الرأي إلى أخطاء انزلق إليها، أو أوجه قصور تعتور منطقها، وتوسيع مدارك القراء أو السامعين وفهمهم، وتنمية معارفهم، وتمكينهم من تكوين نظرة إلى الأمور هي أقرب إلى الصحة، فهم جميعاً شركاء في مهمة واحدة.. والفروض أن يدرك المفكر أو صاحب الرأي أن عليه أن يكون شديد الامتنان للمساعدة التي يقدمها النقاد والمحاوون له، وأن يكون على استعداد كامل لهجر النتائج التي توصل إليها إلى غيرها متى ثبت له تناقضها مع مقتضيات المنطق، وألا يعرف التزاماً غير الالتزام تجاه كل ما في الكون بحب استطلاع محايد.. وقديماً قال الإمام الشافعي:

«ما ناظرتُ أحداً قط فأحببت أن يخطيء، وما كلّمتُ أحداً وأنا أبالي أن يبين الله الحق على لساني أو على لسانه».

غير أن مثل هذا التحوار لا نكاد نجده إلا في مجال المعارف العلمية القابلة للإثبات والتحقق منها، لا في مجال الآراء. فالمعرفة قد تكون في وقت من الأوقات غائبة (كجهل البشر في الماضي بقابلية الذرة للانشطار)، أو قاصرة (كجهلنا اليوم بسبل علاج السرطان أو دن)، أو حتى خاطئة (كظن الأوائل أن الشمس هي التي تدور حول الأرض)، غير أنها في سبيل التطور والتقدم والتصحيح، حتى تغدو ثابتة مثبتة لا يختلف حولها اثنان.. لم ليست به حاجة إلى شن حملات صليبية لإبادة غير المصدّقين بالنتائج التي توصل إليها. إن القول برأى مخالف في مجال العلم مطلوب ومُرحّب به ومُشجّع عليه، ويزيد من لذة بحث، ويحاط المبتدعون فيه بكل مظاهر التبجيل والامتنان.. أما الآراء فغالباً ما تكون غير قابلة لأن يجتمع عليها الناس، وعرضة لأن تتحكم فيها الأمواء والمصالح، وأن تختلف باختلاف الشخصية أو اختلاف التجارب والخبرات، وأن تكون دائماً موضع الجدل والنزاع، والخصومة

والقمع، والإرهاب والقتال، بحيث يصبح من النادر أن يصبر امرؤ على الاستماع إلى رأى سياسى أو اقتصادى أو دينى يخالف رأيه، أو أن يعرض قضيته عرضاً موضوعياً نقدياً هادئاً مجرداً عن الهوى. بل إنه فى مجال الدين بالذات نرى الناس على استعداد لأن يحرق بعضهم بعضاً، بل وأن يُحرقوا هم أنفسهم، بسبب الخلاف حول رسم علامة الصليب بإصبع واحدة أو إصبعين، أو حول ما إذا كان الله واحداً ذا مظاهر وطبائع متعددة أو هو ثلاثة من طبيعة واحدة، أو ما إذا كان القرآن كلام الله مخلوقاً محدثاً أو قديماً قدم الله.

ففى مجال المعرفة نجد أن الطالب، لو سأل أستاذه أن يبرهن له عملياً على أن الحديد يتمدد بالحرارة، أو أن الماء مكون من عنصرين هما الأوكسجين والهيدروجين، لاصطحبه الأستاذ إلى المعمل ليجرى أمام بصره من التجارب ما هو كفيلاً بإقناعه. ولو أنى شككت فى أن الأردن يقع فى الشمال الشرقى من مصر، لكان بوسعى أن ألقه إليه فى طائرة أو سيارة فتوضح لى البوصلة اتجاهى وأنا فى طريقى إليه.. أما فى ميدان الرأى والعقائد فغالباً ما أطالب بتصديق أمور من الصعب إثباتها والتأكد من صحتها أو من خطئها، وكثيراً ما يقع عبء الإثبات على عاتق المكذّب للافتراض. والملاحظ بوجه عام، خاصة فى الأمم المتخلفة، أنه كلما كان هناك خلاف فى الرأى حول مسألة تتصل بالدين بالذات، كان من الصعب على عامة الناس وعلى علمائهم وفقهائهم على السواء، أن يناقشوا الأمر فى هدوء وبدون انفعال، وبدون أسباب وتكفير وتخوين.. وتتسائل نحن: ما الذى يمكن أن يدفع امراً إلى الثورة والهيّاج والصراخ وإطلاق اللسان بما لا يليق لمجرد قراءته مقالاً من بضع صفحات يتضمن رأياً فى شأن من الشؤون الدينية لا يتفق ورأيه؟ ما الذى يحول بينه وبين أن يردّ على المقال على النحو التالى مثلاً: «قرأت مقال كذا بقلم فلان، وأعتقد أن كاتبه قد أخطأ إذ جعل كلمة كذا مرادفة لكلمة كذا، فى حين أن المعاجم العربية تعرفها بأنها كذا وكذا.. كذلك فإننى لا أرى رأيه فى أن الدافع الرئيسى وراء كذا كان كذا، وأستند فى رأىى هذا إلى ما ذكره ابن اسحق فى سيرته، وما ذهب إليه الطبرى فى تاريخه.. ورغم أنى أتفق مع الكاتب فى كذا فإننى أخالفه فى اعتباره الأمثلة التى أوردها كافية لإقامة الدليل.. وقد كان من واجبه أن يذكر المصدر الذى استقى منه حديث كذا إذ لم نوقف إلى العثر عليه فى المراجع التى بين أيدينا. وسيساعدنا أن نقرأ قريباً له تفسيراً أكثر تفصيلاً وتوثيقاً لهذه النقطة أو تلك.. والمقال على أى حال، ورغم الأخطاء التى نبهنا إليها، لا يخلو من فائدة؛ فقد كان له فضل إيضاح كذا وكذا. ويا حبذا لو أن الكاتب التزم فى بحوثه التالية بمراعاة كذا وكذا...» إلى آخره.

مثل هذا الأسلوب فى الجدل والحوار والنقد لا يكاد يكون معروفاً عندنا فى أى مجال من مجالات الفكر، خاصة فى مجال الفكر الدينى.. أما الأسلوب الشائع فى بلادنا فهو: «إنه قول لا يقوله إلا جاهل أو مبتدع أو كلاهما. وقد دل المقال على القصد السئ من الكاتب للكيد لهذه الأمة فى دينها وعقيدتها.. ولا ريب فى أن من يروج لهذه الأفكار إنما هو من صنف المنافقين الذين يُظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، ويكيّدون للإسلام والمسلمين، ويزعزعون ثقتهم فى عقيدتهم وأنفسهم، ويعملون على تمكين الأعداء من النيل منهم وتدمير كياناتهم واستباحة أوطانهم وحرمانهم.. إننا لا ندرى ما الكفر إن لم يكن هذا الذى قاله. وهل قال أعداء الإسلام أكثر من هذا؟ ونحن قائلون للكاتب إن ذهب الحياء فاصنع ماشئت وشاء لك الذين تكتب نيابة عنهم...» إلى آخره.

* * *

أعود فأقول: إنه ما من شخص يدخل فى حوار دون أن تحده رغبة مخرصة فى معرفة الحق، ودون أن يعبأ بما إذا كان الحق هو مع رأيه الذى دخل الحوار به، أم مع رأى خصمه، إلا خرج من الحوار وهو على سالف رأيه.. وبالتالي فإن علينا بادئ ذى بدء أن نستبعد من إمكانية الحوار الفعال المجدى مع الجماعات الدينية المتطرفة صنوفاً معينة من الناس:

* المرتزقة ممن يتكسّبون من وراء نشاطهم فى تلك الجماعات، والعاملين فيها بوحى وتوجيه من جهات أو دول أجنبية.

* نوى المپامح السياسية من الساعين إلى الوصول إلى الحكم عن طريق استغلال الدين والعاطفة الدينية لدى أفراد جماعاتهم الغافلين عن هذه المپامح لدى قاداتهم.

* العامة من الناس ممن لا يعرفون فكراً أو يملكون علماً، وأوهمتهم قياداتهم أنهم قد باتوا - لأول مرة - يفكرون ويقررون ويختارون لأنفسهم.

* أولئك الذين يعود اعتناقهم لمبادئهم وتشبّثهم العنيد بها، لا إلى تفكير عميق ويحث طويل موضوعى عن الحقيقة كما يتوهمون، وإنما إلى أسباب فسيولوجية أو نفسية أو اعتبارات اجتماعية أو اقتصادية. وقد سبق لفرويد أن عرّف الآراء بأنها «اعتقاد المرء بصحة شىء ما لمجرد رغبته فى أن يكون ذلك الشىء صحيحاً». أما باقلوف فيرجع اختلاف الآراء وريود أفعال الأشخاص إلى اختلاف طبيعة الجهاز العصبى لدى كل منهم، فالطبيعة البشرية تسعى دائماً إلى التوازن، وتتابع الأحداث والمؤثرات والخبرات يعيد المرء ترتيب قيمه ومفاهيمه حتى

يضمن استمرار هذا التوازن. وقد ينهار التوازن عند البعض أو يختل متى تعرض الفرد لظروف قاسية ضخمة التأثير، فينجم عن ذلك تهيج قوى يصيب النشاط العصبي باختلال يؤدي إلى اضطراب نفسى وإلى أفكار ذات طبيعة متطرفة مريضة.

ومن السهل أن نرى بوضوح أن جميع هؤلاء لن يجدي معهم حوار. فالصنفان الأولان لا تهمهما معرفة الحقيقة فى شىء، وكل ما يعنيهما هو النفع الذاتى. وأما الثالث فهو أجهل من أن يكون قادراً على الدخول فى حوار. وأما الصنف الرابع فهو وإن توهم فى آرائه الموضوعية إنما يهيمه - كما قال فرويد - أن يكون الرأى صحيحاً بالنظر إلى موافقته لاختلاله الفسيولوجى أو النفسى. ولو أن شخصاً من هذا الصنف من الناس كان مخلصاً مع نفسه لقال قولة شبيهة بقولة دوستويفسكى الشهيرة: «لو ثبت لى أن المسيح ليس هو الحق، لفضلت المسيح على الحق»... مثل هؤلاء الذين تجد نفوسهم راحة معينة فى اعتناق آراء معينة، بصرف النظر عما إذا كانت حقاً أم لم تكن، من الواضح أن الحوار معهم غير مجد.

غير أننا حتى إن استبعدنا تلك النوعيات الأربع من الناس، لوجدنا أن مسألة الحوار ذاته بين الأفراد العاديين أمر مضمّن غير كبير الجدوى. فالإنسان بطبعه كائن عنيد، لا يدخل فى حوار على أمل تصحيح بعض مفاهيمه أو كلها متى سيقّت له حجج قوية كان غافلاً عنها، وإنما يدخل الحوار مفترضاً الخطأ فى تفكير الغير، ولإثبات خطأ الخصم، فيتضاؤل أو يختفى الاهتمام بالحقيقة أمام الاهتمام بالانتصار. وهو يحاول الظهور بمظهر الموضوعى المخلص فى الوقت الذى يوارى فيه ويخفى الحجج التى تنتقص من قوة رأيه وتوهنه. ولدى كل منا من الغرور الطبيعى ما يجعله شديد الحساسية بالذات فيما يتعلق بقواه العقلية، وهو أمر لا يسمح لنا عادة بالإقرار بالخطأ حتى لو أدركنا أننا مخطئون، خاصة مع علمنا بأن اعترافنا بصواب بعض حجج الغير لا يضمن أن هذا الغير سيعترف فى مقابل ذلك بصواب بعض حججنا نحن. ولسنا فى حاجة إلى قراءة ماكيافيللى لقبول نصيحته للأمير بأن يستغل كل فرصة يبدو فيها الخصم ضعيفاً للهجوم عليه، وإلا فعل الخصم الشئ نفسه، بل إنه لكثيراً ما يلجأ المحاور حين يلمس قرب الهزيمة واقتضاح ضعف حجته إلى القول بأنه لم يقرأ أو يفكر فى الموضوع بما فيه الكفاية، وبأن غيره من المعتنقين الرأى نفسه هم أعلم بأسانيده، وأقدر منه على الدفاع عنه.

وفى ظنى أن الحل الوحيد لهذه المشكلة المستعصية، هو أن نحصر على أن نفكر طويلاً

قبل أن نشرع فى الكلام، وعلى أن نبذل قصارى الجهد من أجل الوصول إلى رأى سليم قبل الموافقة على الدخول فى حوار، وعلى أن نلتزم فى كل حوار ندخله بمبدأ الإمام الشافعى الذى سبق لنا ذكره.

غير أننا حتى إن افترضنا فى أطراف الحوار حسن النية، والرغبة المخلصة فى معرفة الحقيقة، وضعف الاهتمام بالانتصار على الخصم، فإن المشكلة ستظل قائمة: أولاً بسبب ما نبه إليه الفلاسفة منذ ديفيد هيوم فى القرن الثامن عشر إلى الوضعيين المنطقيين فى قرننا هذا من اختلاف مفاهيم الكلمات ودلالاتها من شخص إلى آخر، ثم اختلاف تفاسير النصوص الدينية، ثم التناقض الظاهرى بين بعض الآيات القرآنية وبعض، والتناقض الصريح بين بعض الأحاديث النبوية الصحيحة والأحاديث الموضوعة التى يؤمن الكثيرون من غير المتخصصين بصحة نسبتها إلى الرسول، واستناد كل طرف من أطراف الحوار إلى آيات وأحاديث وقصص فى السيرة النبوية تناقض ما يستند إليه الطرف الآخر من آيات وأحاديث وقصص.

لننظر مثلاً إلى الجدل العنيف الذى دار فى العشرينيات من هذا القرن - ولا تزال أصدائه تتردد إلى يومنا هذا- حول كتاب على عبد الرزاق «الإسلام وأصول الحكم»... فالمؤلف من أجل إثبات براءة الإسلام من نظام الخلافة ظن أن أهم سبيل إلى تحقيق غرضه التدايل على أن الرسول لم يجمع بين الرسالة والملك، ولم يؤسس بالإسلام دولة سياسية مدنية كان هو ملكها وسيدها، فاستند إلى آيات قرآنية تنكر أن يكون للنبي شأن فى الملك السياسى، مثل:

(لا إكراه فى الدين). (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتى هى أحسن). (فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر). (فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ). (أفأنت تكفر الناس حتى يكونوا مؤمنين). (وكذب به قومك وهو الحق، قل لست عليكم بوكيل). (وأعرض عن المشركين، ولو شاء الله ما أشركوا، وما جعلناك عليهم حفيظاً، وما أنت عليهم بوكيل). (فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً، إن عليك إلا البلاغ). إلى آخر ما استند إليه من آيات معظمها آيات مكية نزلت قبل أن يهاجر النبى إلى المدينة، وقبل أن يؤسس فيها الحكومة ذات الطابعين الدينى والسياسى معاً، وقبل أن توحى إليه آيات مثل:

(النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم). (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعصى الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً). (من يطع الرسول فقد أطاع الله). (ما كان لنبي أن يسرى حتى يثخن فى الأرض). (إنما

جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يُقْتَلُوا أو يُصَلَّبُوا أو تُقَطَّعَ أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يَنْقُطُوا من الأرض). (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون). (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم).. إلى آخره.

فثمة إذن آيات في القرآن استند إليها على عبد الرزاق ومناصروه ويستند إليها في يومنا هذا الساعون إلى التلليل على سماحة الإسلام واعتداله وسعة صدره وعزوفه عن استخدام الإكراه والعنف والفظاظة في التعامل مع خصومه، وثمة آيات استند إليها خصوم على عبد الرزاق ويستند إليها في يومنا هذا أعضاء الجماعات الدينية المتطرفة ممن ينكرون أن تكون ولاية النبي على قومه ولاية روحية بحتة كتلك التي كانت لإخوانه من الرسل الذين لم يخطر ببالهم تأسيس دولة أو تنظيم حكومة، ويذهبون إلى أنه لو كان النبي مبشراً ونذيراً فحسب، وليس على قومه بوكيل، وليس عليهم بمسيطر، وليس عليه إلا البلاغ، وليس له أن يكره الناس حتى يكونوا مؤمنين، لما أشرف بنفسه على تطبيق حكمي قطع يد السارق وجلد الزاني وعلى جمع الزكاة وقسمة الفنائم وتعبئة الجيوش ومصادرة أملاك بني قريظة وقتل أسراهم، ولما نزلت آيات مثل (فإن لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب). (يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وغلظ عليهم). (يا أيها النبي حرّض المؤمنين على القتال). (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله). (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً. ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلاً).

وهذا مجرد نموذج للحوارات الدائرة اليوم: إن استند المفكرون الإسلاميون المسمون بالمستنيرين، أو رجال الدين الموصوفون بالاعتدال، إلى آية (لا إكراه في الدين)، ردّ عليهم أفراد الجماعات الدينية المتطرفة يستشهدون بالآيات المدنية التي ذكرناها لتوّنا، وبما ذكره الطبري في تفسيره من أن آية (لا إكراه في الدين) نسختها الآيات التي تحض المؤمنين على القتال وآية (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه). وإن استنكر البعض حادثاً كحادث اغتيال فرج فودة، ووصفوا الفعلة بالدناءة والمخالفة لروح الإسلام السمحة، مستشهدين بآية (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتى هي أحسن)، استشهد مجادلهم بمجموعة من القصص الواردة في كتب السيرة المعتمدة، كسيرة ابن اسحق

ومغازى الواقدي، تروى كيف أوقد النبي جماعات من أصحابه لقتل شعراء هجوه، أو حرّضوا عليه فى شعرهم كفار قريش.. يقول الواقدي:

«كان كعب بن الأشرف شاعراً. وكان يهجو النبي وأصحابه ويحرّض عليهم كفار قريش فى شعره. فقال رسول الله: من لى بآبن الأشرف فقد آذانى؟ فقال محمد بن مسلمة: أنا قتله. قال النبي: فافعل. فمكث ابن مسلمة أياماً لا يأكل. فدعاه رسول الله فقال: تركتَ الطعامَ والشراب؟ قال: يا رسول الله، قلتُ لك قولاً فلا أدري أفى لك به أم لا. قال رسول الله: عليك الجهد؛ شاور سعد بن معاذ فى أمره. فاجتمع ابن مسلمة ونفر من الأوس فقالوا: يا رسول الله، نحن نقتله. فمضوا حتى أتوا ابن الأشرف فضربوه بأسياقهم، واحتملوه حتى أتوا النبي فوجدوه واقفاً على باب المسجد. فقال: أفلحت الوجوه! قالوا: ووجهك يا رسول الله! ورموا برأسه بين يديه. فحمد الله على قتله. فلما أصبح رسول الله قال: من ظفرتم به من رجال اليهود فاقتلوه. فخافت اليهود فلم يطلع عظيم من عظامهم ولم ينطقوا، وخافوا أن يبيئوا كما بيئت ابن الأشرف».

هذا عن القرآن والسيرة. فاما عن الحديث فنحن نعلم يقينا كيف استُخدم اسم النبي فى نشر الأكاذيب، وكيف حورب كل تزوير واختلاق للأحاديث بتزوير المزيد، حتى أصبح فى جعبة كل فرقة أو مذهب أو أصحاب رأى مجموعة ضخمة من الأحاديث التى تطعن فى الفرق والمذاهب والآراء الأخرى. وقد كان المعيار يوماً لدى هؤلاء وأولئك أن الغاية تبرر الوسيلة، وأن أية وسيلة مهما حوت من التلفيق والبهتان لا غبار عليها ولا مطعن فيها ما دامت تخدم غرضاً نبيلاً كتعزيز الإيمان، وإرجاع الحق إلى أهله، وتنحية الفاسقين عن تدبير أمور المسلمين، أو استئصال جذور الفتنة.

وقد كان للأحاديث وأحكام السنة أخطر دور فى تكييف حياة المسلمين إلى يومنا هذا، بل إنها كادت - لكثرتها - تنافس الأحكام القرآنية فى مدى عمق تأثيرها. فالكثير من التنازع بين الجماعات، ومن مظاهر سلوك أفراد الجماعات الإسلامية، وسخط الأتقياء على بعض جوانب حياتنا المعاصرة، يقوم على أساس من الحديث، صحيحه وكاذبه.. وقد قامت بين ظهرانى أمة الإسلام وشاعت بين شبابها مذاهب ترى بدعة ليس فقط فى كل ما يعارض السنة، وإنما أيضاً فى كل ما لا يمكن إثبات أنه من السنة. فكان أن حرّمت هذه المذاهب أموراً مثل شرب القهوة واستخدام الملاعق والسكاكين، بل وحتى الطباعة، بحيث يمكن القول بأنه لو قدر لهذه المذاهب أن تسود وتطبق لكان مجرد العيش فى ظل ظروف تختلف عن ظروف

حياة العرب وقت النبي والخلفاء الراشدين أمراً مستحيلاً، وبأن الكثير من الأحاديث الموضوعة بات يشكل حائلاً دون تقدم الأمة الاجتماعى والسياسى.

إن الاجتهاد والرأى لم ينقضيا بانتضاء أجل أبى حنيفة والإساءة إلى ذكره ومذهبه بعد وفاته. فبالرغم من أن الحديث باتت له نفس المكانة العليا فى كافة المذاهب، فقد ظل الفقهاء يوماً يعملون فكرهم ويصلون إلى الرأى بالاجتهاد. غير أنهم صاروا إذا أرادوا الخروج به وتدرسه يلجأون إما إلى وضع الأحاديث، أو إلى تفسير الأحاديث القائمة تفسيراً يوافق رأيهم، حتى يلقى الرأى قبولاً لدى العامة وأولى الأمر، وحتى يُخرسوا المعارضين. وفى رأينا أن فى مثل هذا الموقف إهانة للرأى، وامتهاناً لحرية الفكر، وتكبيلاً لأيدى العلماء والمفكرين ممن تابى عليهم ضمايرهم اختلاق الحديث. كما نرى فيه إفساداً للتداول ولذم المتحاورين، إذ يرون أتباع كل مذهب مقرض، وأصحاب كل رأى خاص، يستشهدون بالأحاديث لضمان الغلبة وإحراز النصر، فيحذون حذوهم، ويتخلقون بأخلاقهم.

ثم نأتى الآن إلى مثال حى أسوقه من واقعنا الراهن: أفراد من بعض الجماعات الإسلامية المتطرفة فى القاهرة وصعيد مصر يهاجمون احتفالات بالجامعة وغيرها فيحطمون الآلات الموسيقية ويضربون المفثين والمغنيات استناداً إلى أحاديث منسوبة إلى النبي تحرم الموسيقى والغناء.. غقب ذلك يظهر على شاشة التليفزيون المصرى بعض رجال الدين والمفكرين الإسلاميين «المستثيرين» يدينون هذا السلوك مستندين إلى سنيين لا ثالث لهما: أن الأحاديث التى تحرم الموسيقى والغناء أحاديث ضعيفة أو موضوعة، وأن ثمة أحاديث «صحيحة» تحلل الموسيقى والغناء، وقصصاً فى السيرة النبوية تثبت أن النبي، أو إحدى زوجاته، أو أحد العشرة المبشرة بالجنة، كان يستمع إلى الموسيقى والغناء ويستمتع بهما.

إلى هذا الحد من التخلف إذن قد بلغنا! إثبات قضية من القضايا قد بات عندنا محصوراً فى إثبات ورود حديث بصدها أو نفى ورود حديث.. قد أفهم عداء بعض المتعصبين ضيقى الأفق للغناء والموسيقى بسبب ما يخالونه حديثاً صحيحاً.. غير أنى لا أفهم أن يأتى دفاع «المستثيرين» عن الموسيقى والغناء مستنداً إلى حديث أو سيرة لا إلى اعتبارات العقل والمنطق.

هل بوسعنا أن نتخيل شاباً ألمانيا يتحدث عن الموسيقى على النحو التالى:

«إننى شديد الوله بالموسيقى لأنى قرأت أن مارتن لوتر - قدس الله روحه - مر يوماً

هو وزوجته يقوم فى قرية فيتنبرج يعزفون ويغنون، فشرعت زوجته تفنى مع القوم، بينما وقف لوثر أمامها وهو يهز رأسه استحساناً. وفى قول آخر، ظل يدق الأرض بمقدمة قدمه مسائراً للنغم.. أما عن ثقتى من أن الموسيقى هى من أهم الفنون طرّاً وأجداها على البشر فنابعة عن القصة التى أوردها إدموند لودلو، عن هنرى لوتريل، عن أوين فليتهايم، من أن بعض رفاق لوثر سألوه يوماً «ما قولك يا مارتن فى بابا روما الذى يكره الموسيقى؟» فأجاب لوثر: «دعوكم منه، فهو لا يفقه شيئاً». (وهو حديث متفق عليه).

هل يمكن أن نصادف ألمانياً يتحدث على هذا النحو؟ المعرفة عند الفرنجة هى استخدام المعروف فى إمالة اللثام عن المجهول. والمعرفة عندنا معشر المسلمين قائمة جاهزة كاملة بين أغلفة الكتب، وكلما كانت الكتب أقدم كانت المعارف أصح.. هذا هو موقف متخلفينا ومستنيرينا على سواء.. قد لا أعبأ كثيراً بالقرار المتخذ بشأن تحريم الموسيقى أو تحليلها، غير أن الكارثة الحقيقية فى رأى هى فى المنهج، صحته أو فساده.. وقد بدأت الحضارة الغربية الحديثة حين شرع فرانسيس بيكون فى مستهل القرن السابع عشر يتشكك فى النتائج التى وصل إليها أرسطو (وكانت من المسلمات فى القرون المظلمة)، فأصرّ على رفض المسلمات، وإخضاع كل شىء للتجربة ولإعمال العقل والتفكير.. فإن كان موقف مستنيرينا فى أواخر القرن العشرين على ما هو عليه، فمن ذا الذى سيعدّ أمتنا يا ترى لاستقبال القرن الحادى والعشرين؟

وختاماً أقول إننى لست من المؤمنين، بوجه عام، بجذوى الحوار مع الجماعات الدينية المتطرفة:

فالبعض يرفض الحوار أصلاً خشية أن يعرض نفسه للمفاهيم «الخاطئة» فيضلّ.

والبعض غير قادر عليه لقلة بضاعته من العلم.

والبعض لن يتسنّى أبداً إقناعه لارتباط مصالحه أو مطامحه بالرأى الذى يتبنّاه.

والبعض لا يريد الاقتناع لأنه يجد الراحة والعزاء فى الموقف الذى اتخذه دون سواء.

والبعض لن يجدى الحوار معه لاختلاف مفاهيمه اللغوية وأسانيده الدينية عن مفاهيم

محاوريه وأسانيدهم.

ولنما يبقى الأمل معقوداً بإقناع وتنبيه وتكليف الشباب الذى لم يكون له رأياً بعد، ولنا

ينخرط فى سلك مثل تلك الجماعات المتطرفة.. تنبيهه إلى أهمية معرفة أسباب نزول الآيات والإحاطة بملايساته.. إقناعه بأن السبيل إلى جعل الإسلام مهيناً لمجابهة مشكلات العصر الحديث مجابهة إيجابية فعالة هو الأخذ بروحه لا الالتزام بأحكام معينة متناثرة، بحيث تغدو إشارات وتوجهاته العامة بمثابة البوصلة التى تهدينا سواء السبيل فى أى مكان أو زمان كنا فيه.. وتكيفه حتى يقبل فكرة أن الدين لا ينشأ فى فراغ، وإنما يظهر فى مجتمع معين وزمن معين، فتتلون تعاليمه بالضرورة بظروف ذلك المجتمع، ومقتضيات ذلك الزمان، وتراعيها. فالدين حقيقة مطلقة وردت فى إطار تاريخى، وظهرت فى بيئة اجتماعية انعكست معالمها عليه، وذلك من أجل أن يلقي القبول، ويحظى بفهم الغالبية، ويضمن الانتشار.. ليس هذا فحسب، وإنما يمرّ الدين بعد ذلك بحقب تاريخية متتالية، وينتشر فى مجتمعات متباينة، فيتراكم عليه المزيد فالمزيد مما هو محلى محض، وعارض مؤقت. وعلينا من أجل أن نجابه اليوم التحديات الجسيمة التى تهدد كياننا ذاته، والتى تثير التساؤل حول حقنا فى البقاء، أن نتصدى لمهمة فصل الجوهري الخالد الصالح لكل زمان ومكان، عن العرضي الزائل الذى يثقل كاهلنا، ويقيد خطواتنا، ويعمينا عن الطريق.

علينا أن نقنع شباب أمتنا بأن هذه هى مهمته الحيوية، ومسئوليته الحضارية الرئيسية، وأنه ما لم ينهض بها يكون قد تنكر لواجبه تجاه دينه.. فالنهوض بها يمثل الأساس الواقعى الوحيد لآى تطور مستتير فى المستقبل، إن شئنا أن يكون لنا مستقبل.

رسالة من الشيخ عمر عبد الرحمن مفتى تنظيم الجهاد إلى الجهاز القيادي للتنظيم فى مصر

أيها الاخوة المناضلون

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

من نيويورك أحبيكم، أمالاً أن يكون قد وصلكم شريط التسجيل السابق الذى أرسلته إليكم مع الأخ طه فى التاسع من ربيع الآخر عام ١٤١٣ من هجرة نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام، والذى تناولت فيه موضوع السياحة فى مصر، وضرورة المضى قدماً فى العمل على تخريبها، باعتبار هذا التخريب أجدى الوسائل فى الوقت الراهن، لزعة اقتصاد الدولة، وحرمانه من أهم موارده من العملات الصعبة.

وقد وصلتني أمس رسالة منكم طابعها الجزع والهلع إزاء تكثيف السلطات المصرية لحملات القمع والعنف والاعتقال تجاه أفراد تنظيمنا والتنظيمات الإسلامية الأخرى، خاصة فى صعيد مصر، وتعبرون فيها عن قلقكم وخشيتكم من احتمال نجاح هذه الحملات.. وبالرغم من أنى أرى - وأقولها هنا بكل صدق وصراحة - أن أية حركة جماهيرية كحركتنا قد يفلح النظام فى قمعها واستئصالها بالعنف (مهما بلغت قوتها وشعبيتها) فإن هذا النجاح معلق بشرط جوهرى، هو أن يتوافر لهذا الحزم الثبات والدوام والقوة، بالإضافة إلى إيمان قوى لدى رجال السلطة (يعادل فى قوته إيمان أفراد تنظيماتنا) بأن الحق فى جانبهم، وأنهم إنما يقاومون خطراً داهماً يهدد مستقبل البلاد..

وانى لأحمد الله عز وجل، على أن هذا الشرط غير متوافر إلى يومنا هذا، وأن عنف السلطة وحزمها تجاه تنظيماتنا لا يزالان على تذبذبهما وترددهما وتقطعهما وضعف الإيمان وراعهما، وهو ما يضمن لنا أنهما لن يحققا طائلاً وإن يدوماً طويلاً.. وقد علمتني الحياة أنه متى تذبذبت السلطة بين العنف والتساهل، والمكافأة والمصالحة، والتشدد والتنازل، فسيكون من المقدر لحركتنا أن تفيق يوماً بعد كل كيوية، وأن تسترد قوتها بعد كل هزيمة، بل وستزيد

هذه القوة بعد كل مواجهة عنيفة معها، بالنظر إلى اكتسابها خبرات جديدة واكتساب ضحاياها حالة الشهداء والأبرار نتيجة كل صدام.

وإنى لأقولها لكم مخلصاً - وليس عن مجرد الرغبة في رفع معنوياتكم وتبرير هلعكم - إنه مما يزيد من اطمئناني إلى حتمية هزيمة النظام الراهن في حربه معنا، عدة اعتبارات رئيسية أو جزها فيما يلي:

أولاً: إدراك فريق قوى داخل السلطة أن قوة الحركة الإسلامية المتطرفة راجعة في المقام الأول إلى مظالم اجتماعية واقتصادية، لا يتسنى حلها وتداركها إلا على مدى سنوات طوال، وأنه من الظلم بالتالي أن تلجأ السلطة إلى العنف في مواجهة المتطرفين الإرهابيين، إلا في حالات الضرورة القصوى، بل ولا بأس من بعض التنازلات لهم، حتى لا يجتمع على هؤلاء «البؤساء» همّ الضائقة الاقتصادية والاجتماعية وهمّ اضطهاد الحكومة لهم.. وقد هيا لنا ذلك فرصة أن نستغل استمرار الضائقة ويد المصالحة التي تمدها السلطة للإسلاميين وإذعانها المتكرر لمطالبهم في المطالبة بالمزيد من التنازلات والتوسع في تجنيد الشباب في صفوف الجماعات التابعة لنا، وخلق الاعتقاد لدى الصحفيين والكتاب والقضاة وكبار رجال الدولة والمسؤولين بأن وصول الإسلاميين إلى السلطة عن قريب أمر مفروغ منه، وبالتالي فإن من مصلحتهم أن يركبوا الموجة من الآن، وأن يحجزوا لأنفسهم المقاعد في ظل النظام الجديد، وهو ما سيزيد قطعاً من خلخلة دعائم النظام القائم..

ثانياً: ذلك العجز المضحك من جانب الحزب الوطني الحاكم عن أن يطرح في الساحة الأيديولوجية فكراً متكاملأ قادراً على منافسة الأقلام التي جندناها، وعن إلهاب مخيلة الجماهير واجتذاب قطاعات واسعة منها.. فالواضح للجميع أن برنامج ذلك الحزب خالٍ من أى فكر متبلور أو طابع مميز، أو حلول عملية للمشكلات المتفاقمة بمجتمعنا، وأن الغالبية الساحقة من أعضائه هم من الانتهازيين الذين ما كانوا لينضموا إليه أصلاً لولا أنه في السلطة..

ثالثاً: عزوف مستمر من جانب الأحزاب القائمة عن توحيد صفوفها من أجل التصدي لد الإسلاميين المتطرفين، واعتقاد اليسار واليمين معاً أن استمرار الإرهاب من شأنه أن يهدم هبة النظام وسلطانه، وأنهم المستفيدون من ضياع هذه الهبة وزوال هذا السلطان. وبالتالي فقد شُغلت الأحزاب جميعاً حاكمة ومعارضة، بالتناحر فيما بينها عن الخطر الذي سيبتلعهم جميعاً في المستقبل القريب جداً بإذن الله..

رابعاً: تلك الخدمات الرائعة التي تؤديها لنا وسائل الإعلام التابعة اسماً للنظام الحاكم فى مصر، وخاصة التليفزيون والإذاعة، وتمهيداً الطريق (مع استمرار وتفاقم المشكلات الاجتماعية والاقتصادية) لقفز الشباب من الاعتدال إلى التطرف عن طريق الزيادة المطردة فى نسبة البرامج والمواد الدينية.. وقد أسعدنى كثيراً أن أسمع تصريح السيد صفوت الشريف وزير الإعلام بأنه يعتزم زيادة هذه النسبة مرة أخرى مع بداية عام ١٩٩٣.. وفقه الله وسدد خطاه.. ما أجده غريباً حقاً، ومضحكاً حقاً، ومطمئناً حقاً، أن القيادة العليا فى الدولة تبدو عاجزة تماماً عن تبيين الصلة بين طبيعة المواد الإعلامية، وبين التزايد المطرد فى التطرف والتعصب والإرهاب وإحداث الفتنة الطائفية، وذلك بالرغم مما هو معروف لدى خبراء الإعلام فى العالم كله من أن تسليم إدارة التليفزيون وحده لمدة ستة أشهر فحسب إلى مجموعة من المستنيرين ممن يهمهم حقاً استئصال جذور التطرف والفتنة، كفيل بأن يحقق هذا الهدف فى يسر..

خامساً : ذلك النجاح الباهر الذى حققته تنظيماتنا الإسلامية فى الهيمنة على معظم نور النشر، وفى اجتذاب عدد لا يستهان به من الانتهازيين- خاصة من بين محترفى السياسة، ومن الصحفيين العاملين حتى فى الصحف القومية ذاتها - ممن يمالئ تنظيماتنا ويخدم أغراضها على أمل أن تصل يوماً إلى الحكم، فيفيد منها على قدر مناصرتة إياها، وهى فى المعارضة.. هذا أمر حتمى، بل ومرغوب فيه إلى حد ما.. بل أقولها صراحة إنه من المفيد لحركتنا أن تلوح من بعيد لضعيفى النفوس والخلق بالنفع الشخصى الذى سيعود عليهم، والثمار التى سيجنونها متى نجحت الحركة.. غير أنى أسارع فأقول أيضاً إن قوة الحركة إنما تعتمد أساساً وفى المقام الأول على المخلصين الأتقياء لا على الانتهازيين، وعلى من هم على استعداد للتضحية بالنفس فى سبيل القضية، لا على مَنْ من المؤكّد أنه سيهجر القضية فور أن يتبين عقبات ضخماً تعترض سبيل نجاحها، أو يلمس أن مصالحه الخاصة قد باتت مهددة، متى أقبلت السلطة فى حزم على مكافحة التطرف..

إن أشد ما تخشاه السلطة من حركتنا ويقلق بالها، ذلك الاستعداد الرائع لدى أفراد الحركة للتضحية بالنفس، بل والموت فى سبيل القضية، وذلك التنظيم الوثيق الذى يربط بينهم، والذى لولاه لما نما الاستعداد للتضحية بالنفس، فتدريب الفرد على العمل الجماعى تدريب له على إنكار الذات، والتنكر لحياته الخاصة، وإحققه فى التفكير الحر واستقلال الرأى، وتدريب له

كذلك على احتقار الموت.. واحتقار الموت له شرطان: احتقار الحاضر. وتوهم المرء بأنه جزء من حركة تاريخية بالغة الأهمية، أو من تمثيلية رائدة الفخامة، وحلقة صلبة بين ماضٍ مجيد ومستقبل مجيد، في حاضر تافه بغيض.. وكل هذا يتطلب عدة أمور: محو شخصية العضو وإحساسه بالتفرد والتميز، وضمان ألا يستشعر الفرح أو الأسى، أو الفخر والثقة، إلا من خلال جماعته وقدراتها ومقدراتها، وأن يشعر يوماً بأن أعين رؤسائه ورفاقه تراقبه.

تحقير الحاضر ووصمه باليؤس، وتسفيه المجتمع ورمية بالكفر، لازمان لاستثارة شجاعة أنصارنا وتوهمهم أنهم لا يخسرون كثيراً بفقد حياتهم. غير أننا لن نكتفى بالقول وتكراره في هذا المجال، وإنما ينبغي على القادة أيضاً أن يضمنوا أن تكون حياة أتباعهم خشنة غليظة، قاتمة مملة، لا لهو فيها ولا متعة ولا راحة.. علينا أن نصور لهم التسلية على أنها تافهة لا تليق بجلال قدرهم، والسعى وراء السعادة الشخصية على أنه من وساوس الشيطان، وأن نخترع الأحاديث في تحريم الموسيقى والفناء والرقص والعروض المسرحية وكل ما من شأنه أن يروّج عن النفس، ويخفف من عبء الحياة.. ولتسهيل كل ذلك فلنوجه أنظارهم يوماً للتطلع إلى روعة المستقبل الذي ينتظرهم، وأمجاد الماضي التي سيحيونها.. وبوسعي أن أؤكد لكم أنه من السهل جداً إقناع هؤلاء بأن في مقدورهم أن يقوموا بما قام به أبو بكر وعمر بن الخطاب، ويحققوا ما حققه صلاح الدين أو خالد بن الوليد.. ذلك أنه ما من صعوبة في أن نخدع من أقدم سلفاً على خداع نفسه، بل ويطالبنا يومياً بأن نخدعه ونستمر في خداعه حتى يطمئن ويستريح، وحتى يلقي مسؤولية الفشل حين يفشل على قوة الجاهليين ويطش أعوان الشياطين، ويرجعه إلى هول أبعاد المهمة الجسيمة الملقاة على عاتقه، في حين يؤدي فشله في مهام الحياة العادية: في الدراسة أو الوظيفة أو التجارة، إلى افتضاح قصوره الذاتي وضحالة قدراته.

قد كان إقناعه سهلاً لأنه كان مقتنعاً سلفاً من قبل أن نحاول أن نقنعه، وسيكون خداعه سهلاً لأنه متهييء لذلك سلفاً من قبل أن نحاول خداعه.

قد لا ترى بعض الحركات الثورية الجماهيرية - كالشيوعية والفاشية والنازية - حاجة إلى الله.. غير أنه ما من حركة ثورية في التاريخ كله كانت في غنى عن الشيطان.. وإنما تقاس قوة الحركة بقوة كراهية أعضائها لعدو جسد لهم تجسيدا، يرون فيه مصدر بلائهم وأصل دأئهم.. دليل ذلك أننا حين نحب لا نتلفت حولنا بحثاً عن حلفاء، بل وننظر إلى من يشاركنا في هوى المحبوب باعتباره غريماً ومنافساً.. أما حين نكره، فنحن يوماً في حاجة إلى من يشترك

معنا فى مشاعر الكراهية، وإلى أكبر عدد ممكن من هؤلاء حتى تقوى ثقتنا فى أننا فى كراهيتنا قد أصبنا عين الحق.

وأفراد جماعاتنا بما دُربوا عليه من إنكار الذات، والتضحية بالمتع والمذات، وبشظف حياتهم وخشونة معيشتهم، يسهل عليهم أن يكونوا شديدي القسوة والمرارة فى حقهم وكراهيتهم للآخرين، خاصة إن خالوا أنهم - كما فى حالة السياح مثلاً - أسعد منهم، وأرضى نفساً، وأوفر حظاً من النجاح فى الحياة وفى تحقيق نواتهم.. وقد قيل عن الثوار إبان الثورة الفرنسية إنهم كانوا كلما أمعنوا فى كراهيتهم لأعدائهم، وفى قطع الرقاب وسفك الدماء، زاد إيمانهم بصحة مبادئهم.. وهو ما يثبت ضرورة الكراهية والعنف ليس فقط فى إرهاب الأعداء وقمع الخصوم (كما فى حالة اغتيال فرج فودة) وإنما أيضاً فى تعزيز إيمان الإرهابى بعدالة قضيته.. أو كما قال مونتني فى إحدى مقالاته: «بوسع الحماسة الزائدة أن تصنع المعجزات، ولكن شريطة أن تستند إلى ما جبلنا عليه من القسوة ومشاعر الكراهية».

إنه لاشك فى أنكم قد لاحظتم أن غالبية المقبلين على الانضمام إلى تنظيماتنا هم من الشبان المحبطين المقهورين الفاشلين، الذين يرون حياتهم قد فسدت وتبدد معناها، والذين يفقدون إلينا من تلقاء أنفسهم دون ما حاجة إلى جهد كبير من جانبنا لتجنيدهم، ودون حاجة مسبقة إلى اقتناع عقلى كامل بالمبدأ الذى تمثله الحركة.. لذلك فإن أنجح وسائل الإقناع التى يمكنكم انتهاجها فى تجنيد الأتباع والأنصار هى استغلال إحساس الأفراد بالإحباط، والتركيز عليه، وترسيخه وإلهابه، والحيولة دون تبدده أو تضاوله إلى حين استيلائنا على السلطة بإذن الله.

والفرد عادة يميل إلى إلقاء المسؤولية عن فشله على الظروف المحيطة به، والأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية القائمة، حتى لا يفقد احترامه لذاته، ولذا فإننا غالباً ما نرى أولئك الذين نجحوا فى حياتهم، وحققوا معظم ما كانوا يصبون إليه من آمال، راضين عن العالم حولهم، حريصين على أن تبقى الظروف المحيطة بهم على ما هى عليه، فى حين نرى المخفقين المحبطين شديدي التطلع إلى حدوث تغييرات جذرية فى تلك الظروف.. فالفاشلون إذن يصرون دائماً على البحث خارج أنفسهم عن أسباب فشلهم، حتى وإن حاول البعض أن يشير لهم إلى أهمية بعض الاعتبارات الشخصية كالمواهب والقدرات الذاتية، والشخصية والصحة والمظهر الخارجى، إلى آخره.. أو كما يقول حكيم من حكماء الغرب: «ما يصيب

الإنسان من آفة تعوقه عن أداء مهامه، حتى إن كانت هذه الآفة مجرد ألم فى أمعائه، حتى يثور وينبرى لإصلاح الكون»

وهذا الميل لدى الفاشلين إلى إلقاء تبعة الفشل على النظام القائم والظروف المحيطة، هو ما ينبغى عليكم فى المقام الأول أن تغذوه وتقووه وتدعموه بكافة الوسائل. وإنه من المحتم علينا - ونحن قادة الحركة - ومن أجل ضمان نجاحنا فى الوصول إلى الحكم، استقطاب وتجنيد الشباب الذى يحده الأمل فى تغيير هائل وجذرى ومفاجئ فى أحواله المعيشية، المؤمن بأنه فى الوسع أن تتغير الأمور بلمسة واحدة من عصا سحرية، أو بتمتعة عبارة «افتح يا سمسم».. فلنخلق الاعتقاد إذن لدى هؤلاء الشباب بأن فى حوزة تنظيمنا مفاتيح القد المشرق، وأن نبعث فى قلوبهم الآمال العريضة والثقة فى قدرتنا على تحقيقها، وفيما يخبئه هذا القد لهم من كنوز، سواء تمثلت هذه الكنوز فى جنات الآخرة وملكوت السماوات، أو فى بناء المدينة الفاضلة أرض اللبن والعسل، أو فى الهيمنة الدولية وفتوح للبلدان على نهج فتوحات عهدى أبى بكر وعمر.

ولا يسعنى هنا إلا أن أهنئكم على نجاحكم فى خلق هذا الاعتقاد لدى قطاعات عريضة من الجماهير.. وهو نجاح لا يدانيه فى الأهمية غير نجاحنا فى إضفاء الطابع الدينى على حركتنا، وخلع سمة القدسية على أغراضنا بحيث بات أنصارنا يرون فى خدمة أهدافنا خدمة لله وشريعته، وموتهم فى سبيلها استشهاداً، وإطاعتنا من إطاعة الله والرسول، والعمل على تنفيذ مخططاتنا عبادة، والتخلص من أعدائنا بالاغتيال والإرهاب قرية إلى الله وزلقى.

وقد وصلت وأصحابى إلى اقتناع بضرورة هذا الأمر حين لمسنا من خلال قراءتنا فى التاريخ الإسلامى أن من أبرز سمات هذا التاريخ أن الحركات الثورية التى أثارها فى دار الإسلام اعتبارات اجتماعية أو مظالم اقتصادية وسياسية، إنما ارتبط كل منها منذ بدايته ارتباطاً وثيقاً بفكر دينى، وما كان ليندور بخلد أتباعها أن احتجاجهم على السلطة نابع عن غير العقيدة الدينية، ولا أن لهم من الأهداف غير تخليص الأمة من حكم لا يرضاه الله، والعودة بها إلى الشريعة وطريق الدين القويم.

فتعبير المسلمين إذن، وطوال تاريخهم، عن مناهضتهم أو مناصرتهم لهذا النظام القائم أو ذلك، كان دائماً تعبيراً دينياً بصورة أساسية، ولنا فى طائفة الخوارج يوماً أسوة حسنة.. فهم قوم مولعون بالحرية البدوية المطلقة، مولعون بيشن الغارات على القوافل والقبائل من أجل الغنيمة، شديدي البغض لحياة المدن وتنظيمها الدقيق الذى لم يألوه.. غير أنهم وجدوا حاجة

إلى إيجاد أساس ديني لرغباتهم، وإلى أن يوهموا أنفسهم أنهم في سعيهم إلى إشباعها إنما يحرصون على الالتزام بأحكام الدين.. فكان أن خرجوا على السلطة شديدة الوطأة واتهموها بالكفر، وكان أن هجروا المدن البقيضة إلى قلوبهم وأسموها دار حرب، وكان أن استأنفوا الغارات الجاهلية بفرض السلب والغنيمة وخالوا أنها جهاد، وكان أن ربطت أوثق الوشائج بين أفراد جماعتهم الصغيرة وقالوا إنهم أهل الجنة!

لست مبالغاً إذن حين أقول إن اتخاذنا الدين قناعاً لمطامحنا، وغلاًفاً لمصالحنا هو من جميع الوجوه أعظم إنجاز لتنظيمنا.. ذلك أن ربط أهدافنا بالإسلام جعل من العسير للغاية على الحكومة أن تفرض طاعتها وطاعة قوانينها على أعضاء الجماعات التابعة لنا.. فمن خال أنه إنما يطيع الله بأعماله من المؤكد أنه لن يطيع غيره.. ومن ظن أنه يتلقى الوحي مباشرة من السماء ليس في حاجة إلى أن ينصت لحديث من في الأرض.. فأي نجاح إذن يمكن أن يعدل نجاحنا في إيهام الشباب بأن غاياتنا غايات إلهية، وصالح جيوبنا مما تقضى به الشريعة الإسلامية، وتطلعنا إلى الحكم هو إرادة الله من فوق سبع سموات؟ وإنما فشل العلمانيون وغيرهم في استئثار حماسة الجماهير، لإحجامهم عن الحديث باسم الله.. وكثيراً ما كنت في شبابي أقول لمعارفي من الماركسيين إنهم لو كانوا مكرمين بطبيعة تكوين شعبنا، وبتاريخه واحتياجاته النفسية لأقبلوا عن طيب خاطر على تغليف مبادئهم الماركسية بالدين، وربط شعاراتهم بالإسلام ونسبة أحاديث إلى النبي مثل: «من تملك وسائل الإنتاج عامداً متعمداً جيء به يوم القيامة وفي عنقه حبل من مسد» أو «من قال بأن قيمة السلعة يحددها اعتبار غير جهد العامل في إنتاجها فليتبوأ مقعده من النار» أو كما قال!

كذلك لا بد قد لاحظتم أنه كلما فقد الإنسان إيمانه بجذوى شئونه الخاصة، تحول إلى الاهتمام بشئون الآخرين، وإلى الاعتقاد بأن من واجبه المقدس أن يتدخل في أمورهم الشخصية، في لهوهم وجدهم، في مآكلهم ومشربهم، في طول لحاهم أو طول جلابيبهم.. وهو في إقدامه على قتل السياح، أو على إفساد حفل بإحدى الجامعات، أو تكسير آلات موسيقية، أو الحيلولة دون عرض مسرحي، أو الاعتداء على متاجر يمتلكها أقباط، يخال أنه إنما يخدم الصالح العام وهو لا يخدم إلا ذاته. ويخال أنه بعمله إنما يثبت إنكاره لذاته واستعداده للتضحية بها، والحقيقة أن زهوه بذاته الجديدة لا يدانيه زهو الطاووس، وأنه لو نفذ البحر لما نفذ كبرياؤه وخيالاته.. قد حسبوا أن الله لا يرحمهم حتى يعذبوا أنفسهم ويأخذوها بالقسوة. وأظهروا التواضع في سلوكهم وحديثهم وأكثروا الكبر في قلوبهم وإن أحدهم لأشد عجباً بكسائه المرقع من صاحب الحلة الثمينة بجلته!

إنه لشرط أساسى إذن لإقدام أناس على محاولة تغيير الأوضاع وقلب نظام الحكم، أن يتوافر لديهم اليقين بأن فى جمعيتهم عقيدة لا يتطرق إليها الشك، وعلى رأسهم زعامة لا تخطئ، وفى صفوف جماعتهم قوة لا ترد، وفى انتظارهم مستقبل مشرق جم الوعود.. غير أنه ثمة اعتبار آخر بالغ الأهمية، وهو أنه لا يقبل على الانضمام إلى تنظيم كتنظيمنا إنسان يحب ذاته ويحترمها ويسعى إلى إنمائها ورعاية مصالحها.. وإنما يقدم على الانضمام إليه كل من ينشد التخلص من ذاته التى يكرهها ولا يريد.. فحركة كحركتنا لا تجتذب إلا باتباع بسبب قدرتها على إشباع حاجتهم إلى تحقيق الذات ودفعها إلى الأمام، وإنما بسبب قدرتها على إشباع رغبتهم العارمة فى اطراح الذات والتخلص منها.. فهنا شوق إلى ذات أخرى، وحياة مخالفة، وميلاد جديد.. إلى اعتزاز بالنفس يقتلع كراهيتها، وثقة تعرض عن الاضطراب والحيرة، وأمل يحل مكان اليأس، وإحساس بالهدف يبدد الإحساس بالضيق، وإيمان الفرد بأهميته وقيمه وجدواه متى اقترن بغيره فى تبنى قضية مقدسة.. وحركتنا تتيح لهم فرصة تحقيق كل ذلك، هى بديل عن الذات البغيضة، توحى إلى من انضم إليها أنه قد ولد من جديد ليبدأ حياة جديدة، مع مجموعة كبيرة من أمثاله ممن تعزز كثرتهم من ثقة الفرد منهم بنفسه وباختياره، فلتحرصوا إذن أثناء دعوتكم وتصيدكم للانصار على مراعاة هذا الاعتبار.. وقد سبق للمفكر الفرنسى باسكال أن عرض لهذه الفكرة حين قال:

«يود الإنسان لو أنه عظيم، بيد أنه ينظر فإذا هو ضئيل.. ويود لو أنه سعيد، بيد أنه ينظر فإذا هو شقى.. ويود لو أنه كامل، بيد أنه ينظر فإذا هو مفعم بالنقص.. ويود لو أنه موضع حب الناس وتقديرهم، بيد أنه ينظر فإذا عيوبه ليست أملاً إلا لبغضهم واحتقارهم.. فإذا الحيرة والارتباك وقد تملكاه يثيران فيه أشد المشاعر إجراماً وأبعداً عن العدل والحق.. ذلك أنه قد أضحى وقد غلبت عليه الكراهية القائلة تجاه الحقيقة التى تدينه وترى عيوبه ونقائصه فى جلاء..»

فإيمان الفرد إذن بقضية مقدسة هو إلى حد بعيد بديل عن إيمانه المفقود بذاته.. ومن المؤكد أنكم لاحظتم أنه كلما تضاعلت مبررات ثقة المرء بنفسه ومناقبه، عظم استعدادة لأن يضيفى المناقب والفضل على أمته، وعلى دينه، وعلى جنسه، وعلى قضيته.

وأود الآن أن أذكر ملاحظة طريفة: إن الهجرة إلى خارج الوطن تهيم للفاشلين المحبطين الأمل نفسها التى يهيئها انضمامهم إلى جماعتنا الدينية: الأمل فى التغيير والأمل فى بدء حياة جديدة فى أرض الميعاد.. ولذا فإن كلام المهاجرين وأفراد جماعاتنا هم

فى الجوهر، الصنف من نفسه الناس.. ولىس من القرب أن ىتخذ التطرف الدينى هو أيضاً شكل الهجرة حتى مع بقاء أصحابه داخل حدود الوطن.. هى هجرة داخلية إذن.. والمهاجر عن مصر ىتبع تحقيره لمجتمعه بالرحيل عنه، فى حين ىتبع المتطرف تكفيره لمجتمعه بالهجرة الداخلية.. فهنا «تحقير وهجرة» وهناك «تكفير وهجرة». ولىس من المصادفة على الإطلاق أن ىشهد مجتمعنا فى توقيت واحد اتساع نطاق الهجرة واتساع نطاق الانضمام إلى الحركات الدينية..

والأطرف من ذلك ما ىتصل بالجريمة.. ففى الفترة نفسها التى زادت فىها جرائم القتل والسرقة والنصب والاختصاب وغيرها فى مصر زيادة كبيرة مفاجئة زاد لجوء أفراد الجماعات الدينية إلى أعمال العنف والإرهاب والاعتىال وإحراق الكنائس وسرقة متاجر الحلى.. هذه باسم الشيطان، وتلك باسم الرحمن.. وهنا أيضاً نجد الاقتران الزمنى لىس من قبيل المصادفة.. فالأوضاع الاجتماعية السائدة، خاصة منذ انتهاء سياسة الانفتاح الاقتصادى، قد أسهمت فى زيادة العناصر الإجرامية.. والكثيرون من هؤلاء المجرمين بانضمامهم إلى الجماعات الدينية قد أخفوا عن أنفسهم تلك النزعات الإجرامية الكامنة فىهم بالبأسا ثوب الدين والتقوى ومخافة الله وطاعته، وأمكن لهم بذلك الاحتفاظ بالنزعة الإجرامية وبسكينة الروح فى آن واحد.. وهو دافع بوسعنا أن نستغله أعظم استغلال فى التخلص من بعض أعدائنا، وإرهاب البعض الآخر، وذلك باستدراجنا للمجرم الذى هو على استعداد لقتل امرأة عجوز من أجل حليها لتنفيذ اغتىال فرج فودة، أو قتل السياح الأجانب، والفتوة ذى النزوع العارم إلى إثارة الشجارات أو الدخول فىها وتحطيم المتاجر وتكسیر الفوانيس بالشوارع لتنفيذ تفريق الفرق التمثيلية، وتحطيم الآلات الموسيقية، وإشعال النار فى نوادى الفيديو، والاعتداء على الأقباط.

المجرمون إذن، والفاشلون المحيطون، والعاطلون والمراهقون، وكل من صادف صعوبة فى التكيف أو النجاح فى مجتمعه، هم أعواننا الحاليون والقادمون.. قد جمعت بينهم الكراهية لهذا المجتمع، فصاروا على أتم الاستعداد لهدمه وإشاعة الفوضى فيه، والتكاتف فيما بينهم لتخريبه، ظانين أن يد الله فوق أيديهم، وما فوق أيديهم إلا أيدينا.. وبذا يضحى الحجر المرفوض ركن الزاوية، لمجرد إىحائنا إلیهم أن كافة آمالهم المحبطة ستتحقق فور وصولنا إلى الحكم..

لا تضیعوا إذن وقتكم فى محاولة استمالة العامل المثابر، أو الفلاح القانع، أو الموظف الجاد، أو أى امرئ أعفاه جده ومثابرته - مهما بلغ به الفقر - من الإحساس بالضیاع،

ولتركزوا بالأخص على أفراد الطبقة البورجوازية التى باتت اليوم فى رعب من أن تتحول إلى بروتيتاريا بسبب الأحوال الاقتصادية المتردية..

وثمة صنف آخر من الناس - من جميع الطبقات - لابد من أن تولوهم اهتمامكم، وأعنى أولئك الذين يخشون نعمة حرية الاختيار، بل ويمقتونها... وهم بحمد الله أكثر مما تظنون.. فالحرية عبء على من لا موهبة لديه فى أن يصنع من نفسه شيئاً، ومن شأنها أن تلقى ببتبة الفشل على عاتق الفاشل لا على الظروف المحيطة به.. وقد وصلت إلى إيمان بأن غالبية الناس إنما تنضم إلى جماعاتنا الدينية ليتحرروا من حريتهم وفراراً من المسؤولية الشخصية.. هم يخشون الحرية أكثر مما يخشون اضطهاد السلطة وسجونها، وأخوف ما يخافون هى تلك المنافسة الحرة التى من شأنها أن تفضح عجزهم وافتقارهم إلى القدرات.... وبالتالى يصبح جماع همهم أن يتحولوا إلى تروس بلا هوية فى جماعة تسودها المساواة، أو إلى خيوط بين خيوط جمة فى ثوب أو قماش لا يمكن التمييز بين هذا الخيط فيه وغيره..

كذلك ينبغي التركيز على أولئك الطلبة والعمال النازحين من الريف إلى المدن الكبيرة للدراسة أو العمل، مخلفين وراءهم دفء الحياة العائلية الآمنة التى هى ألد أعداء حركة كحركتنا.. وقد علمنا التاريخ أن جل الحركات الثورية كان يقف من العائلة موقف الخصومة والعداء، وأن رجالها كانوا دائماً يعملون جاهدين من أجل الوقفة بين المرء وأخيه، وأمه وأبيه، وزوجه وبنيه، حتى يضفى فى النهاية بمفرده وحيداً فى محيط لا يأمن له أو فيه فيسهل بذلك على الدعاة اضطهادهم.. وما من شك فى أنه من أقوى الاعتبارات التى ساهمت فى نجاحنا ما شاهده المجتمع فى السنوات الأربعين الأخيرة من انهيار الولاءات القديمة، وحظر قيام الأحزاب، وتحلل الروابط الأسرية والاجتماعية التقليدية، وكثرة الوافدين من الريف إلى المدن ممن اضطربت نفوسهم وضاع إحساسهم بالأمن نتيجة لهذا النزوح، وهو الحال نفسه مع الجنود المسرحين من الجيش..

لنحمد الله جل شأنه على أن الحزب الوطنى فى مصر ليس ذا قضية يمكن للشباب المصرى أن يتبناها ليموت فى سبيلها، ولا له من مشروع حضارى، غير إعادة جدولة ديون مصر الخارجية، وإيواء المتضررين من الزلزال، كما نحمد الله على أن قضايا الأحزاب الأخرى، قد هضمت وماعت، ولم يعد فى الساحة غير حركتنا الإسلامية، مما بوسع أن يجتذب المحبطين، وأن يبعث الأمل فى قلوب الفاشلين واليائسين.

وفق الله مسعاكم وأنجح مرادكم، وهداكم وإيانا سواء السبيل.

الأحزاب السياسية المصرية وقضية التطرف

فى مصر، تميز القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن العشرين بتعاظم الوعى بضرورة «التحديث» على النمط الغربى. وكان مفهوم معظم الزعماء السياسيين والمصلحين الاجتماعيين عن التحديث هو تبنى العلمانية، والاقتباس قدر الإمكان من نظم الغرب، كالمجالس النيابية، ونظام الأحزاب السياسية، وسن دستور للبلاد، وبناء الاقتصاد القومى على أسس حديثة، والتوسع فى التعليم المدنى... إلى آخره. وكان وراء هذا الاتجاه هدفان: اللحاق بالعصر والاستجابة لمقتضياته ومتطلباته بعد قرون طويلة من التخلف والركود، والاستعانة بثمار التحديث فى نيل الاستقلال والتحرر من ربة الاستعمار والهيمنة الغربيين. وقد وجد مصطفى كامل مثله الأعلى فى التجربة اليابانية فى التحديث ودعا إلى تقليدها، فى حين اتجه سائر الزعماء بأبصارهم إلى الغرب مباشرة يحتنون خطاه.

فإن استئثنا تياراً ضعيفاً مقضياً عليه بالفشل من رجال الدين المحافظين أو عملاء الدولة العثمانية، قلنا إنه قد كان ثمة ما يشبه الإجماع لدى الزعماء والمصلحين بصدد طريق التحديث، وذلك حتى قرب نهاية العقد الثانى من القرن العشرين. ثم بدأت تظهر فى العشرينيات والثلاثينيات تيارات أخرى غير تيار الليبرالية الغربية، أهمها الماركسية (بعد قيام الثورة الروسية عام ١٩١٧)، وجماعة مصر الفتاة الفاشية (عقب وصول هتلر إلى الحكم عام ١٩٣٣)، واتجاه ثالث غير مدين للغرب فى شىء هو جماعة الإخوان المسلمين، جاءت تنعى إغفال المسلمين لدينهم وتراثهم وماضيهم، وتعاظم تأثير المدنية الغربية المادية فى سلوكهم وأنماط عيشهم.

فأما الاتجاه الماركسى فقد فشل فى أن يجتذب إلى عضويته أكثر من آلاف قليلة من المثقفين، وفى أن يمدّ تأثيره ويبنى لنفسه قاعدة شعبية من العمال والفلاحين. وأما التيار الفاشى فإنه بانهيار النازية عام ١٩٤٥ انهار فجأة كما قام فجأة. وأما جماعة الإخوان المسلمين فإنه بالرغم من نموها وزيادة تأثيرها واتساع قاعدتها الشعبية فإنها لم تفلح فى

الوصول إلى الحكم، وكان ثمة أسباب جعلت من السهل على الحكومات المتعاقبة تسديد ضربات الحاسمة إليها بين الفينة والفينة، بدءاً بقرار حلها ومصادرة أموالها ومطبوعاتها وإغلاق صحفها واغتيال مؤسسيها، وانتهاء بالزج بقادتها والنشطين من أعضائها في السجون وتعذيبهم واضطرار الكثيرين من أفرادها والمتعاطفين معها إلى الهجرة، وهي ضربات فتت في النهاية في عضدها، وأوهنت من عزيمتها، وقصمت ظهرها.

في عهد عبد الناصر

فالأتجاه الليبراليّ إذن هو الذي كان مهيمنا على الساحة، أو يكاد حتى وقوع الانقلاب العسكري عام ١٩٥٢. وقد كان في وقوع هذا الانقلاب ذاته دليل واضح على فشل الليبرالية المصرية التي لم تسفر - رغم دستورها وأحزابها وحرية صحافتها - إلا عن تفشى الفساد، وتفاقم الفقر والمشكلات الاجتماعية، والانصياع لإرادة القصر، واعتماد الأحزاب السياسية على الولاء لقادتها لا على مضمون برامجها. فكان منطلق سياسة جمال عبد الناصر والشطر الأكبر من المثقفين المصريين هو الاعتقاد بأن إصلاح أحوال مصر لن يتأتى في إطار الليبرالية الغربية (وكان الليبرالية الغربية، لا المصريين أنفسهم، هي المسئولة عن فشل تطبيق الليبرالية في مصر)، والاعتقاد بأن البلاد في حاجة إلى أيديولوجيا أكثر ثورية.

وكان أن شرع عبد الناصر، خاصة منذ أوائل الستينيات ومن أجل تحديث مصر، في تطبيق نظام اشتراكي، خاله نابعاً من واقع بلده واحتياجاته، وهو ما صنعه كل من أحمد بن بيل في الجزائر، وسوكارنو في إندونيسيا، ونكروما في غانة، وسيكوتوري في غينيا. وقد فشلت كافة هذه الأنظمة في تحقيق العدالة الاجتماعية، أو سدّ احتياجات الغالبية من أفراد شعوبها، وكان أن سقط معظمها تاركاً البلاد في حال ليس بأفضل مما كانت عليه في ظل العهود البائدة. وقد لجأت حكومة الثورة في مصر بُعيد قيامها إلى حل كافة الأحزاب السياسية القديمة، وأقامت عوضاً عنها تنظيماً هلامياً مانعاً لم يجتذب غير الانتهازيين والمضللين، سواء في صورة هيئة التحرير أو الاتحاد القومي أو الاتحاد الاشتراكي، ووجّهت أعنف الضربات وأقساها إلى التنظيمين الوحيدين اللذين حاولا مقاومة عبد الناصر والاستمرار في ممارسة نشاطهما، وهما تنظيم الشيوعيين والإخوان المسلمين، رغم أنه مال

فى البداية إلى استرضاء الإخوان ثم قرّر سحقهم، ومال فى البداية إلى سحق الشيوعيين، ثم قرر استرضاعهم. وأما سائر الأحزاب فسرعان ما اندرج فى طيّ النسيان.

فأما الشيوعيون المصريون فقد طرأ على فكرهم تطور هائل خلال حكم عبد الناصر، ربما كانت نقطة البداية فيه حملة خروتشوف على الستالينية عام ١٩٥٦، واتضح معالم الصراع الصينى السوفييتى، (وهما حدثان كانا بمثابة محنة زعزعت إيمان بعض الشيوعيين فى الشيوعية ذاتها فهجروها)، وبزوغ فجر اليسار الجديد فى أوروبا الغربية، مع ميل الأحزاب الشيوعية فيها إلى انتهاج طريقها الخاص، غير الخاضع لهيمنة الكريملين وتوجيهه، وانتشار أشكال أخرى من الماركسية غير الماركسية السوفييتية، وفى مقدمتها الماوية. وقد غدا الشيوعيون المصريون إزاء كل هذه المؤثرات أكثر حرصاً على أن يكون فكرهم نابعاً من الأحوال المصرية والواقع المحلى، كما مالوا بعد إخراج عبد الناصر إياهم من المعتقلات، وإبدائه استعدادة للتعاون معهم فى تنفيذ برامج الاشتراكية، ومباركة السوفييت لهذا التعاون، إلى هجر الكثير من أفكارهم الأساسية السابقة، وعلى رأسها مفهومهم عن الصراع الطبقي. كل هذا أدّى إلى تميع الفكر الشيوعى المصرى، ونوياته التدريجى فى الناصرية، فكان من الطبيعى أن يكون سقوطه مواكباً لسقوط النظام الناصرى.

ولم تقتصر المحنة فى زمن عبد الناصر على الشيوعيين، وإنما شملت - وعلى نحو أعنف - أفراد التيار الدينى وعلى رأسهم الإخوان المسلمون، الذين عانوا من الاضطهاد والتنكيل والتعذيب فى سجون عبد الناصر، مما دفع غالييتهم إلى أن تتبنى اتجاهات أكثر ثورية وعنفاً وتطرفاً، وإلى تكفير النظام والمجتمع ذاته اللذين لاقوا فى ظلها ما لاقوه، وإلى تحوّل فكرهم إلى ضرورة العمل بكل السبل المتاحة، بما فيها الاغتيال والإرهاب والعنف والتنظيمات السرية، من أجل الإطاحة بنظم الجاهلية وإقامة حكومة إسلامية.

فى السبعينيات

وقد كانت السبعينيات - عهد السادات - أنسب الأزمنة لازدهار هذا الفكر الدينى الجديد واتساع نطاق تأثيره فى الجماهير، وذلك للأسباب التالية:

* ما أدت إليه هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ من انهيار المطامح البعيدة التى أثارها

السنوات الأولى من حكم عبد الناصر لدى الشباب المصرى، وانهيار الجبهة الداخلية، وسخط المثقفين، واتساع الفجوة الفكرية بين الأجيال، وتزايد الشعور بضرورة إعادة تقييم الأوضاع بأسرها، وفقدان الثقة بفكرتى الوطنية والوحدة العربية، وشيوع الاعتقاد بأن الوطنية وحدها لا تكفى، (وهو ما عناه عبد الناصر نفسه إذ أشار فى أول خطاب له بعد الهزيمة إلى أنه لا بد من التمكين للدين من أن يلعب دوراً فى المجتمع أهم من دوره فى الماضى). كما شاع بين الناس تفسير دينى للهزيمة، وهو أن اليهود إنما انتصروا بفضل إخلاصهم لدينهم، ولأن دولتهم قائمة على مبدأ دينى لا علمانى، ولأن الدين أصلح من فكرة القومية فى إثارة الحماس وتعبئة الطاقات، سواء للقتال أو لبناء المجتمع.

* ارتباط الدين بالثورة فى فكر غالبية الشباب المصرى المتدين، الذى رأى فيما يسمى فى العالم العربى بالشورات مجرد انقلابات لا تمسّ لبّ الأنظمة، وأن الحكام حين يشيدون بالإسلام لا يشيدون به عن تقوى مخلصة، وإنما عن رغبة فى استغلال تقوى الجماهير، وأن المؤسسات الدينية الرسمية لا تعدو أن تكون خادمة للنظام. ولا يتعدى دورها مباركة خطوات الحكومة ولو تناقضت.

* اتجاه السادات فى السنوات الأولى من حكمه إلى الاعتماد على أفراد التيار الدينى لضرب الناصريين والشيوعيين الذين باتوا الآن يحاربونه تحت لواء واحد، خاصة منذ تحوله الصريح عن اشتراكية عبد الناصر وعن صداقته مع الاتحاد السوفىيتى. وكان أن توصل إلى مصالحة مع الجماعات الإسلامية، ساهم الملك فيصل فى تدبيرها صيف عام ١٩٧١، وسمح لصحفها ومجلاتها بالظهور، ومدّها بالأموال بل بالأسلحة أيضاً، لاستخدامها عند الضرورة ضد اليساريين، ومكّنها من الهيمنة على اتحادات الطلاب فى الجامعات بعد أن كانت هذه الهيمنة لليساريين، وتفاضى عن جو الإرهاب الذى أفلح التيار الإسلامى فى فرضه على سائر الطلبة وعلى الأساتذة أنفسهم. وكان من أعوانه المقربين من اهتمّ بأن يوفرّ لأعضاء الجماعات من الجنسين الزئى المسمى بالإسلامى، والوظائف داخل القطر وخارجه، ولحديثى الزواج منهم الشقق السكنية والمساعدات المالية، كل هذا فى سبيل دعم قوة تخدم أغراض السلطة وتضرب مناهضيها.

* تدفق الأموال على هذه الجماعات من أنظمة دول إسلامية معينة تستهدف أمرين: ضرب الفكر اليسارى فى المنطقة، والتحكم فى قوّة مؤثرة فى سياسة أقوى دولة عربية. وقد كان لهذا التدليل وهذه المساندة اللذين تلقتهما الجماعات الإسلامية من النظام فى الداخل،

وأنظمة غنية فى الخارج، أثرهما فى زيادة إحساس أفرادها بقوتهم، وبقدرتهم على التعامل مع السلطة فى مصر تعامل الندّ مع الندّ.

* تهافت الآلاف المؤلفة من الشباب المصرى وأفراد طبقة البرجوازية الصغيرة على الانضمام إلى هذه الجماعات حين بدأت تظهر للأعين الأثار الوخيمة لسياسة الانفتاح الاقتصادى التى رآوا فيها تهديداً للقيم الإسلامية كلها والتقاليد المصرية، وصارت من أهم ظواهر المجتمع المصرى ظاهرة الرعب لدى البرجوازية من أن تتحوّل إلى بروتيتاريا، وإدراكها عجزها عن صدّ التيار الذى يجرفها إلى هذا المصير إلا بتقبّلها فكرة الانحراف، أو بالانضمام إلى جماعات دينية تشعرهم عضويتهم فيها بأنهم ليسوا وحدهم فى خضم الصراع، بعضهم يشدّ من أزد بعض، ويسعون جميعاً إلى إسقاط نظام لا يفيد منه غير القوادين والأفّاقين وتجار المخدرات.

* نجاح الثورة الشعبية فى إيران فى الإطاحة بالشاه وإقامة نظام إسلامى، بالرغم من مناهضة حكومة قوية، وجيش حديث السلاح، وجهاز مخابرات تدعمه الولايات المتحدة.

فقدان الثقة فى مختلف الحلول

ونضيف إلى كل هذا اعتبارين هامين:

الأول: أنه بانقضاء الستينيات كان قد ساد شعوب المجتمعات الحديثة فى معظم أنحاء العالم شعور بأن عملية التحديث لم تحلّ الجانب الأكبر من مشكلات البشرية، بل وتسببت فى خلق مشاكل جديدة، كتلوث البيئة وانهيار القيم الأخلاقية وتفاقم الأمراض النفسية وانتشار تعاطى المخدرات واللجوء إلى الجريمة وأعمال العنف... إلى آخره. ولن يكون بالوسع مجابهة هذه المشكلات أو تلك إلا ببذل الجهد من أجل إعادة تعريف الحداثة والتمدن، وإعادة تحديد أهداف الحياة فى العصر الحديث، وقد واكب هذا كله الإيمان بأنه لا يزال للدين نور مهم يمكن أن يلعبه فى الحياة السياسية والثقافية لأبناء هذا العصر وأفراد هذه المجتمعات العلمانية. فمن تزايد إحساس مسلمى الجمهوريات الإسلامية السوفيتية بهويتهم الإسلامية، إلى مطالبة العمال فى بولندا بإذاعة الصلاة الكنسية فى إذاعة الدولة، إلى تأكيد الرؤساء الأمريكين ككارتر وريجان على التزامهم بمؤازرة التيار الداعى إلى العودة إلى الدين، وبالعمل على غرس

الأخلاقيات المسيحية فى شباب الولايات المتحدة، إلى تزايد قوة الأحزاب الدينية اليهودية فى إسرائيل، إلى اعتماد حكومة البرازيل على رجال الكنيسة الكاثوليكية فى تنفيذ خطة الإصلاح الزراعى، إلى غير ذلك من الأمثلة التى تجعل من الضرورى أخذ هذه الظاهرة العالمية - ظاهرة العودة إلى الدين - فى الاعتبار عند تقييم نمو التيار الإسلامى فى مصر.

والثانى: ما شاع بين شباب مصر وثقافتها ومفكراتها من خيبة أمل وفقدان الثقة فى مختلف الحلول والمذاهب والأيدولوجيات التى جربتها مصر واحدة إثر أخرى على مدى قرن من الزمان، مع حماس زائد فى كل حالة، واستعداد للتضحية بالنفس فى سبيلها، وإيمان مطلق بفاعليتها، وتهليل وتمجيد لقادتها، واحتمال السجن والتشريد والتعذيب من أجل محاولة تطبيقها، حتى إذا طُبِّقت، لم ينجم عنها غير شيوع الفساد، والدمار الاقتصادى، وانهيار القيم والأخلاق والتقاليد، والهزائم العسكرية، وقمع الديمقراطية والحريات، وتفاقم المشكلات الاجتماعية.

فما الذى بقى غير أن نجرب أن نُحكم الأمة لا وفق أنظمة ومبادئ من وضع بشر قد يخطئون، وإنما وفق أحكام القرآن والسنة التى لا يمكن أن يعتورها خطأ؟

ذلك هو أساس الحركة الإسلامية الجديدة: لقد افترض الليبراليون المصريون أن العلمانية أمر لصيق بعملية تحديث البلاد، وأنه لا سبيل إلى التمدن إلا بفصل الدين عن الحياة السياسية والثقافية وقصره على الحياة الداخلية للفرد. ثم جاءت الحركات الدينية تؤكد ضرورة أن تشمل العقيدة كافة أوجه الحياة وميادين النشاط البشرى، وأن العلمانية ظاهرة خاصة بالتجربة المسيحية الغربية ولا شأن لها بالمجتمعات ذات التراث الدينى المختلف. وهى لا تعترض على التحديث، أو على الأخذ بقسط وافر من العلوم والمعارف والتكنولوجيا الحديثة. غير أنها لا ترى أن يكون التحديث بالضرورة على النمط الغربى، وتؤمن بأنه بالاستطاعة الجمع بين الهدأة والتقوى، وبين التمدن والشريعة الإسلامية، وتذهب إلى أن فى حوزتنا حلا لم يُجرب، وأمامنا بابا لم يُطرق، ودرباً لم نسر فيه، هو الإسلام ذو الجذور العميقة فى تكويننا الروحى والذهنى، وفيه الغناء عن الأيدولوجيات المستوردة، وبوسعه أن يكون أساساً لكل بناء فى المستقبل.

موقف حزبى التجمع والوفد

انتشر هذا المنحى الفكرى الإسلامى بين الشباب وغير الشباب فى المجتمع المصرى،

رجالہ ونسائہ، انتشار النار فی الہشیم. وكان على الرئيس حسنى مبارك الذى تولى الحكم عقب اغتيال السادات عام ١٩٨١ على يد أحد أفراد هذه الجماعات الإسلامية، وعلى الأحزاب السياسية الجديدة التى سمح النظام بقيامها، أن يولوا هذه الظاهرة الدينية جانباً كبيراً من اهتمامهم.

فأما الشيوعيون فلم يمانعوا فى الانخراط فى حزب جديد هو حزب التجمع الذى ينكر اقتصره على الماركسيين، ويصرّ على أن بابه مفتوح لكافة القوى التقدمية فى البلاد، معترفاً بذلك بأن ثمة قوى تقدمية غير ماركسية، وبأن مسعاهم السابق إلى اجتذاب الأنصار من العمال والفلاحين إلى الشيوعية قد فشل. كذلك أكدوا أن فكرهم فى زيه الجديد غير مستقى من أيديولوجيا مستوردة، وأن الاشتراكية الراديكالية ليست بالضرورة ماركسية لينينية، بل هى فى مصر والعالم الإسلامى - شأنها فى أنحاء أخرى من العالم - قد أضحت تمثل اتجاهات جديدة متنوعة من التراث الراديكالى القديم. وقد خلف حزب التجمع وراء ظهره بصورة واضحة وصية لينين للحزب الشيوعى السوفييتى بالحرص فوق كل اعتبار آخر على النقاء الأيديولوجى للحزب، وبالتضحية فى سبيله بكثرة أعضائه، راثياً أن مائة صابرة صادقة أكثر فاعلية من ألف من ذوى الاتجاهات والمواقف المائعة. فقد أضحى الإكثار من عدد أعضاء حزب التجمع الآن من أهدافه الرئيسية، وبات على استعداد للضحية من أجل هذا الهدف ببعض مبادئه حتى الأساسى منها. وقد كان عليه إذ يرى تزايد قوة الاتجاهات الدينية فى مصر ألا يستثيرها أو يغضبها فيجلب بذلك على نفسه من جديد تهمة الإلحاد القديمة، وينفّر أتقياء المسلمين منه، فكان أن أكد أهمية الدين كعنصر فعال فى الحياة السياسية، وانبرى قادته وكتّابه يشيدون بالإسلام، بل ويسعون إلى التقرب من بعض الجماعات الإسلامية الأقل تطرفاً ورجعية من أجل زعزعة الحكم. ولم يصرفهم عن هذا المسعى غير فقد الأمل فى استجابة تلك الجماعات لندائهم.

أدرك الشيوعيون إذن ضرورة الوصول إلى الجماهير، وضرورة المشاركة الشعبية الفعالة فى معترك السياسة، وأهمية تحرير الحزب من المركزية المفرطة ومن السيطرة السياسية للصفوة ومفاهيم الانتيليجنتزيا، وباتوا أكثر استعداداً لقبول مبدأ تعدد الاتجاهات داخل حزب التجمع. وهو مع احتفاظه بشعار الاشتراكية، صار أكثر انشغالاً بقضايا التحرر الوطنى والديمقراطية والوحدة القومية منه بقضية الصراع الطبقي.

وقد كانت تنازلاته المتتابة بالذات - وهى التى طمع الحزب من ورائها فى زيادة عدد

أنصاره - هي العدو الأول لنجاح الحزب في صورته الجديدة. فقد أدرك الناس في يسرٍ ما طرأ على موقف الشيوعيين من ضعف اضطرهم إلى التسوّل والاستجداء، وإلى تغليف النوايا والأهداف، في حين أدرك الشيوعيون القدامى أن النقاء الفكري للحزب قد ضاع، وأن موقفه الأيديولوجي قد ماع، فتركوا صفوفه عن احتقار لصورته الجديدة، ولم تُقد هذا التنازلات حتى في اجتذاب العمال والفلاحين.

وأما عن حزب الوفد الجديد فقد اعتمد في إعادة تأسيسه وجمع الأنصار - شأن الحركات الإسلامية - على خيبة أمل الغالبية من أفراد الشعب في الحلول المجرّبة، لا منذ مائة عام كما عند الإسلاميين، ولكن منذ ثورة عام ١٩٥٢ فحسب. فقد استقل حزب الوفد ما لمسه لدى الكثيرين من حنين إلى الماضي، إلى مظاهر الحياة القديمة غير المعقدة والخالية من التوتر والضغط العصبي والتراحم والتكالب على كسب المال، وقبل أن تفسد الأخلاق وتخلو العلاقات الاجتماعية من التراحم والتأخى، وحين كانت المواصلات صالحة لاستخدام الأدميين، والشوارع لا تعرف الزحام، والسماء خالية من سحابات التلوث، وحين كانت يافطات «شقة للإيجار» تصادف العين في كل شارع، وسيارات الأجرة تقف لكل من يشير لها بالوقوف، ثم الحنين إلى الموسيقى القديمة والأفلام القديمة وعلم البلاد القديم.. إلى آخره. ولسبب ما ارتبطت كل هذه الخيرات والمباهج في أذهان بعض الناس بحزب الوفد، وكأنما هو الذى كان مسئولاً قبل الثورة عن توفيرها، وكأنما هو الذى صمّم راية مصر الخضراء، وأنتج الأفلام القديمة، ووضع الألحان لأغانى سيد درويش وفرقة الموسيقى العربية، ثم كأنما بوسعه - متى تولى الحكم - أن يعيد كل شيء إلى ما كان عليه قبل أن تفسده الثورة.. حتى سيجار الباشا زعيم الوفد نفسه أصبح رمزاً من رموز الماضي محبباً إلى النفوس!

غير أن حزب الوفد لم ير الاقتصار في سبيل كسب الشعبية على هذا الحنين الشائع، وذلك حين نظر حوله فلمس القوة المتصاعدة للحركة الإسلامية في البلاد. وقد تردّد زمناً بين التمسك بعلمانيته التقليدية التى جلبت له في الماضي تأييد غالبية الناخبين القبط، وبين التحالف مع إحدى الجماعات القوية من جماعات التيار الدينى (وهى جماعة الإخوان المسلمين)، فارتأى أن من شأن هذا التحالف أن يفيد في المراكز الانتخابية أكثر مما يفيد التمسك بالعلمانية، خاصة إن وفق في أن يوحى إلى الأقباط من طرف خفى بأن تحالفه مع الإخوان مجرد تحالف تكتيكيّ مرحليّ.

«موقف، الحزب الوطنى»

فإن كان حزب الوفد (وهو القوى نسبياً) قد رأى ضرورة ملحة فى التحالف مع جانب من التيار الإسلامى، وإن كان حزب التجمع (وموقف معظم أعضائه من الدين معروف) قد وصل إلى أنه من الحكمة مهادنة النزعات الدينية، فليس من المستغرب أن يتبنى القضية الإسلامية حزبان تافها الشأن (هما حزباً العمل والأحرار)، وعلى نحو أكثر حماساً، أما الحزب الوحيد الذى لم يحدّ حنوس سائر الأحزاب فى هذا الصدد، فهو الحزب الوطنى، وذلك لمجرد أنه قد صادف أن يكون الحزب الحاكم، والحزب الحاكم هو دائماً أقل حاجة من غيره إلى انتهاج سياسة انتهازية. غير أن نقطة الضعف الظاهرة فى الحزب الوطنى هى خلوه برنامجه من أية أيديولوجيا متبلورة أو طابع مميز، وهو ما قد نعزوه إلى طبيعة الظروف التى نشأ فيها هذا الحزب أثناء حكم السادات. فنقطة البداية فى نشأة أى حزب سياسى هى أن يتجه أفراد يجمعهم فكر واحد إلى إقامة تنظيم له برنامج يعكس هذا الفكر. وهو بالضبط ما لم يحدث فى حالة تأسيس الحزب الوطنى الذى جاء بناء على تعليمات أنور السادات، واختير أعضاؤه (بل وأعضاء من الأحزاب الأخرى، أحزاب المعارضة) بصورة عفوية تحكمية، ثم أقبل على الانضمام إليه عدد كبير من الانتهازيين الذين ما كانوا لينضموا إليه لولا أنه فى السلطة.

أصبحت صورة الأوضاع السياسية فى مصر إذن على النحو التالى: مشكلات ضخمة متفاقمة، وحزب حاكم تعوزه سياسة بيّنة المعالم والأهداف، وأحزاب معارضة أهمها حزب الوفد الذى يعمل من منطلق غريب لا هو بالكافى ولا بالمقنع ولا بالفعال، ألا وهو الحنين إلى الماضى، ثم حزب التجمع الذى تضيع هويته الأصلية شيئاً فشيئاً بمرور الأيام، وتيار إسلامى جارف يشعر الجميع بضرورة مراعاته، وتؤمن الحكومة - رغم عداوته لها - بأهمية مراعاته.

وفى اعتقادنا أن مثل هذا الوضع ما كان لينشأ لولا المواقف التى أتخذتها الحكومة وكافة الأحزاب والليبراليون فى مصر من خطر ذلك اليمين المتطرف.

فالحكومة وحزبها - رغم جو الديمقراطية والحرية الذى وفّراه - لم تصنّع لنفسها المبادئ والأفكار والمثل التى يمكنها أن تلهب مخيلة الجماهير، وتثير حماسها، وتضمن تعلقها بها، وجديتها فى الدفاع عنها ضد كل خطر أو عنو. وقد كان على الحزب الوطنى - إزاء ما

يتمتع به فكر الجماعات الإسلامية المتطرفة من قدرة هائلة على اجتذاب قطاعات واسعة هامة من الشعب - أن يضطلع بمسئوليتين جسيمتين:

الأولى: أن يطرح هو بدوره في الساحة فكرياً متكاملأً شاملاً قادراً على المنافسة، مدركاً أنه ما من أمل في نجاح مقاومته لتلك الجماعات ما لم يخرج بأيديولوجيا أخرى قادرة هي أيضاً على اجتذاب الجماهير، وتطرح الحلول العملية لمشكلات العصر.

والثانية: أن ينبري المفكرين فيه لفضح المزاعم الفكرية لأعدائه الذين باتوا يهيمنون على الشارع وعلى مستقبل الأمة، وأن يُظهرهم في صورتهم الحقيقية، صورة أفراد محدودي الفكر والتعليم والثقافة، ويبين استحالة تحقيقهم للوعود التي يكيلونها كيداً لأمتهم.

أما عن اليسار والوفد والمثقفين الليبراليين، فقد كان عليهم أن يدركوا أين يكمن الخطر الأكبر على الدولة، وعلى الديمقراطية والحرية وعليهم جميعاً، ومن هو عدوهم الأول، فيدفعهم هذا الإدراك إلى توحيد الصفوف في جبهة صامدة مناضلة إلى حين استئصال خطره. غير أن الذي يحدث الآن هو خلاف ذلك: فاليسار والوفد سعيدان إذ يريان الإرهابيين المتطرفين يهدمون بمعاولهم هيئة النظام وسلطانه، ظانين أنهما هما المستفيدان من زوال هذه الهيئة وهذا السلطان. والمثقفون الليبراليون - كمادتهم في كل عصر وقطر - قاعدو الهمة خاملون، عاجزون رغم استنارتهم - أو بسببها - عن الوقوف في وجه حركة همجية ديناميكية غير عقلانية. وقد كان على كل من هذه الفئات، وعلى الحكومة وحزبها، أن يرى في أفراد الفئات الأخرى حلفاء الطبيعيين، وأن يعي أنه ما كان ينبغي أن يكون خلافه مع هذا أو ذاك سبباً يحول دون التلاحم في جبهة قوية نشطة، ضدّ عدوّ قويّ نشط، يهدّد بابتلاعهم جميعاً فيما بعد.

العنصر الإيجابي في الموقف

ثمة على أي حال عنصر إيجابي في هذا الوضع المعقّد، يتمثل في إدراك لدى القيادات الفكرية في كافة الأحزاب المصرية لحقيقة هامة؛ هي أن التيار الديني المتطرف في الوقت الراهن، وربما لفترة طويلة قادمة، هو أكثر التيارات القائمة التحاماً بالجماهير العريضة، وأقربها إلى المشكلات الحقيقية للشعب، وأن أفرادها أكثر تعرّضاً ومشاركة ومعاناة لآلام الفرد

العادى من غيرهم، وبالتالي فهم أعمق الجماعات تأثيراً فى الفرد العادى، حتى مع الإقرار لبعض الأحزاب الأخرى، خاصة حزب التجمع الذى يضم عدداً أكبر مما يضمه غيره من نخبة المفكرين المتعمقين المخلصين، بأنه أقدر على الفهم والتحليل ووصف الدواء للداء، وهو فى اعتقادى أمر مؤسف حيث أن التيار الدينى بسماته الحالية غير مؤهل لاستنباط الحلول السليمة لمشكلاتنا، ولأن الغالب أن المجتمع الذى سيقومه أفرادُه على أنقاض النمط الفاسد لمجتمع اليوم، لن يكون أفضل مما هدموا. فهؤلاء وإن تحلوا بشجاعة رائعة تجعلهم على استعداد للتضحية بأرواحهم فى سبيل العقيدة، يفتقرون إلى نمط من الشجاعة أهم، هى تلك التى تتجلى فى مواجهة صريحة صادقة مع الماضى والحاضر مهما كانت المواجهة مرّة، فى حين تتميز نظرتهم إلى التاريخ والمستقبل برومانسية تشوّه هذه النظرة. هذا بالإضافة إلى استغراق فكر غالبيتهم فى تفاهات وجزئيات تعميهم عن جوهر الأمور، وتعصّب ينذر بطبيعة ما هوأت إن هم نجحوا فى الوصول إلى السلطة، أو حتى فى مجرد فرض إرهابهم الفكرى الذى نلمس الآن بوادره.

وقد شرعت القيادات الفكرية المخلصة فى بعض الأحزاب فى استنباط الدرس الواجب استنباطه من هذا كله: ألا وهو ضرورة النظر فى إمكان وسبل تحقيق الالتحام بال جماهير العريضة على نفس النحو الذى نجح التيار الدينى المتطرف فى تحقيقه، وحيث أنه قد ثبت على نحو قطعى تمسك الشعب (وعن حق) بدينه وتقاليده، فالمفروض أن ينبرى هؤلاء المفكرون ليعلموه كيف يصل بين العقيدة وبين الفكر العلمى الحديث، وأن يوضحوا مغزى الرؤية الدينية بصدد الاحتياجات السياسية والاجتماعية والاقتصادية المعاصرة، ويركّزوا على الأوضاع الراهنة كل الضوء وكل الفراسة ونفاذ البصيرة التى هى حصيلة دراسة متعمقة لقرون طويلة من التاريخ الإسلامى.

مثل هذه المهمة يمكن لو أن مفكرى الأحزاب وقادتها نهضوا بها، أن تعفيهم من ضرورة التدنّى إلى ذلك الدرك المقزّز من الانتهازية الرخيصة، وهى انتهازية لن تحقّق لأحزابهم أهدافها لا على المدى القريب ولا على المدى البعيد، ولن تفلح - فى زعمى - إلا فى تمييع برامجها، وإخفاء معالم مبادئها، وتنفير المخلصين من أتباعها منها، والميل ببعضهم إلى الانشقاق عليها.

عن هتلر.. والملكة إليزابيث.. والشيخ عمر عبد الرحمن

عاصرتُ في طفولتي وصباي نشأة ظاهرتين غريبتين في ألمانيا وبريطانيا، متشابهتي الدلالات.. وقد شهدتُ في مستهل سن المراهقة انهيار الظاهرة في الدولة الأولى، وشهدتُ في مستهل شيخوختي انهيار الظاهرة في الدولة الثانية.. وها أنا اليوم أراقب تصاعد ظاهرة مماثلة في عالمنا الإسلامي، لا أدري ما إذا كان العمر سيمتدُّ بي حتى أشهد لها انهياراً كانهيار سابقتها. وهو مع ذلك انهيار حتميٌّ مؤكد.

ويمكن تلخيص الظاهرة في العبارة التالية:

«هي نوع من الحنين القوي إلى الماضي، وإلى أمجاد وهمية لحضارة دارسة قديمة في ماضى الأمة التي تسود فيها الظاهرة.. وهو حنين ناجم عن متاعب وتحديات حضارية ضخمة تشعر بها تلك الأمة، فتسعى معها إلى السباحة ضدَّ تيار جارف، ظانةً أنها بإحياء بعض مظاهر وعناصر تلك الحضارة السالفة يمكنها أن تستعيد أمجاداً تنسبها إلى ماضيها السعيد المشرق، شديد الاختلاف عن حاضرها المظلم التعتس، وإلى سلفها «الصالح» الذي تحسب أنه كان يتمتّع بكل ما يفنقر إليه المعاصرون من أبنائها من القوة والشهامة، وكريم الخلق والسجايا».

(١)

فأما في ألمانيا، فإنه مع يزوغ الحركة النازية القائمة بتفوق الجنس الأريّ على غيره، تبنّى أنصارها الدعوة إلى إحياء التيوتونية البدائية «المجيدة»، ذاهبين إلى أن اللغة التيوتونية كانت لغة جنس أشقر الشعر، أزرق العينين، موطنه شمالي أوروبا، وأن الطبيعة حبت تلك المنطقة، وذلك الجنس، وتلك اللغة، من سمات النبل ما لا يشاركها فيها غيرها، بحيث يمكن القول في ثقة بأنها فضلت ذلك الجنس على العالمين.

فإن نحن نظرنا إلى خلفية تبني النازيين لتلك الدعوة، رأينا أن ألمانيا وقد خرجت من الحرب العالمية الأولى مهزومة مهيضة الجناح، واقتطعت منها أغنى أقاليمها، وفُرضت عليها معاهدة فرساي المجحفة أثقل الشروط والمهانات، وأصاب اقتصادها الركود والتدهور والتضخم، وعمالها البطالة، ومتقفيها الحيرة واللبلة، وشعبها كله الإحساس بالمذلة والضياع، قد شاع فيها الاعتقاد بأن المسؤولية عن هذا الانهيار القومي الشامل تقع على عاتق الحضارة الغربية الحديثة المنحلة الرخوة الآيلة إلى زوال، وعلى إقبال الألمان في العصر الحديث على النهل في سذاجة من تلك الحضارة بمنايعها المسمومة.. فكان أن خرج «مفكرو» النازية بفكرة أن المخرج الوحيد من هذه المعضلة، أو من هذا الفخ الذي وقعت الأمة فيه، هو عودة هذه الأمة إلى ماضيها التاريخي، واستلهاهم تراثها «المجيد» الذي وضع أسسه أجدادهم التيوتونيون منذ أَلْفَي عام، ممن أقامت قبائلهم وسط غابات ألمانيا جنّة الله في أرضه، بفضل الأخلاقيات التيوتونية البدائية، وتضامن أفراد القبائل فيما بينهم، والطاعة العمياء لإرادة زعاماتهم القوية المخلصة للمهمة.

هي إذن نفس الغريزة الحيوانية التي تدفع صغار حيوان الكنغر في حديقة الحيوان إلى القفز إلى أحضان الأم والاحتواء داخل كيسها كلما أزعجهم التفاف زوار الحديقة من الادميين حولهم للحملقة فيهم..

وما أحسبني في حاجة إلى أن أذكر القارئ بما آلت إليه هذه التجربة النازية من دمار شامل...

(٢)

كذلك شهدت بريطانيا منذ اعتلاء جورج السادس العرش في ديسمبر عام ١٩٣٦، وخلال سنوات العقد الأول من عهد إليزابيث الثانية، ظاهرة لا أحسب الكثيرين قد تنبّهوا بعد إلى شدة شبهها بالدعوة النازية إلى إحياء التيوتونية، أو إلى تماثل النواقع وراء الظاهرتين.. وأعنى بهذه الظاهرة عودة الشعب في بريطانيا في الحقبة المشار إليها إلى تمجيد التاج البريطاني، وازدهار شعبية العائلة المالكة وأفرادها، وحرص الصحف وسائر الإعلام على تتبّع كل صغيرة وكبيرة من أخبارها، واهتمام الشعب البالغ بهذه الأخبار، واحتشاده على جانبي

الشوارع التى تمر بها المواكب الملكية للهناف والتصفيق والتعبير عن مشاعر الولاء والحب لهذا الملك أو هذه الملكة أو هذا الأمير.. وهى شعبية لم تعرفها العائلة المالكة البريطانية (وسمعة لم يصل إلى مثلها التاج البريطانى) فى أى وقت من الأوقات منذ وفاة الملكة إليزابيث الأولى عام ١٦٠٣.

قد يشار فى تفسير ذلك إلى الحاجة العملية إلى مثل هذا التضخيم من أهمية العائلة المالكة، بعد تأسيس الكومنولث البريطانى، باعتبارها همزة الوصل بين الدول العديدة المستقلة الأعضاء فى ذلك الكومنولث، بحيث أصبح للتاج البريطانى دور جديد من المصلحة دعمه.. غير أنه حتى لو صحّ هذا القول، فإن هذه الاعتبارات الدستورية العملية لا تكفى وحدها لتفسير تلك الظاهرة الفريدة فى التاريخ البريطانى الحديث.. وإنما يفسر تلك العودة الأخيرة إلى الالتفاف حول التاج، وتعليق آمال البريطانيين عليه، إحساس الشعب فى أواخر الثلاثينيات، ثم فى العقدين التاليين، (وهو إحساس لم يقلل من عمقه وقوته غفلة الكثيرين عن حقيقته)، بأن مجد بريطانيا السياسى قد بات فى طريقه إلى الانحسار، وأنها قد بدأت تتخلى عن مكانتها العليا فى معترك السياسة الدولية للولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى، خاصة بعد ما تبين لكل ذى عين أن الإمبراطورية القديمة فى سبيلها إلى التقلص والذوال.. وقد تسبب هذا الإحساس فى أواخر الثلاثينيات فى تدهور شعبية وسمعة البرلمان البريطانى، وإحياء شعبية وسمعة التاج الذى كان أهم المؤسسات البريطانية فى عصر النهضة والقوة السياسية والعسكرية، وهو العصر الذى بات البريطانيون فى زمن أفول نجم بلادهم يتطلعون فى حينه إليه.

غير أن هذه الظاهرة لم تدم لأكثر من ربع قرن، كان البريطانيون خلاله قد وُلّوا أنفسهم على تقبّل الوضع الجديد، وتصالخوا مع فكرة أن تتحوّل بريطانيا إلى المركز الثانى أو الثالث فى عالم اليوم، وأفاقوا لحقيقة أنه قد كان من الغباء والسفه الظن أنهم بإحياء شعبية التاج؛ وسمعته فى العصر الحديث سيعيدون أمجاد بلادهم فى عصر نهضتها وملوكها الأقوياء وسلفها الصالح، وأن ما أظهروه مؤخراً من اهتمام مفرط بالعائلة المالكة كان مبالغاً فيه، ومخزياً فى واقع الأمر، وجديراً بأن يخلطوا منه.. فكان أن حدث ما شهدناه جميعاً خلال الحقبة الأخيرة من ردّ فعل قوى فى الاتجاه المضاد، هو أيضاً مبالغ فيه، ومخزٍ فى واقع الأمر، إذ تتكالب وتتكاثر وسائل الإعلام البريطانية من أجل تشويه سمعة أفراد العائلة المالكة (من مارجريت إلى آن إلى سارة إلى ديانا وتشارلس وغيرهم)، وتعداد فضائحتها وانحرافاتهما،

وهو تشويه يشارك الشعب البريطاني نفسه فيه، ربما من قبيل التكفير عن تمجيد زائف في الماضي، شعبية عظيمة لم يكن لها في الواقع ما يبررها.

(٣)

وإذ قد لا نكاد اليوم نسمع ألمانيًا يجزء على التحدث عن أمجاد التوتونية السالفة، أو نرى بريطانيًا يطبق الاستماع إلى حديث عاطفى عن العائلة المالكة، فإننا قد بتنا نشهد الآن فى عالمنا الإسلامى نشأة ظاهرة مماثلة للظاهرتين المندثرتين فى ألمانيا وبريطانيا، لا نعلم بالدقة كم سيمتدّ بها الأجل.

ذلك أنه وقد تدهورت أحوال الأمة الإسلامية السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وشاعت بين شبابها ومثقفها ومفكرها فى الحقبة الأخيرة خيبة الأمل وفقدان الثقة فى مختلف الحلول والمذاهب والأيدولوجيات التى جوبّتها الأمة واحدة إثر أخرى على مدى قرن من الزمان، برزت فيها جماعات تنحو إلى تمجيد الماضى البعيد من تاريخها، وتسعى إلى إحياء العصر الذهبى عن طريق ارتداء الجلابيب، وإطلاق اللحن، وفرض الحجاب أو النقاب على النساء، والتشبّه فى كل صغيرة وكبيرة بما كان عليه «السلف الصالح».

وثمة أمران يدفعان الغالبية العظمى من هؤلاء إلى الاستغراق فى الحنين إلى ماضٍ قد استأصلوا من معالمة كل ما هو مؤلم مزعج، وأبقوا منه على كل ما هو مشرق مبهج، وكلا الأمرين يتمثلان فى عجز: العجز عن تنبؤ مكانة يرضون بها فى إطار النظام الاجتماعى والاقتصادى السائد؛ والعجز عن موازنة تعاليم الإسلام مع معالم العصر الحديث، وعن إقامة الجسور النفسانية مع المجتمعات غير الإسلامية الأكثر مرونة وتحرراً.. فهنا ثورة على الحداثة، وتنفيس مرضى عن مشاعر القهر والعقم، وتفضيل واختيار مؤسف للهروب إلى الماضى على بذل الجهود الشاقة من أجل التأقلم والتكيف والتغيير.. وهنا حضارة مهزومة أطلّت برأسها هنيئة من قوقعتها فى محاولة للحاق بالعصر الحديث، ثم إذا بها عند أول صدمة ترتدّ بسرعة إلى القوقعة، مفضلة البقاء فيها إلى أبد الأبدى على مواجهة المصاعب والصدمات والتحديات، ومحاولة إيهاام نفسها وإيهاام الغير بأن هذا التفضيل من جانبها للقوقعة ناجم عن كراهة لمظاهر الحضارة الحديثة، وعن تعلق بماضٍ مجيد، وعن التزام بتعاليم دين هو من هذا العجز والجبن برىء.

من المؤكد إذن أن الشعوب تلجأ وقت المحن والأزمات إلى إيجاد صلة بماض هو في زعمهم «مشرق»، أو - على الأقل - «أمن هادئ» مستقر». ولا ننكر أن الانغماس في الماضي يخفف من حدة الضغط العصبي (كما يخفف إخفاء النعامة لرأسها في الرمال من حدة توترها)، ويلهى - كما تلهي المخدرات متعاطيها - عن الواقع، ويريحنا ولو لساعات من التفكير في حاضر دائب التغيير ولا شكل له، وفي مستقبل لانطمئن إلى الصورة التي سيكون عليها.

غير أنه من المؤكد أيضاً - في رأيي - أن ظاهرة الحنين إلى الماضي تنطوي على مخاطر هائلة، أخفها الميل إلى تزييف التاريخ، وانعدام الأمانة في تسجيل أحداثه أو تخيلها، واتخاذ موقف من شخصياته هو أشبه شيء بعبادة الأسلاف التي عرفها أهل العصور السحيقة، وإلى الغضب والثورة على كل من تسوّل له نفسه أن يصوّر الماضي والأسلاف صورة واقعية لا رتوش فيها... أما الخطر الأعظم فيمكن في أن الاستغراق في الماضي والحنين إليه يشلّ من قدرتنا على مواجهة الحياة المعاصرة، والتصدي لمشكلاتها بمحاولة جادة نشطة لإيجاد الحلول، والإعداد للمستقبل، ويعطل من إمكانية الخلق والإبداع.

* * *

إن الحاضر هو الزمن الوحيد الذي نملك أن نعيش فيه. ولا بدّ للواقع من أن يفرض نفسه في وقت ما على من شاء مواجهته ومن لم يشأ.. وإنما تتحقّق المأساة وتقع الصدمة حين يتبدّد الوهم، ويزول تأثير المخدر بالإفاقة.. كذلك فإنه لن يكون بوسعنا إصلاح الواقع إلّا متى أدركنا زيف تقديس الماضي الميّت ومثله وأفكاره، ومتى فهمنا أن تقديس الماضي مجرد أنه ماض ينطوي على جهل، وأنه أشبه بالسراب الذي لا يعكس غير أوهامنا وأحلام يقظتنا، ومتى تصدّينا لفضح استغلال بعض الأحزاب والجماعات للتعطش الزائد إليه.

الإسلام هو الحل

(١)

- والله إنك لعدو نفسك يا أستاذ حسين.

قالها وهو يقلّب ناظره بين ثيابي الرثة، وأثاث مسكني البالي، مطلقاً بلسانه، وهاراً رأسه هز المشفق الأسف.

- غيرك من المؤلفين يكسب الآلاف المؤلفة - بل والملايين في بعض الحالات - من كتاباته الهزيلة السقيمة، وسيادتك قانع بالكتابة لجريدة «الاهالي» التي لا تتقاضى منها قرشاً واحداً - ألا يكفي ما تنأى به إلى مقالاتي من سمعة طيبة لدى جمهور قرائي؟

- وفوق الكفاية!! ولكن حاول يا سيدي أن تصرف هذه السمعة لدى أيّ بنك من البنوك، لترى ما إذا كانت ستجلب لك ما يكفي لشراء حذاء بدلاً من هذا الحذاء الذي توشك أصابع قدمك أن تطلّ منه على العالم الخارجى.

- وماذا عساي أن أصنع؟ كنت أكتب مقالين أو ثلاثاً كل عام لمجلة «العربي» الكويتية، أستعين بمكافأتها على مواجهة بعض أعباء الحياة، فإذا بحكومات الدول الخليجية مجتمعة تورد اسمى ضمن قائمة أسماء الكتّاب المصريين الذين قررت مقاطعتهم ووقف النشر لهم.. وكنت أنشر كتيبي عند دار «شمس السعود»، فإذا بصاحبها، ثم أصحاب غيرها من دور النشر، يحجمون الآن عن النشر لى، بدعوى أن كتيبي ممنوع دخولها منذ اليوم إلى كافة الدول الخليجية، مما سيسبب إساءة بالغة إلى حجم توزيعها... ماذا عساي أن أصنع إذن؟

- ألم أقل لك إنك عدو نفسك؟ دعنى أسألك: ما الذى وصل بالحال إلى هذه الكارثة، وإلى هذا القرار يحظر النشر لك؟ أىّ شيطان ذلك الذى أغراك فى يوم ما بمهاجمة حكومات دول النفط، واتهامها بالهيمنة على وسائل الإعلام المصرية، وبإفساد ضمائر كتّابنا، بحيث

أصبحت الحياة الفكرية فى مصر - على حدّ تعبيرك البذئء - «تعرف اليوم قدراً من العهر والدعارة لم تعرفه فى تاريخها كله»؟

- أليس هذا هو الواقع؟

- أى واقع يا صاح؟! صحّ النوم! الواقع الواقع هو أنه ما من أحد الآن فى مصر بات بوسعه مواجهة أعباء الحياة الرهيبة إلا بأن يمدّ يده يطلب الصدقة من سادة دول الخليج: كتّابنا، فنّانونا، مسارحنّا، وسائل إعلامنا، دور النشر عندنا، فتياتنا ونسائنا، شبابتنا العاطل عن العمل، أبائنا المرهقون، متاجرنا، فنادقنا، أصحاب الفيلات والشقق المفروشة، حكومتنا، أو ما شئت.. ثم يأتى السيد دون كيخوته - الذى هو أنت - شارعاً رمحه، أو قلمه، ظاناً أن بوسعه ببضع مقالات أن يقف أمام هذا التيار وأن يضع حدّاً له.. صدّقنى، الجميع يسخر منك من وراء ظهرك، ومن سداجتك المفرطة ومحاولاتك غير المجدية.

- أوافقك على أنها غير مجدية.. كل ما فى الامر أنى لمست واقعاً مخزياً معيناً ووجدت نفسى مدفوعاً إلى الحديث عنه، والتنبيه إليه.

قال وهو يتأمل حيطان الشقة التى لم تعرف طلاء لأكثر من عشرين عاماً:

- الواقع المخزى هو الذى تعيش فيه أنت.

- لم أعد قادراً حتى على دفع فواتير الكهرباء.

قال :

- اسمع! لابد من صنع شيء.. وأول ما ينبغى لك أن تبدأ به هو تغيير مفاهيمك ونظرتك إلى الحياة فى عالم اليوم.. سأروى لك قصة: أثناء خدمة تولستوى فى الجيش فى سنّى شبابه، رأى يوماً ضابطاً زميلاً له وهو ينهال بالضرب على جندى فى كتيبته لأنه رآه متأخراً خطوة عن الصف الذى يقف فيه.. فاقترّب منه تولستوى قائلاً: ألا تخجل من ضرب أخ لك فى الإنسانية؟ ألم تقرأ الإنجيل؟ فنظر الضابط إلى تولستوى باحتقار شديد ثم قال: «وأنت... ألم تقرأ تعليمات القيادة العسكرية؟»!

قد تضحك أنت، غير أن هذا الرد من الضابط حكيم ومنطقى للغاية. فأولئك الساعون إلى غايات مادية، كالانتصار فى الحرب، ليسوا فى حاجة إلى قراءة الإنجيل والعمل بتعاليمه. وقد بات الناس كافة فى عصرنا هذا لا يسعون إلا وراء الثروة والجاه، ولن تفيدهم تعاليمك فى شيء.

- أليست ثمة حاجة إلى أناس يدعون إلى عبادة غير عبادة المال والجاه؟
- ليس فى زمننا هذا... قد لا يكون الفقر عاراً، غير أنهم لن يكافئوك بوسام من أجله.
- أثمة ضرورة لوسام؟
- لا، ولكن ثمة ضرورة لدفع فواتير الكهرباء... ولتبويض شقتك... ولشراء حذاء جديد لك.

- والحل؟

- دعنى أفكر... الحل... الحل... أه! وجدتتها! أنت كاتب لا مفرّ من الاعتراف برصانة كتاباتك.. كتبت عدة مؤلفات فى الإسلام المطلوب لزمنا هذا: «دليل المسلم الحزين»، «حول الدعوة إلى تطبيق الشريعة»، «الإسلام فى عالم متغير»، إلى آخره. وهى كتب أغضبت عليك أصحاب النظرة الدينية الرجعية الضيقة من سادة دول الخليج، ومن معظم أصحاب دور النشر هنا فى مصر ممن تموّلهم دول الخليج، فحاربوك وقاطعوك، واتهموك بالكفر والمروق من الدين.. أليس كذلك؟

- نعم.

- أه! أمامك إذن فرصة ذهبية يا صاح! فرصة تغدو بها مليونيراً فى بحر عام واحد.. صدّقنى، فى أقل من عام واحد. وسأتى إليك بعد عام من اليوم لمطالبتك بنسبة من أرباحك مكافأة لى على الإيحاء إليك بالفكرة.

- وهى؟

- فكرة جهنمية! أن تعلن توبتك.

- توبتى؟!

- نعم. تعلن توبتك، تعلن عن اهتدائك إلى الحق، وأنتك بعد منام أذاك، أو مرض خطير اعتراك، تعمّقت فى القراءة عن الإسلام، فبددت قراءاتك ما اكتنف عقلك من أوهام، فإذا بالحقيقة تبدو سافرة جليّة أمام عينيك، وبهاتف يدعوك إلى التوبة يملأ أذنيك، ثم إذا بك تنشر المقال تلو المقال والكتاب تلو الكتاب عن تجربتك الفريدة، وعما عانيته من اضطراب فكرى حتى اهتديت إلى أكمل عقيدة.. وهو أمر كفى وحده بأن يضمن رواج كتاباتك، ويجمع حواك الآلاف من الراغبين فى الاستفادة من خبراتك.

- ولكن...

- لا تقاطعنى، أرجوك... إنه ليس هناك من هو أحبّ إلى هؤلاء السادة فى دول الخليج من المعلن لتوبته وعودته إلى الحق، أعنى إلى ما يعتقدون هم أنه الحق... هم لا يهتمهم التقىّ المتدين أصلاً بقدر ما تهمهم عودة الابن الضال. بل ولا تهمهم التوبة فى حدّ ذاتها، وإنما يهتمهم الإعلان عن التوبة... ومع ذلك، لا تحاول أنت بنفسك الاتصال بهم.. فهم يعلمون فقرك، وسيفسّرون توجّهك إليهم بحاجتك إلى أموالهم، فيبخسون قدرك، ولا تنال عندئذ منهم إلا القليل... دعنى أنا أتوجّه إلى عملائهم هنا فى مصر، فأسرّ إليهم أنك الآن تمرّ بأزمة فكرية وروحية قاسية، توحى بآئك فى سبيل التراجع عن معتقداتك الآثمة السالفة، وأنت قد بتّ على مشارف الحق والهداية بمفهومهم، بدليل أنك قررت التوقف عن الكتابة لصحيفة «الأهالى»، وتفكر فى نشر مقالاتك التالية فى مجلة «الفيصل» السعودية، لولا الحظر الذى فرضته مؤخراً حكومات دول الخليج على نشر كتاباتك فيها... اسمح لى بأن أفعل ذلك وسترى العجب العجائب... أنت تسخر اليوم من أصحاب القيلات فى مارينا وسيدى كرير.. غير أنك لو كنت صريحاً مع نفسك لأدركت أن هذه السخرية مجرد قصر ذيل، والعنب حصرم... ولن يمرّ عام حتى أزورك بنفسى فى قصرك فى مارينا بإذن الله تعالى... فكر يومين أو ثلاثة ثم اتصل بى.. وتذكر أنك لست مسئولاً عن نفسك فحسب، بل وعن زوجك وأولادك الذين يعانون أضعاف ما تعاني منه أنت.

(٢)

ثم كان أن رضخت، وكان أن اتصلتُ به لإخطاره بموافقتى، وكان أن اتصل بى «أحدهم» تليفونياً بعد ثلاثة أسابيع يسأل عما إذا كان يمكنه أن يحظى بشرف زيارتى لتناول فنجان قهوة معى، وكان أن أعلنوا فى الصفحات الأولى من جرائدهم عن توبتى، ثم كان أن أصدرت الدول الخليجية قراراً برفع الحظر عن نشر كتاباتى.

وتتابعت مقالاتى فى مجلة «الحرس الوطنى» السعودية، و«منار الإسلام» بأبى ظبى، و«الامة» القطرية، و«المجتمع» الكويتية، و«الهدى النبوى» بدولة الإمارات، و«المختار الإسلامى» المصرية، وجرائد «الشرق الأوسط»، و«المسلمون»، و«الاتحاد»، و«الانباء»، و«النور»، و«اللواء الإسلامى»، إلى آخره.

كان المقال الأول عن كيف أنه ما من حقيقة علمية كشف عنها العلم الحديث إلا وقد تضمنها القرآن الكريم أو ألمح إليها الحديث الشريف، فالجاذبية الأرضية ذكرها القرآن فى آية

(الله الذى رفع السماوات بغير عمد ترونها). ونظرية النسبية أوردها فى آية (فلا أقسم بمواقع النجوم). وتقسيم الذرة مذكور فى آية (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين). ونظرية براون الخاصة بالحركة الدائمة للأجسام الدقيقة فى الماء مذكورة فى آية (وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم).

وكان الثانى عن الجهود العظيمة التى يبذلها جلالة الملك فهد خادم الحرمين من أجل راحة الحجاج وسعادتهم، وعن مشاعر التقوى المخلصة التى غمرتني أثناء طوافي بالكعبة عند تأديتي لفريضة الحج، بدعوة كريمة من السلطات السعودية.

وكان الثالث فى الحضر على طاعة أولى الأمر، وكيف أن السلطان الغشوم خير من فتنة تدوم، ووجوب الإذعان للحاكم براً كان أو فاجراً، وعن فضائل الصبر والرضا بقضاء الله وحكمه، مفسراً المظالم الاجتماعية والاقتصادية بأنها اختبار من الله عز وجل، أو عقاب عادل منه على ارتكاب الشعب للمعاصي، مع تبشير للصابرين بالجنة التى لن يكون فيها أزمة مواصلات، ولا صعوبة تواجه الرجل وجوريته فى العثور على مسكن، ولن تنهار القصور فيها على قاطنيها، وستضمن أنهارها الجارية وعيونها استمرار توافر مياه الشرب فى كل زمان ومكان.

وكان الرابع عن كيف اكتشف العلماء الأمريكيون مؤخراً صحة مضمون الحديث المنسوب إلى النبی صلى الله عليه وسلم (الباذنجان شفاء من كل داء)، وتأكيد العلماء الألمان لصحة مضمون الحديث الوارد فى البخارى (إذا وقعت ذبابة فى شراب أحدكم فليغمسها ثلاثاً، فإن فى أحد جناحيها سماً وفى الآخر شفاء). وهو من ثلاث حلقات.

وكان الخامس عن روحانية الشرق ومادية الغرب، وعن كيف أنه كان فى منطقتنا الطاهرة (منطقة الشرق الأوسط) ظهور كافة الأديان السماوية، ومن حضارتها الإسلامية بزغ نور العلوم والفنون، وعن أسلافنا استقى الأوروبيون فكرهم، واقتبسوا مخترعاتهم، واغترفوا من مناهل معارفهم. فكل ما ينعم به الغربيون اليوم إن هو إلا بفضل المسلمين، وكل ما يزعمون اكتشافه سبقهم إليه العرب من مئات السنين.. إذ من من شعرائهم أعظم من المتنبى وأبى نواس؟ وهل كانوا يفلحون فى اختراع الطائرة لولا عباس بن فرناس؟ ومن فى الفقه عندهم أعظم من محمد بن إدريس؟ وهل كان هارفى فى اكتشافه الدورة الدموية غير عالة على ن النفيس؟ وقد نهب بتهوفن فى جلّ سيمفونياته ألحان إسحاق الموصلى، وأخذ موتنى أفكار

مقالاته عن بدر الدين الإربلى. وكذلك سبق فرويد فى تفسير الأحلام ابنٌ سيرين، وسرق نظرية ابن حزم فى ميتافيزيقا المشق شوبنهاور اللعين...

وكان السادس عن تدهور الحضارة الغربية ومفاسدها وأهوالها، وعن تفسخ القيم وانحلال الأخلاق فيها، وعن نسائها اللواتى يقبطن نساء المسلمين على وضعهن المتميز، وفلاسفتها من أمثال شبنجلر الذى تنبأ بقرب انهيارها، ومفكرها من أمثال جارودى الذى اهتدى فى ختام رحلة حياته إلى الدين الحق، أو لويون وكارلايل اللذين أشادا بعظمة الإسلام. وكان السابع فى تفسير مقال للشيخ متولى الشعراوى عن إمكان أن يصاب الجن بالجراح نتيجة إطلاق العيارات النارية عليه. (وهو من خمس حلقات).

وكان الثامن عن روعة الحل السعودى، وعظمة الحل السعودى، وجمال الحل السعودى، وهو ملخص لسلسلة من الكتب التى ألّفها الأستاذ جلال كشك فى هذه الموضوعات المتنوعة، وشرح فيها أسباب غيرة المجتمع الأمريكى والمجتمعات الأوروبية المتقدمة من قدرة الحكومة السعودية على حل كافة المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، كبيرها وصغيرها.

وتناول التاسع نقاشاً متفرقة مثل ضرورة لبس الجلباب وتقصيره إلى ما فوق الكعبين، وضرورة الأكل باليمين والشرب باليمين، ودخول المرحاض بالقدم اليسرى أولاً، وحكم الإسلام فى اقتناء الصور الفوتوغرافية، وهل شرب الإنسان وهو واقف مخالف للسنة، وحكم الصلاة بجوار امرأة، وحكم من تزوج بالجن المتشكل بالإنس وما ينشأ عن هذا الزواج من حقوق عائلية، وعما إذا كان الأكل على المناضد يعنى الافتقار إلى احترام السنة وإلى حب رسول الله.

وكان العاشر عن حتمية وضرورة رفضنا لمفهوم الديمقراطية الغربية المستقى عن الإغريق، وكيف أن هذا المفهوم يناقض مبدأ الشورى الإسلامية بل والإسلام نفسه، حيث أن الديمقراطية تقضى بحق الشعب فى سن القوانين وتغييرها بتغير الظروف والاحتياجات، فى حين يرى المسلمون أن الشريعة قوانين إلهية لا يحق حتى للغالبية أن تمسّها فى أى زمان أو مكان. هذا بالإضافة إلى أن المفهوم الغربى للديمقراطية لا يناسب مجتمعنا العربى، ولا يحقق للمسلمين أدنى مصلحة.

كانت المكافآت السخية التي تقاضيتها عن نشر مقالاتي في الصحف والمجلات الخليجية كافية لتسوية كافة ديونى، وشراء احتياجاتى الأساسية، وتبييض شقتى، بل وإدخال تحسين ملحوظ فى مستوى معيشتى. وسرعان ما تهافتت الإذاعة والتلفزيون على - بتعليمات من وزير الإعلام - يطلبان منى إعداد حلقات أسبوعية عن موضوع محبب إلى قلوب السامعين والمتفرجين، وهو كيف أن العلم يدعو إلى الإيمان.

فما تم نشر مقالى الثلاثين فى الصحافة الخليجية حتى اتصل بى صاحب دار «شمس السعد» للنشر والتوزيع، يدعونى إلى تناول العشاء عنده فى داره.

دخلت حجرة صالونه فإذا به يغص بعدد كبير من الفنانين والفنانات، ومن الكتاب و«المفكرين» الإسلاميين المعروفين (بعضهم يلبس الجلباب وقد أطال لحيته)، وقد صُفّت أمامهم مناظيد صغيرة مستديرة عليها الكؤوس وزجاجات الويسكى والنيذ والبيرة وجرادل الشج وأطباق المرات الشهية. وبعد أن استقبلنى زملائى من «المفكرين» الإسلاميين بالاحضان والترحاب الحار، قادنى صاحب الدار من ذراعى إلى حجرة مكتبه الملحقة بالصالون، وأبدى إعجابه الشديد بمقالاتى الثلاثين (خاصة تلك المتعلقة بالديموقراطية والثورى)، واستأذنى فى جمعها فى كتاب، ثم ناولنى شيكاً بمبلغ لم أصدق بصرى حين وقع عليه، وهو المبلغ الذى اشتريت به فيما بعد فيلتى فى مارينا على الساحل الشمالى.

فما عدنا إلى الصالون واستقر بنا المجلس، حتى دلفت إليه سيدة محجبة لا يظهر من جانبها غير الوجه واليدين. وقد أصاب الحاضرين لرؤية حجابها من الذعر ما جعلهم يبادرون أء كؤوسهم التى كانت أمامهم أو بأيديهم تحت المناظيد أو الكراسى.. غير أنها سرعان ما إلى الجميع اطمئنانهم حين خلعت طرحتها وعباعتها بحركة سريعة، وبرزت فى وجيب يكشف عن معظم مفاتنها، وطلبت لنفسها من صاحب الدار كأساً من الويسكى ماء أو صودا.

وللمرة الثانية خلال هذه الأمسية لم أصدق بصرى إذ تعرّفت عليها، واكتشفت أنها الممثلة الشهيرة عزيزة بركات التى قرأنا مؤخراً فى الصحف نبأ اعتزالها الفن لأسباب «دينية».

حق المسلم فى حرية الرأى والاجتهاد والتعبير عن رأيه

مقدمة:

من الطبيعى، ومن المشروع، أن يُقبل أهل كل عصر، وسكان كل مصر، على قراءة كتابهم المقدس وغيره من الكتب الأساسية فى عقيدتهم، على ضوء احتياجات جيلهم، وقيم زمانهم، ومشكلات إقليمهم، حتى مع توهمهم أن دراستهم لهذه الكتب موضوعية مجردة... فالوهابيون فى شبه الجزيرة العربية، وإن خالوا أنهم يستهدفون العودة إلى إسلام السلف الصالح، إنما أعطوا الأولوية لعقيدة التوحيد فى الإسلام، بسبب ما شاع فى عصرهم وفى بلادهم من خرافات وممارسات تحجب مبدأ التوحيد. أما الحركة السنوسية فى شمال أفريقيا فقد ركزت اهتمامها على التنظيم الاجتماعى للأمة الإسلامية بسبب افتقار المجتمع البدوى هناك إلى حكومة مركزية قوية. وأما حركة الأفغانى ومحمد عبده فقد كان ظهورها مرتبطاً أساساً بمواجهة المسلمين لمعضلة استفحال الهيمنة الاستعمارية الغربية، فصرفت جلّ اهتمامها أو كله إلى موضوع كيفية نهوض المسلمين من كبوتهم، وعلاج مظاهر ضعفهم وتفككهم، وتنظيم أنفسهم من أجل التصدى لتلك الهيمنة الحضارية. وقد كان الرجلان وأتباعهما فى اقتراحهم الحلول للمشكلات الاجتماعية والسياسية والحضارية، متأثرين تأثراً عميقاً بالمفاهيم الغربية لهذه المشكلات، وبصياغات الغرب لحلولها.

وقد كانوا بدعوتهم هذه يعبرون عن الاتجاهات القائمة بالفعل لدى طبقة المتعلمين المتزايدة عددهم من سكان المدن، وهم الأكثر احتكاكاً بمظاهر المدنية الغربية التى أقبلت السلطات على التوسّع فى الاقتباس منها، وإنه لمن الشائق حقاً أن نقرأ فى العدد الأول من مجلة «العروة الوثقى» التى اشترك الأفغانى وعبده فى تحريرها، تحديداً لأهداف المجلة، ومن بينها... ٣ - الدعوة إلى التمسك بمبادئ السلف الماثلة فى واقع الحال لمبادئ الدول الأجنبية القوية المتقدمة!

وقد شكوا المبشرون المسيحيون من أن هؤلاء المصلحين الإسلاميين التوفيقيين، إنما يتبنون الأفكار والقيم المسيحية، ويسعون إلى تشييد هرح إسلام جديد «مسيحي»! غير أن الواقع أنهم لم يتبنوا القيم المسيحية، وإنما نسبوا إلى الإسلام القيم الليبرالية الإنسانية البورجوازية التي عمّت أوروبا خلال القرن التاسع عشر، وهى قيم غير مشتقة عن المسيحية، ودافعوا عن هذه القيم الليبرالية التى اعتقدوا أنها التعاليم التى جاء الإسلام بها.

ولاشك عندى فى أن موضوع «حقوق الإنسان» هو من بين تلك القيم الغربية الليبرالية التى شاء المفكرون الإسلاميون فى مجتمعنا أن ينقبوا عن جذور لها فى أصول ديانتهم. وقد كان التوفيق حليفاً البعض فيما حاول بيانه والتدليل عليه، بينما جَانَبَ البعض الآخر من المبالغين المتطرفين (وما أكثرهم فى بلادنا)، إذ ذهبوا إلى أنه فى حين تدعى الأمم الديمقراطية الحديثة أن العالم الإنسانى مدين لها بتقرير حقوق الإنسان، وتتنازع فيما بينها فضل السبق إلى ذلك، تتوافر الشواهد والأدلة على أن المجتمع الإسلامى هو أول من قرّر المبادئ الخاصة بحقوق الإنسان فى أكمل صورة، وأوسع نطاق، وأنه كان أسبق المجتمعات فى السير عليها، وأن الديمقراطيات الغربية الحديثة لا تزال متخلفة فى هذا السبيل تخلفاً كبيراً عن النظام الإسلامى.

هذه المبالغة لا أقرّها، ولا أرى مستساغاً صدورها عن مثقف عالم مثل الدكتور على عبد الواحد وفى فى كتابه «حقوق الإنسان فى الإسلام». ويكفينى هنا أن أشير إلى أن عدداً من تلك الحقوق التى نص عليها الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة فى ١٠ ديسمبر ١٩٤٨ (وهو الإعلان الذى امتنعت المملكة العربية السعودية، وفى أرضها كان مهد الإسلام، عن التصديق عليه) كان لمدة طويلة غريباً على المجتمع الإسلامى، مثل عدم التمييز بسبب الدين، والمساواة الكاملة فى الحقوق والحريات بين الذكر والأنثى، وتحريم الرق، وحق المرء فى تغيير دينه، وحق كل من الرجل والمرأة فى الزواج من شخص على غير دينه. كذلك فإنه من بين الحقوق التى نصّت عليها المواد الثلاثون من الإعلان، ما لم يكن ليخطر ببال المجتمعات السابقة على القرنين التاسع عشر والعشرين، مثل الحق فى العمل، وفى الحماية من البطالة، وفى الانضمام إلى نقابات العمال، وفى نفس الأجر عن نفس العمل، وفى التعليم، وفى حماية حقوقه المعنوية والمادية الناجمة عن إنتاجه العلمى أو الأدبى أو الفنى... إلى آخره.

ومع ذلك، فالمؤكد أن الكثير من حقوق الإنسان بمفهومها الشائع اليوم، قد نصّ القرآن عليه، أو أشارت السنة الصحيحة إليه، واتخذها المجتمع الإسلامى، خاصة فى عهد الرسول

عليه الصلاة والسلام وخلفائه الراشدين، نبراساً له، وهادياً يهتدى به. من أمثلة ذلك المساواة أمام القانون، والحق في الحياة، وفي المحاكمة العادلة، وحماية الشرف والسمعة والأسرة والملكية، وحرية الاجتماع والاختلاط.. إلى آخره. كما أنه من المؤكد أن المجتمع الإسلامي، بفضل الإسلام، كان من أوائل المجتمعات التي حرّمت التمييز على أساس العرق.

وساقصر الحديث هنا على حق واحد من هذه الحقوق وأمن بكل إخلاص بأن الإسلام قد أقرّه وضمّنه ودعا إلى احترامه، وبأن باستطاعتى الكلام عنه دون مكابرة أو مبالغة أو مغالطة، كما أؤمن بأنه من بين الحقوق المهددة الضائقة التي فرط المسلمون فيها في مرحلة مبكرة من تاريخهم، ولا تزال إلى يومنا هذا مهددة ضائقة. هذا الحق من حقوق الإنسان هو حق المسلم في حرية الرأي والاجتهاد والتعبير عن رأيه.

حرية الرأي

وأبدأ بالإشارة إلى أنه ليس ثمة كتاب مقدس، هو أحفل من القرآن بالآيات التي تحض الناس على النظر والتفكير وتحكيم العقل، ولا أحوى منه على عبارات مثل: أو لم ينظروا... فلينظر الإنسان... أفلا يتدبرون... أفلا يعقلون... لعلهم يتفكرون... لو كانوا يفقهون... أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف... فهنا ثقة مطلقة بأن تقليب النظر، وإعمال الفكر والرأي، والنقاش القائم على مقارعة الحجة بالحجة، أمور كفيلة وحدها بالإقناع والهداية: (فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً، إن عليك إلا البلاغ). وهو حريص على أن يفرس في الرسول الكريم آداب الدعوة: (لا إكراه في الدين)، (أفأنت تكراه الناس حتى يكونوا مؤمنين؟)، (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة، وجادلهم بالتى هي أحسن)، (وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون)، (فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر). (فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعنى، وقل للذين أتوا الكتاب والاميين أأسلمتم؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا فإنما عليك البلاغ)، (وكذب به قومك وهو الحق، قل لست عليكم بوكيل)، (وأعرض عن المشركين، ولو شاء الله ما أشركوا، وما جعلناك عليهم حفيظاً، وما أنت عليهم بوكيل).. إلى آخره.

بل لقد ذهب القرآن إلى أبعد من مجرد تقرير حرية الإنسان في قبول الرأي المخالف

ورفضه، فمضى يحرر العقل البشرى من قيدٍ ثقيلٍ الوطأة خائق، ألا وهو تعلق الناس بالقيم والآراء البالية، والمعتقدات الموروثة عن الآباء، رغم مخالفتها للعقل، ومناقضتها لكل منطق. فقوم النبي (ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم من قبل)، غير أن عقائد الآباء ليست صائبة بالضرورة (أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون)، فإن كانت معتقداتهم فاسدة فلا ينبغي قبولها (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون). كذلك فإنه بمضى الأيام والعصور، وبمؤ المعارف وتراكمها، قد يدرك الأبناء من الحقائق ما لم يكن للسلف من آباء وأجداد به علم (يا أبت إنى قد جانى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى). وإن المرء بطبيعته عدو لما يجهل، فالغالب أن يتشبث الآباء بمعتقداتهم البالية (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه). ومن حق الأبناء أن يجادلوا السلف فيما ذهبوا إليه (إذ قال لآبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر). (إذ قال لآبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون. قالوا وجدنا آبائنا لها عابدين. قال لقد كنتم أنتم وأباؤكم فى ضلال مبين). كما أن من حق الجيل الجديد حينئذ، بل وواجبه، أن يجتهد وأن يترك نهج السلف (وإذ قال إبراهيم لآبيه وقومه إننى براء مما تعبدون). ذلك أن الحق أحق أن نخشاه من السلف (فادذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشدّ ذكراً). فإن ثبت لنا بالتروى والتفكير أن السلف قد جانب الصواب والحق، فعلينا أن نختار الصواب والحق (أو لو جئتمكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم). غير أن هناك من الناس من للتقاليد على عقله وقلبه سلطان مبین، ويأبى قبول أية بدعة مستحدثة، وأى رأى جديد، لمجرد أنهما لا يتفقان مع هذه التقاليد، ومع هوى نفوسهم (كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم، فريقاً كذبوا، وفريقاً يقتلون)، (ما هذا إلا سحر مفترى وما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين). وقد كان هذا هو موقف قوم النبی علیه الصلاة والسلام منه (قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا). كلما دعاهم إلى رأى جديد (قالوا أجدتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا؟)، وقالوا عنه إنه رجل حاقد على دينهم (ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم)، وقالوا له: (أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا؟)، (إننا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون). وهذا موقف لا يستسيغه عقل (أتجادلوننى فى أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم؟). فهم قوم يأبون تحكيم المنطق والفكر (لهم قلوب لا يفقهون بها؟) (قل هل يستوى الأعمى والبصير، أفلا تتفكرون؟). والتفكير هو واجبنا الأول (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون)، (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون). وليكن شعارنا دائماً (وقل رب زدنى علماً). فإن طلع علينا قوم برأى جديد ناقشناه معهم بالمنطق (قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا؟). أما الجدل عن غير علم ومنطق فمرفوض

(وإن كثيراً ليعضلون بأهوائهم بغير علم)، (ولئن اتبعت أهواءهم بعد ما جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا واق).

لقد كان جُلّ ما جاء به الإسلام مما ارتآه الجاهليون من «محدثات الأمور»، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم أعظم رافض لاتباع سُنّة من كان قبله. ويقينى أنه عليه السلام لم يكن كأولئك الثوريين المجدّدين الذين يروى التاريخ أنهم صارعوا قومهم وجاهدوا فى سبيل نصرة آرائهم، حتى إذا ما نجحوا وقُبِلت أفكارهم واستقرت، وأضحت جزءاً من كيان مجتمعهم، واعتبرهم الناس أبطالاً مصلحين، جزعوا وتنكروا لكل تجديد لاحق، حتى لو أن هذا التجديد كان فى اتجاه فكرهم نفسه، وهاجموا كل بدعة مستحدثة، حتى لو أن هذه البدعة لم يكن لها من غرض غير مواصلة فكر البطل المصلح مع ما يستجدّ من ظروف، وأنهموا دعاة التجديد بالمروق والخيانة، وأكثوا ضرورة الولاء لمبادئ الأباء والسلف الصالح، وهو ما فعله كل من لوثر وكالفن وستالين وعشرات غيرهم.

أكرر: كان عليه السلام أعظم رافض لاتباع سُنّة من كان قبله، وأحرص الناس على الاجتهاد من أجل الانتقال بالناس من عصر إلى عصر، ومن آفاق محدودة ضيقة إلى آفاق أوسع، وعلى زيادة قدرتهم على مجابهة التحديات.

فهل يُعقل بعد كل هذا أن نصدق أن يكون قد قال: «للتبعن سنن من كان قبلكم شبرا بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضبّ تبعتموهم»، أو «ألا وإياكم ومحدثات الأمور، فإن شر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار»؟ وهل يستساغ قبول القول بأنه حرّم على الأجيال التالية ما أحلّه لنفسه وما حكّننا القرآن الكريم على النهوض به والإقدام عليه من الاجتهاد، وتقليب النظر وإعمال الفكر، والاستفادة من تراكم المعارف واتساع نطاق الخبرات، من أجل زيادة القدرة على مجابهة تحديات ومواقف مما لم يُحِط أباًؤنا وأسلافنا بعلمه؟

وهو ما ينقلنا إلى الحديث عن الحق فى الاجتهاد.

الاجتهاد

حقّ هو أم واجب؟

الاجتهادُ لغةً بذلُ الوسع فى طلب المقصود. والمجتهد هو من يبذل وسعه ليحصل له

ظن، وهو فى هذا على نقيض المقلد الذى يعرفه السبكي فى «جمع الجوامع» بأنه «من يأخذ بمذهب غيره بون دليل». وقد ورد فى حديث نبوى أن للمجتهد أجراً إذا أخطأ، وأجرين إذا أصاب. فالاجتهاد إذن لا يقتضى عدم الوقوع فى الخطأ، وذلك بالنظر إلى أن نتيجته هى دائماً «ظن».

وقد ظل المسلمون قرابة قرنين ونصف قرن بعد الهجرة، لا ينكرون على الإنسان حقه فى إعمال فكره فى المسائل الشرعية، للتوصل إلى حلول خاصة به: قد أجاز أبو حنيفة اعتماد المسلم على رأى الشخصى وإعمال الفكر والاستحسان، بل وأكد الإمام مالك حق المسلمين فى استبعاد بعض الأحكام التى استنتها الرسول متى نشأت اعتبارات فقهية تجبها، أو كان ثمة نص قرأنى يقضى بغيرها. وكان أساس هذه النظرة هو اعتقاد شعورى أو لا شعورى بأن القوانين والأنظمة ينبغى أن تواكب تقدم العقل البشرى، وكلما نما هذا العقل وأضحى أكثر استنارة نتيجة للاكتشافات والحقائق الجديدة، وجب تطوير الشرائع والأنظمة حتى تسائر الزمن. فإن لم نطورها وأصررنا على الإبقاء عليها كما كانت، وعلى أن تحكم مجتمعا القوانين التى حكمت مجتمع أسلافنا الأقدمين، كنا كالرجل يصرّ على ارتداء المعطف الذى كان له وهو صلبى.

غير أن اتجاهاً ظهر بعد ذلك فى أمتنا يذهب إلى تضيق معنى الاجتهاد، وقصر الحق فيه على كبار الفقهاء ممن يقررون الأحكام، وإلزام غيرهم بالآخذ بما توصل إليه هؤلاء. وفى بداية القرن الرابع (أى حوالى سنة ٩٠٠ ميلادية)، ساد الاعتقاد لدى فقهاء المذاهب الأربعة بأن مؤسسى هذه المذاهب، والبعض ممن عاصروهم، هم وحدهم الذين لهم أن يصلوا بفكرهم إلى حلول لما يعرض من مسائل، وأن كافة المسائل الرئيسية قد تمت مناقشتها جملة وتفصيلاً، وصيغت الحلول النهائية لها، فلا يحق أن يوصف أحد من وقتها وإلى أبد الأبدى بأنه أهل للاجتهاد، وعلى كل جهد أن ينحصر مستقبلاً فى نطاق الشرح والتطبيق لما ذهب إليه الأوائل. وبهذا قُفل باب الاجتهاد، ولم يسمح للمسلمين بغير التقليد، وشاع القول بأنه لا يصح للمؤمن الحق أن ينقاد لما يميله عقله عليه، وأنه ليس ثمة حاجة إلى العقل فى معرفة الحقيقة الدينية التى هى فى القرآن والسنة وأقوال السلف.

ومع ذلك فقد ظل هناك دائماً فى العالم الإسلامى أفراد يرون رأى «فضالى» الذى بسطه فى كتاب «كفاية العوام» فى أنه ليس بوسع الإنسان أن يصل بالتقليد إلى إيمان يُنجيهِ، وينكرون الجمود الناجم عن قفل باب الاجتهاد، ويصرّون على حقهم فى الرجوع إليه. كان من

بين هؤلاء ابن تيمية، وابن رشد، ثم السيوطي الذي ذهب إلى أنه من الواجب ألا يخلو زمن من مجتهد واحد على الأقل. غير أن أطرفهم رأياً وأعمقهم نظرة في اعتقادي هو مسكويه، الذي أجاب في كتاب «الهوامل والشوامل» على سؤال لأبي حيان التوحيدي عن حق الإنسان المسلم في الاجتهاد، وسبب اختلاف الفقهاء فيما بينهم حول ما هو حرام وما هو حلال، بقوله:

«... أما ما سَوَّغَ للفقهاء أن يقولوا في شيء واحد إنه حلال وحرام، فلأن ذلك الشيء تُرك واجتهاد الناس فيه. فبعض الأحكام يتغير بحسب الزمان، وبحسب العادة، وعلى قدر مصالح الناس، لأن الأحكام موضوعة على العدل الوضعي، وربما كانت المصلحة اليوم في شيء، وغداً في شيء آخر، وكانت لزيد مصلحة، ولعمرو مفسدة، والاجتهاد الذي يجري مجرى التعبد أو لعموم المصلحة، في النظر والاجتهاد نفسه، لا في الأمر المطلوب، ليس يضر فيه الخطأ بعد أن يقع فيه الاجتهاد موقعه. مثال ذلك: أن المراد من ضرب الكرة بالصولجان إنما هو الرياضة بالحركة، فليس يضر أن يخطيء الكرة، ولا ينفع أن يصيبها، وإن كان الحكم قد أمر بالضرب والإصابة، لأن غرضه كان في ذلك الأمر نفس الحركة والرياضة. وكذلك إن دقن حكيم في بريةً دفيناً وقال للناس: اطلبوه، فمن وجده فله كذا. وكان غرضه في ذلك أن يجتهد الناس فيعرف مقادير اجتهادهم، ليكون ذلك الطلب عائداً لهم بمنفعة أخرى غير وجود الدفين، فإنه لا يضر أيضاً في ذلك أن يخطيء الدفين، وإنما الفائدة كانت في السعي والطلب، وقد حصلت للطائفتين جميعاً، أعنى الذين وجدوه والذين لم يجدوه.

«وأصناف الاجتهادات والنظر الذي يجري هذا المجرى كثيرة. فمن ذلك كثير من مسائل العدد والهندسة وسائر الموضوعات، ليس غرض الحكماء فيها وجود الغرض الأقصى من استخراج ثمرتها، وإنما مرادهم أن ترتاض النفس بالنظر، وتتعود الصبر على الروية والفكر إذا جرى على منهاج صحيح، ولتصير النفس ذات ملكة للفكر الطويل، فإذا حصلت هذه الفائدة فقد وجد الغرض الأقصى من النظر.

«وليس ينبغي أن يتعجب الإنسان من الشيء الواحد أن يكون حلالاً بحسب نظر الشافعي، وحراماً بحسب نظر مالك وأبي حنيفة. فإن الحلال والحرام في الأحكام ليس يجري مجرى الضدين أو المتناقضين، فينبغي للعاقل إذا نظر في شيء من أحكام الشرع أن يجتهد في النظر، ثم يعمل بحسب اجتهاده ذلك، ولغيره أن يجتهد ويعمل بما يؤديه إليه اجتهاده وإن كان مخالفاً للأول، واثقاً بأن اجتهاده هو المطلوب منه، ولا ضرر في الخلاف».

وقريب من هذا الرأي الرائع لمسكويه ما كتبه الفيلسوف البريطاني المعاصر أ.ج. آير

:A.J.Ayer

«دأب أحد مشاهير علماء الرياضة على تذكير طلبته، بأنهم حين يفكرون في معضلة رياضية صعبة مستعصية على الحل، يصيبون من خلال تفكيرهم فيها كل ما هو ذو قيمة حقيقية. وهو قول يصدق على الفلسفة أكثر مما يصدق حتى على الرياضة. فالمعضلات الكبرى في الفلسفة لا تزال بعد أكثر من ألفى عام مستعصية على الحل، ولا شك في أنها ستظل يوماً كذلك. غير أن البنية الأساسية للحضارة الغربية، وكافة المناهج الرئيسية للفكر عندنا، لست إلا شاراً جانبية إيجابية لهذا الفشل»
ولنضرب لذلك مثلاً:

ينص قانون أوم الذي كشف العلاقة بين شدة التيار الكهربائي وشدة المقاومة له، على أن «فرق الجهد الكهربى = شدة التيار \times المقاومة». غير أن قيمة هذا القانون الحقيقية (على ضوء نظرية مسكويه وفكرة أير) ليست في نتيجته بقدر ما هي فيما جال بخاطر أوم من تساؤلات قبل توصله إلى قانونه، والمفاهيم الكامنة وراء تساؤلاته، كمفهومه عن شدة التيار وقوة البطارية المولدة له باعتبارهما مقادير تقاس وتُعقد المقارنات وتُكتشف العلاقة بينهما، ونظيره إلى كل هذا على أنه من الأمور الواجب أخذها في الاعتبار عند دراسة التيار الكهربائي، ثم طرق البحث والتجربة وقياس المقادير، وتحديد الأجهزة اللازمة للتجربة ووسائل استخدامها.

فالطالب المقبل على دراسة علم الكهرباء، غير مطالب بتصديق قانون أوم، لكنه مطالب بفهم الأسئلة، وباستخدام الأجهزة بين يديه في التحقق من صحة القانون. وهم يعلمونه كيفية طرح الأسئلة واستخدام الأجهزة، ولا يفرضون عليه قبول نظريات الأقدمين دون جدل أو نقاش أو تمحيص. يعلمونه كيف يتحقق من صدق ما يقال، ولا يوهمونه بأنه متى قرأ كتب الأسلاف قد أضى من العلماء العارفين. ولو أن الناس جميعاً نسيت قانون أوم وبقيت لهم تساؤلاته ومنهاجه في البحث عن الإجابات، لأمكنهم إعادة اكتشاف القانون في بحر ساعة أو أقل. أما إن هم حفظوا القانون دون إدراك لقيمة التساؤلات ومنهاج البحث، فسيكون القانون في أيديهم. كالساعة في يد همجى لا علم له بطريقة تشغيلها.

فالذي يعنيه مسكويه إذن هو أنه كما أن الله تعالى لم يطالب قوم النبی بتصديقه دون مناقشة، وقبول رسالته دون جدال، وإنما طالبهم بالنظر والتفكر والتدبر حتى يتحققوا من صدق ما يقول ويذهب إليه، كذلك فإن المقصود والمرغوب فيه لا معرفة ما إذا كان هذا الأمر أو ذاك حراماً أم حلالاً، ولا الإلزام برأى الشافعى أو رأى أبى حنيفة فيه، ولا تقبل الأحكام لمجرد

أن علماء السلف قالوا بها، وإنما المقصود هو الاجتهاد ذاته، وإعمال الفكر، وطرح الأسئلة بطريقة سليمة، واستيعاب المفاهيم التي تمكننا من طرح المزيد من الأسئلة، ومناهجية البحث عن إجاباتها، وإنما تكمن أهمية كل هذه الأمور في إمكان اختبار مدى مساهمتها لمصالح الناس المتغيرة بحسب الزمان، وحسب العادة، والتحقق من فاعلية التغيير المطلوب في الأحكام على ضوء اختلاف الأحوال والظروف. وبالتالي يصبح من حق كل إنسان مسلم ذى عقل أن يُقدم على التفكير والاختبار، وتوسيع نطاق التجارب، وتطهيرها من النتائج الباطلة، والأفكار البالية، لا أن يستخدم النتائج التي توصل إليها الأوائل في كبت شكوكه، ومنع الآخرين من التساؤل والتأمل والاجتهاد.

حق الإنسان في اعتناق الرأى الذى يراه

وهنا يثور التساؤل عما إذا كان من حق كل إنسان أن يعتنق ما يعنُّ له من آراء وأفكار، مهما كانت هذه الآراء باطلة، والأفكار سقيمة، فالكثيرون (ومن بينهم واضعو الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة)، يذهبون إلى تأكيد حقه هذا ما لم تؤدِ أراؤه إلى إقدامه على تصرف غير مرغوب فيه، أو منع غيره من التفكير كما يحلوه.

بيد أنه مهما بدا هذا القول سديداً في مجال التشريع وسن الدساتير وإعلانات حقوق الإنسان، فما من شك عندي في أن الآيات القرآنية التي ذكرناها في بداية هذا الحديث قد ذهبت إلى أبعد مما نصت عليه شرائع البشر، ودساتير الأمم، وإعلانات حقوق الإنسان، إذ قضت أو ألمحت إلى أن الإنسان لا يملك حق اعتقاد رأى (ككذب قوم النبی له وإصرارهم على عبادة الأوثان)، أو حق اتباع سنة الآباء الأولين، ما لم يكن قد درس الرأى وقلَّب فيه نظره واجتهد، حتى توصل إليه بالصبر والاختبار والبحث الجاد. فهو حق يتصل اتصالاً وثيقاً بالأساس الذى بنى المرء عليه اعتقاده، وبالسبل التى سلكها من أجل الوصول إليه، لا بالرأى نفسه، ولا بما إذا كان قد ثبتت صحته أم فساد. وهنا يكون التساؤل عن وزن الأدلة التى جمعها، وصبر على تقصِّيها، ثم استند إليها فى تكوينه لرأيه. فثمة فارق ضخم بين من حَيَّرَهُ سؤال، فانبرى يفتش عن إجابة عليه، دون تعصب أو هوى أو ميل مسبق، يزن الآراء المختلفة والمتناقضة فيه ويختبرها، وبين من قاده هواه إلى هذا الرأى أو ذاك، مهما كانت الحجج التى

تنتقص من قدره، ولجرد أنه راغب في اعتناقه لسبب أو آخر؛ يابى أن يقرأ إلا ما يزيده ثقة في رأيه، ويكره الاستماع إلى من يخالفه فيه. فمثل هذا الشخص الأخير في زعمنا، وعلى ضوء فهمنا للقرآن، لا حق له في أن يكون له رأى.

ذلك أن معتقدات الفرد منا ليست مسئوليته وحده، ولا بالتى تخصه هو وحده، وإنما تخص المجتمع بأسره. فكل جيل إنما يرث حصيلة أفكار الجيل الذى سبقه، تكون أمانة لديه حتى يورثها الجيل الذى يليه بعد إنمائها وتطهيرها. وهى مسئولية جسيمة بالنظر إلى إسهامها في تكييف مستقبل أبنائنا. وإذا كان لكل رأى شخصى، مهما بدا تافهاً، تأثير في مصير الآخرين، يصبح من واجب معتنقه أن يتأكد من أنه جاء نتيجة بحث حر غير هيأب، لا نتيجة تكاسل عن تمحيص، أو رغبة في السلوان وإغراق الهموم، وميل إلى خلق السراب وخداع النفس، ويصبح من واجبه أن يحذر من التعجل في بلورة معتقداته حذره من الطاعون الذى يمكن أن يصيب جسماً فرداً ثم إذا بالعنوى تنتقل منه إلى الآلاف غيره.

(أفلا تتفكرون؟)

لقد حذرنا القرآن الكريم، كما سبق القول، من مغبة التعلق بالأراء الموروثة عن الآباء رغم مخالفتها للعقل والمنطق. فاعتناق الشخص للرأى لمجرد أنهم لقنوه إياه في طفولته، أو أقنعه به في صباه، وميله بعد ذلك إلى كبث كل شك بصده يقفز إلى خاطره، والثورة على كل سؤال من شأنه أن يزعزع من ثقته فيه، يجعلان من حياته خطيئة في حق مجتمعه. أو كما قال ميلتون:

«إذا صدق المرء رأياً لمجرد أن القس في كنيسة قد ذكره، أو أن المجتمع الذى يعيش فيه قد اعتنقه، دون أن يعرف لهذا الرأى أسباباً ومبررات، فإنه حتى لو تبين أن هذا الرأى هو الصواب بعينه، يصبح هذا الصواب نفسه كفراً!»

ويقول كوليريدج:

«من بدأ بتفضيل المسيحية على الحق، لا مفر من أنه سيفضل بعد ذلك كنيسة أو طائفته ومذهبه على المسيحية، ثم ينتهى بتفضيل نفسه على كل ما عداها».

ففى كل مرة يتبنى الإنسان رأياً دون الاطمئنان إلى أسسه وأدلته، تضعف قدرته على ضبط النفس، وعلى وزن الأدلة وتمحيصها تمحيصاً عادلاً موضوعياً. قد أسرق من آخر مبلغاً من المال فلا يضار هو من سرقة بسبب ثقاه المبلغ. غير أنه من المؤكد أنى ألحق الضرر

بمجتمعى إذ جعلت من نفسى لصاً. فانتقال الملكية بالسرقة لا يضير المجتمع بقدر ما يضره أن يتحول - كما تحول مجتمعا فى زمننا هذا - إلى وكر لصوص، فتنتفى عنه هبة المجتمع. كذلك فإننى متى اعتقدت رأياً دون استناد إلى أدلة شافية، وإبراهيم كافية، قد لا ينجم عنى ضرر كبير من جرأ هذا الاعتقاد ذاته الذى قد يكون سليماً. غير أنى بكل تأكيد ألحق الضرر بمجتمعى إذ جعلت من نفسى امرأ سانجاً سريع التصديق، وأضعفت فيها القدرة على التساؤل والاختبار والتحريض، وأهدرت بذلك آدميتى.

أذكر أنى سألت يوماً أستاذ علوم بالجامعة الأمريكية بالقاهرة عما إذا كان يمكن لطالب يعتقد أن الأرض مسطحة غير كروية، أو أن الشمس هى التى تدور حولها، أو أن عقل المرأة دون عقل الرجل، أن يكون طالباً نجيباً فى العلوم أو الرياضيات أو غيرها. فأجاب الأستاذ بقوله إنه احتمال مستبعد، فالرأى الفاسد الواحد يجر وراءه حشداً من الآراء الفاسدة المماثلة، وذلك لسببين:

الأول، أن اعتناق الرأى الخاطيء الأول دون تمحيص فيه دلالة على فساد موقفه من المنهجية العلمية.

والثانى، أن عقائد الشخص عادة ما تكون فى نظام وتلاحم عضوى، يصعب فيها فصل الرأى عن غيره، ومهما بدا رأى معين تافهاً هامشياً ولا أهمية له، فإنه يهيم على العقل لتقبل المزيد من شاكلته، ويضعف من قدرته على استقباله للرأى المخالف، أو للرأى الذى يستند إلى منهجية مخالفة، وبالتالي فهو يسهم فى تكييف طبيعة العقل كله، ويطبع شخصية معتقده بطابعه.

معنى قفل باب الاجتهاد

إن قفل باب الاجتهاد إنما يعنى أن تمحيص الأدلة المتعلقة برأى معين، لا يجوز أن يتم إلا مرة واحدة، وتظل النتيجة بعد ذلك قائمة إلى أبد الأبدين. وهو يعنى بالتالى قمع حرية الشك فى هذا الرأى أو ذلك، وهى حرية أساسية بالنسبة لتقدم العلوم والفكر والحضارة. ويمكن بسهولة أن يُرد على القائلين بقفل باب الاجتهاد بأنه لو كان تمحيص الأدلة السابق الذى أخذتم به تم على أكمل وجه كما تدعون، بحيث لم تعد ثمة جدوى للعودة إليه، لكان

بالإمكان أن نجابه بكل أمانة وثقة كل ما يثور من شكوك حول صحة الرأى، وأن نقنع الناس دون صعوبة. أما صعوبة أو استحالة الردّ على التساؤلات والشكوك والآراء المخالفة والاجتهادات الجديدة، فلا تعنى غير أن تمحيص الأسلاف للرأى قبل إغلاقكم باب الاجتهاد لم يكن كافياً، ولا كانت أدلتهم قاطعة، وبالتالي فليس ثمة مبرر لقفل باب الاجتهاد.

قد يعترض البعض بأن انشغاله، وضيق ما فى جعبته من الوقت، يحولان دون العناية بتمحيص الآراء ومقارنة الحجج قبل تبنيها إياها. غير أننا نردّ عليه بأنه إن كان وقته لا يسمح بتمحيص الرأى، فلا ينبغى أن يسمح وقته باعتناق الرأى.

وإن دفع بأن الأسلاف كانوا رجالاً أفاضل عظاماً، ومن ثم وجب الاقتداء بهم فى أفعالهم ومعتقداتهم، أجبتنا بأن فضلهم قد لا ننكره، غير أن الفضل وحده لا يصلح دليلاً على سلامة الرأى، ما لم تتضافر الأدلة الشافية على صحته، وأن النظرة إلى آرائهم باعتبارها مجموعة من الأحكام الأزلية ينبغى علينا أن نتقبلها دون نقاش، ودون اقتناع بالأسباب، ودون اجتهاد من جانبنا، لا تسيء إلى أنفسنا فحسب، وإنما تخلّ أيضاً من الواجب الذى فرضه القرآن علينا، ومن واجب مساهمتنا فى البناء الذى سنورثه أبنائنا. وبالتالي فإن كل من اعتنق الآراء لمجرد أن غيره قد قالها وأخذ بها، منكرأ على عقله الحق فى أن يفكر فيها بنفسه، تضحى شهادته مردودة، وآراؤه مرفوضة.

إهداء الحق

ذلكم مفهومى عن حق المسلم فى حرية الرأى والاجتهاد كما أُلح إليه القرآن والسنة. فماذا صنع المسلمون بهذا الحق بعد ذلك؟

نعلم أن الإسلام فى صدره لم يعرف كنيسة أو نظام رجال الدين، ولا كانت فى دولته وقتها طبقة منهم متميزة عن غيرها. فالأمور الدينية والدنيوية واحدة لا تمايز بينها. وإمام الجماعة فى الصلاة هو قائدها فى الحرب. ولا اختلاف فى زىّ يحكمه اختلاف المنصب. والقرآن كتاب مفتوح، بلسان عربى مبين، بوسع الكافة أن تقرأ فيه. ولا كان ثمة من ادعى أن التفسير حكراً عليه. وكان النظر فى علوم الدين مرحباً به، مشجعاً عليه. كما كان الاجتهاد فى أموره متاحاً لكل من قدر عليه. كذلك كان الإسلام أكثر الأديان اتفاقاً مع المنطق والعقل

وعلبائع البشر، وكانت تعاليمه أقل التعاليم حاجة إلى الدخول فى صراع مع النتائج التى تتوصل إليها العلوم. وبالتالي فإن السلطة فى دولته لم تسع إلى الحد من حرية العلماء فى أبحاثهم، ولا كانت تنكّل بهم بدعوى خطر ثمار علمهم على العقيدة، أضف إلى ذلك أن الإسلام لم يقض بإخضاع المؤسسات الدينية لسلطة دينية لا وجود لها أصلاً فيه، وأن بساطة العقيدة الإسلامية وخلوها من كل مظاهر التعقيد نفياً الحاجة إلى كهنوت يتخصص فى الفوص فى أعماقها للخروج على الناس بعد ذلك بما يكتشفونه من حقائق.

كذا كان الإسلام حين كان الإسلام إسلاماً. غير أن الذى حدث مع قيام الدولة العباسية أن ظهرت تفرقة واضحة بين الفقهاء وعلماء الدين وبين غيرهم حين أضحى التعليم الدينى أكثر تنظيماً، وبات فيه من المناهج ما يسمح بالتخصص، وما يؤذن بيزوغ طبقة شبيهة إلى حد كبير بكهنوت المسيحية؛ طبقة تحتكر مناصب معينة، ذات رزق خاص تُعرف به؛ تصدر الفتاوى وتوجد الرخص لمن شاء من نوى السلطة أو الثروة التخلص من الالتزام بحكم من أحكام الدين، تحاكم وتجلد أو تعزل من قال قولة تخالف عقيدة السلطان وفقهاء السلطان (كما فى محنة خلق القرآن)؛ تقتل السهروردي وتسجن ابن تيمية بتهمة الزندقة، وتصلب الحلاج المتصوف بتهمة الكفر، ترى من حقها أن تقفل باب الاجتهاد فلا يجوز لأحد بعد ذلك أن يُعمل فكره فى مسألة قضى الأقدمون بحكم فيها؛ تُفرق الكتب أو تُحرقها أو تحرقها (فعلها فى كتب ابن رشد)، وتستعيز بالله وتبرأ إليه من العلوم. فإن كانت لم تقتل أو تحرق أحداً من العلماء نتيجة لنظرية طلع بها، فلأن العلوم لم تكن قد بلغت فى العصور الوسطى مبلغاً يمكن للفقهاء الاحتجاج عنده بتناقض اكتشافاتها مع المعارف الواردة بالكتب المقدسة.

لم يعد بالإمكان منذ ذلك الحين أن تتكرر قصة المرأة من العامة التى قامت فى المسجد تعارض رأيا لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فيقر لها عمر بالصواب وعلى نفسه بالخطأ، ولا بات بالوسع أن نعثر فى مجتمعنا على تاجر خز يشغل نفسه بالفقه كما فعل أبو حنيفة، أو بقال يتخصص كما تخصص أبو بكر الباقلانى فى درس إعجاز القرآن. فمجال مثل هذه الدراسات قد ترك بأسره للفقهاء؛ طبقة متميزة عن غيرها من الطبقات فى السلوك، وفى الخلفية الثقافية، وفى درجة الإلمام بمظاهر حضارة العصر، بل وحتى فى الرزق واللغة. فإن ألح على رجل عادى سؤال يتعلق بأمر من أمور دينه، لم ينظر فى كتب الأقدمين التى بات لا يطبق فهمها ويدعوها بالكتب الصغرى، وإنما يلجأ إلى رجل الدين يلتمس عنده الرأى أو الفتوى، ويقبل هذا الرأى أو هذه الفتوى دون جدال لعجزه عن الجدال.

وقد تقبّل رجال الدين المسلمون هذا الوضع بالرضا. وإذا اضطرتهم الحكومات والظروف لأن يقبلوا أيضاً عدم التدخل فى مختلف شؤون الحياة المدنية، حاولوا الإصرار على عدم تدخل المدنيين فى الشؤون الدينية. فإن أرادت الحكومة مثلاً أن تُدرّس لطلبة مدرسة القضاء الشرعى علوم عصرية إلى جانب العلوم الدينية، احتجّوا على تدريس الطبيعة لأنه:

ومن يقل بالطبع أو بالعلّة فذاك كفر عند أهل الملة!

وإن طلع طه حسين بكتابه «فى الشعر الجاهلى»، تقدّموا ببلاغ إلى النائب العام يطالبون «بإبادة الكتاب، وإحالة المؤلف إلى النيابة، وإلغاء وظيفته»، لأنه تعرّض لقصة إبراهيم وإسماعيل فى القرآن، وللقراءات السبع، ولنسب النبى. وإن كتب الدكتور هيكل سيرة نبوية، أو كتب توفيق الحكيم مسرحية عن الرسول، هاجوا وعجبوا كيف يجرؤ رجال من غيرهم على التصدّى لمثل هذه الموضوعات التى خالوها حكراً عليهم.

فإن كانت الظروف لم تتح لهم فى ذلك الوقت فرصة تحقيق مرادهم، فقد مكّنتهم فى الحقبة الأخيرة من منع عرض أفلام كفيلم «الرسالة»، أو تمثيل مسرحيات كمسرحيتى الشرقاوى عن الحسين، وإرهاب الحكيم إذ شرع يكتب عن مناجاته لربه ثم أحجم، ثم إذا بهم الآن يسعون إلى تجريم طبع الكتب الدينية لئلا يصريح منهم، وفرض عقوبتى الحبس أو الغرامة مع المصادرة فى أحوال المخالفة، تماماً كما كانت تفعل الكنيسة فى أوروبا فى العصور الخالية.

لقد تبلور الاتجاه العلمانى فى الغرب كردّ فعل لتعنّت الكنيسة فى رفضها أن يكون لغير رجالها شأن فى بحث مسائل العقيدة، مما اضطّر المدنيين إلى التحول بطاقتهم إلى مجالات رفضوا بدورهم أن يكون للكنيسة دخل فيها. وقد كان المفروض ألا تتورّ فى العالم الإسلامى هذه المشكلة لأسباب أهمها أن الإسلام لا يعرف كنيسة أو رجل دين، ويشجع الكافة على النظر فى علومه ولاشتغال بها. غير أن الظروف التاريخية شاعت أن تقوم طبقة منهم، وأن يدعى أفراد هذه الطبقة لأنفسهم حقوقاً مماثلة فى أمور كثيرة لحقوق رجال الكنائس المسيحية، وأن تنطوى تصرفاتهم على نفس التعنّت وضيق الألق والتحكم وانتهاك حقوق الإنسان.

وقد شهد القرن العشرون فى العالم الإسلامى بزوغ اتجاه محمود من جانب المثقفين من غير رجال الدين إلى النظر فى علوم الإسلام، والكتابة فيها، وتأكيد حقّهم فى الاجتهاد. وكان المفروض والمنطقى أن يحظى هذا الاتجاه بمباركة الفقهاء وترحيبهم وتشجيعهم. غير أن

الذى حدث كان خلاف ذلك، وكان على غرار موقف اليسوعيين الذين أنكروا أن تكون مسائل العقيدة من شأن الهواة غير المتخصصين، وأصرّوا على ضرورة إذعان الرجل العادى للحقائق التى يدلى بها رجال الكنيسة. فكان أن بدأ يظهر فى العالم الإسلامى نوع من الإرهاب للمتقنين والكتّاب من غير رجال الدين، من شأن امتداد نطاقه، وعجز المثقفين عن استئصال شأفته، أن يؤدى إلى وأد الاتجاه الصحى الذى كان على وشك أن يفرض نفسه، وإلى شيوع علمانية مناهضة للدين ورجاله، وإفساح الطريق فى مجال الدين للمزيد فالمزيد من التحجّر والجمود والرجعية.

قد شهدنا فى العشرينيات ما صنع هؤلاء بكتاب الشيخ على عبد الرازق «الإسلام وأصول الحكم»، وهو أحد الكتب النادرة التى أفلحت فى أن تهزّ الحياة الفكرية فى العالم الإسلامى خلال النصف الأول من القرن العشرين. وقد كان فى صدره وصدر كتاب «فى الشعر الجاهلى» بعده بعام واحد، دلالة على خصب الفكر المصرى وحيويته فى تلك الحقبة، وعلى ما كان يمكن أن تكون عليه ثمار هذه النهضة وهذا الاتجاه العلمى الخالص لو كان قدّر لهما أن يزدهرا. غير أن الرجعية وأنصار القديم اتخذوا من هذين الكتابين موقفاً نجح فى إرهاب صاحبيهما، فأحجم على عبد الرازق عن إعادة طبع كتابه بعد محاكمة الأزهر له، واتهامه بالزندقة، ومنعه من التدريس، فى حين اضطر طه حسين إلى حذف فصول من الطبقات التالية لكتابه، وتغيير عنوانه. فإن كان طه حسين قد زعم فيما بعد أن الكتابين «قد نجحا فى إرساء دعائم الفكر الحر فى الإسلام بصورة حاسمة»، فإن الواقع كان مخالفاً لهذا الزعم من جانبه، إذ ترتّب على الإرهاب الذى تعرّض الرجلان له، إرهاب غيرهما، فلم يُقدم أحد بعدهما على تجربة مماثلة، ونشر بحوث تتمتع بما تمتّع به بحثاهما من حرية. وهو أمر كفيل وحده بأن ينبّهنا إلى مدى الخسارة وقتل المواهب اللذين تحملهما ولا يزال يتحملهما الفكر الإسلامى بسبب إرهاب أناس لا ينتجون ولا يسرّهم أن ينتج الناس؛ لا يفكرون ولا يطبقون أن يروا غيرهم يفكرون؛ قد أراحهم قفل باب الاجتهاد من مهمة إرهابك الذهن، فإن أرهق غيرهم ذهنه أرهقوه وكروهه وحاربوه وأسكتوه. فهم - على غيابهم - يتمتعون بحاسة شمّ خارقة، وبذكاء نفّاذ يدانى العبقرية فى مجال واحد لا مجال غيره: مجال التنبّه إلى كل نبوغ يمثل إدانة دامغة لخمّل ذكرهم، ونصب الكمين لصاحب كل نشاط هو بمثابة إصبع اتهام تشير إلى تقصيرهم. وأى وسيلة أنجح فى سبيل الإسكات والقمع لدى شعب أمى من الاتهام بالكفر والمروق من الدين؟ وأى امرئ أسوأ حالاً من عاقل يجرى عليه حكم جاهل؟

لقد زعم هؤلاء أن الإلهام فى أمر الدين قد انقطع من عشرة قرون، وأنه انقطع إلى

الأبد. وهو زعم كزعمك أن الله عز وجل قد اعتزل العمل من ألف عام، وأن صوته لم يعد يُسمع منذ ذلك الحين. وفي زعمنا أن أولئك الذين لا يؤمنون بأن الإلهام هو بالضرورة مستمر من أجل التصدي للاحتياجات المتجددة للبشر، لا يمكن أن يكونوا مؤمنين بالإلهام والوحى أصلاً. وهو عندنا كفر لا كفر بعده.

ثم كان أن ابتلى مجتمعنا في السنوات الأخيرة إلى جانب ابتلائه بهؤلاء، بقوم جدد من الدجالين المشعوذين، تمكنوا من إقناع الآلاف والملايين عندنا بلوهمهم وخرافاتهم، فلودعواهم ثقتهم الكاملة، وتركوهم يفكرون نيابة عنهم حتى يُعفوا من مهمة التفكير الشاقة، وهبوا أنفسهم لهم حتى ينتهكوا أعراضهم الفكرية، هاتفين بهم: «إيماننا بكم أقوى من إيماننا بشهادة أعيننا!» وكلما تهادى هؤلاء الدجالون في اعتدائهم على أعراضهم، عظم استعداد الغوغاء لإعطائهم المزيد. فالحرية التي يزعمون أنها أغلى ثمرة، ويتشدقون بأنها أعظم حق من حقوق الإنسان، قد طرحوها تحت أقدام مشعوذين يقبضون على نواصيهم، مقبلين الأيدي التي تمسك بخناقهم.

هؤلاء الدجالون، دون استثناء، ما شهدوا هذا السلطان الذي بات في أيديهم، حتى سعوا إلى توسيع نطاقه، فبدلاً من أن يهنتوا أنفسهم على تمكنهم من عراطف العامة، باتوا لا يرضون إلا بأن تدعن لهم الكافة، لا الغالبية فحسب، ولن يهدأ خاطرهم حتى تخضع القلة الحرة المستنيرة لهم ويستعبدها. فإذا الرأى المخالف وقد كفروه، والفكر الحر وقد جرّموه، والالتزام بالمنطق وحده وقد حرّموه، وإذا الأمر لا يتعدى وحشية صرفة، وعطشا لا يرتوى إلى المزيد فالمزيد فالمزيد من السلطة والجاه.

يوسع أولئك وهؤلاء إخافة الأقلية المستنيرة بإظهارهم قدرتهم على استخدام الإرهاب، واستعدادهم لتكفير المخالفين. وعلى من يتصدى من الصفوة لهم أن يعلم أنه إما أن يكسرهم أو يكسروه؛ إما أن يتصدى لهم بكليته أو أن يذعن لهم بكليته. أما أنصاف الطول هنا فلا طائل وراءها. فإن زعم البعض أنه ما من فرص كبيرة في النجاح أمام مفكر مستنير لا يملك من القوة غير قوة إيمانه بمعتقد، يقف وحده في مواجهة منظمة قوية قد فرضت إرهابها، لا تحاول الرد وإقناع العقول والمجادلة بالتى هي أحسن، وإنما تسعى إلى إخراس الألسن وقمع حرية الفكر، وحق المسلم في الاجتهاد، أجبتهم بأن ثمة في كتب التاريخ ما يعزى هذا الرجل ويشد من أزره؛ وهو أنه ما من معركة انتصر فيها رجال الدين والدجالون في مراحلها الأولى، إلا خسروها في مرحلتها الأخيرة.

وإن ذكرنا البعض بأن هناك من الدول الفنية من يهملها لأسباب معينة أن تعم هذه

الرجعية فى مجال الدين، ومن الدول القوية من يفيدها أن تبقى على تخلفها أمة المسلمين، فتساند الأولى بأموالها هؤلاء المتحجرين، وتعصّد الثانية بنفوذها تيار الرجعيين الجامدين، وتفرض جميعها الضغوط على دور النشر العربية حتى تحجم عن النشر للمفكرين المستنيرين، وتقنع بوسائلها الخاصة رؤساء تحرير الصحف حتى توقف نشر كتاباتهم، ثم تشتري بعد ذلك أو قبل ذلك ذمم وأقلام شرذمة تلو شرذمة من المفكرين، بدعوتهم إلى الكتابة فى صحفها ومجلاتنا بأجور مغرية، حتى تتمشى كتاباتهم مع الخط الذى تحدده لهم، وحتى ينثروا آراءهم التقدمية وأدا، ويدافعوا عن رجعية ما كانوا فى الماضى يحلمون بأن يجيء اليوم الذى يدافعون فيه عنها، ويكفّروا من الكتاب المستنيرين الصامدين من لا يرضى مستخدمهم عنه؛ أقول: إن ذكرنا البعض بهذا كله، أجبناه بأن ثراء هذه الدول لن يطول أمدّه، ونفوذها غيرُ مُخلّدٍ عهدّه، وقد يكتب لأنصار الاستنارة فيها الانتصار، ولحماة الرجعية الاندحار، ولدعاة الجمود الانحسار والانكسار. والله المستعان.

العلاقات الطائفية فى مصر

أكتب هذه السطور بعد مرور شهرين على أحداث الفتنة الطائفية الدامية التى وقعت فى حى إمبابة بالقاهرة، والتى أحرقت خلالها كنيسة، ودُمّرت كنيسة، وحُطمت متاجر يملكها أقباط، ودُمّرت مساكن يسكنها أقباط، وقُتل عددٌ من الأقباط ما بين رجال ونساء... وقد قيل فى تفسير الأحداث إنها نشبت حين أبرز بعض أقباط إمبابة صورة العذراء والمسيح أثناء احتفال المسلمين بالمولد النبوى؛ وقيل بل هى نتيجة منافسة بين تاجرين من تجار الدجاج، أحدهما مسلم والآخر قبطى؛ وقيل إنها مؤامرةٌ حاكها الأصوليون الإسلاميون بقصد تعكير الجو الذى تجرى فيه دورة الألعاب الأولمبية الإفريقية، وإبراز ضعف النظام الحاكم فى مصر أمام أعين الضيوف الأفارقة... ثم صدر بيان وزارة الداخلية يُنكر كالعادة أن يكون الأمر فتنةً أو صداماً خطيراً بين الطائفتين، ويزعم أنه مجرد مناوشة عابرة بين بعض الأفراد غير المسؤولين، سرعان ما احتوتها قوات الأمن. وهو زعم سرعان ما رددته الصحف القومية المصرية.

هذا الموقف من وزارة الداخلية، ومن الحكومة المصرية بوجه عام، ومن صحافتها المسماة بالقومية، سواء من أحداث إمبابة الأخيرة، أو أحداث الفتنة التى تلتها فى أسوان، أو الأحداث العديدة التى سبقتها فى كل من أسيوط وسوهاج والمنيا وعين شمس والزواية الحمراء وغيرها من مدن الصعيد وأحياء القاهرة، ومن عشرات الصدامات بين المسلمين والأقباط التى عرفتها مصر خلال عهدي أنور السادات وحسنى مبارك، هو فى رأى موقف لا يختلف فى كثير أو قليل عن مسلك النعامة التى تدفن رأسها فى الرمال تعامياً عن الخطر الذى يلاحقها.. وهو موقف قد نفسره برغبة السلطة فى إخفاء حقيقة الوضع عن الدول الأجنبية حتى لا يتحدث فيها أحد أو صحيفة عن المظالم التى يتعرض القبط لها، فتسوء بذلك سمعة النظام الحاكم الذى سيُتهم حينئذ بالضعف والعجز عن قطع دابر الفتن الطائفية؛ أو برغبة السلطة فى إخفاء حقيقة الأحداث عن الرأى العام فى مصر حتى لا تسرى عدوى الفتنة من محافظة إلى محافظة، ومن مدينة إلى أخرى.

غير أن الذى أجده غريباً حقاً، وأمرأ لا مبرر له من المنطق ولا سند له من العلم، هو إقبال كافة المفكرين والكتّاب المصريين تقريباً - مسيحيين ومسلمين - على إلقاء تبعة الفتن الطائفية إما على المخططات الاستعمارية والصهيونية التى تستهدف ضرب الوحدة الوطنية فى مصر، أو على ما يُضمّره الأصوليون المسلمون من نوايا خبيثة تجاه الأقباط أو النظام، أو على الأمرين معاً.. وقد حدث مؤخراً أن نشرتُ مقالاً فى صحيفة «الأمالى» أعقب فيه على أحداث إمبابية، فانبرى الصحفي جلال كشك فى العدد التالى من الصحيفة يقول إن الهدف من مقالى «هو تأكيد أن الفتنة الطائفية ليست حادثاً عارضاً فى المجتمع المصرى، ولا هى من صنع يد ثالثة تريد إزالة مصر من طريق الإمبراطورية الإسرائيلية»، ثم يقول: «إن تاريخ مصر كلّ لم يعرف فتنة طائفية واحدة قبل الاحتلال الأوروبى»، وتحذرنى أن أذكر مثلاً واحداً لفتنة حدثت قبل عهد مصر بهذا الاستعمار الأوروبى... وقد رددت عليه فى مقال تالٍ بقولى إن هذا الزعم منه إن دلّ على شيء، فإنما يدلّ على أن الكاتب لم يقرأ كتاباً واحداً لأى من النويرى أو ابن أيبك الدوادارى أو ابن شاکر الكتّيبى أو المقرئى أو بدر الدين العينى أو ابن تغرى بردى أو الصيرفى أو السخاوى أو ابن إياس، والعشرات غيرهم، لأنى زعيم له بأن كتاباً واحداً لأى من هؤلاء المؤرخين الكبار لتاريخ مصر الإسلامية يحوى المئات من الأحاديث والروايات عن الفتن الطائفية فى مصر قبل أى احتلال أوروبى لها.. ثم نقلتُ له بالحرف الواحد حديث المقرئى (شيخ المؤرخين المصريين) فى كتابه «السلوك لمعرفة دول الملوك» عن أحداث وقعت فى مصر عام ١٣٢١ م (٧٢١ هـ)، أحرقت فيها ستون كنيسة، وأديرة عديدة، وسُيّت الراهبات، وأُحِلَّ فيها دمُ النصارى، وحُفرت الحفر لإحراق الرهبان والأقباط فيها، واضطر الكثير من النصارى إزاء سوء معاملتهم وإهانتهم وضربهم إلى الدخول فى دين الإسلام.. وقلت فى ختام مقالى إنه إن احتاج إلى عشرة أمثلة أخرى سَقَتها له، أو إلى مائة فأننا رهنُ إشارته، أو إلى ألف فما عليه إلا أن يأمرَ فأطيع.

وقد لامنى الكثيرون من القراء - مسيحيين ومسلمين - (ومنهم أصدقاء حميمون) على هذه الإشارة منى إلى الأحداث التاريخية التى لا تدعُ مجالاً للشك فى أن الفتن الطائفية ليست حادثاً عارضاً فى مجتمعنا، وفى أن بواعثها كانت ولا تزال جزءاً من تكوين الفرد العادى فى مصر، وإن كانت لا تظهر فى الغالب واضحةً للأعين، ولا تبدو عواقبها المقيتة إلا فى عهود الانحلال السياسى، وضعف السلطة الحاكمة، وغياب المشروع الحضارى، وفقدان الأمل فى الإصلاح الاقتصادى ورفع مستوى المعيشة.

غير أننى كنت أجيب على هذه الانتقادات قائلاً إنه كما أنه ليس للمريض أن يتوقع علاجاً حقيقياً من الطبيب متى ما أخفى عنه الحقائق الأساسية المتصلة بمرضه وبتاريخه وأعراضه، كذلك فإنه فى اعتقادى أنه لا أمل فى تصدينا لعلاج الفتن الطائفية، أو فى تحسين وضع، ولا بالوسع الشروع فى إزالة مظالم، ما دمنا سنظل إلى أبد الأبدى نكرّر ما اعتدنا أن نكرّره من تعابير مبتذلة بالية، لجرد طمأنة الخواطر، وإراحة الضمائر، وغرس الوهم فى الأذهان بأن الأمور هى على خير ما يرام، لولا حفنة من المتعصّبين، ولولا دسائس المستعمرين والصهيونيين، وأنه لولا هذه وتلك لخلت العلاقات الطائفية من كل شائبة... أقول: إنه لا أمل فى علاج وضع، ما دمنا نخلط الأمانى بالواقع، وننسب الخطبَ كلّ - كما هى عادة العرب فى كل ضائقة أو أزمة يمرون بها - إلى خطط تُحاك فى الخارج، أو إلى نوايا خبيثة لدى بعض العناصر الفاسدة فى الداخل، ثم نصرّح كما تصرّح وزارة الداخلية المصرية بأنه ليست ثمة مشكلة، وأن الأمر لا يتعدّى بعض الحوادث الفردية من الاغتيالات، وبعض الحوادث العارضة من المناوشات الدامية، وبعض الحوادث المؤسفة من إحراق نور العبادة، وبعض المزايدات الدينية التى يابها الضمير المصرى!

وإنما يكمن الحلُّ الحقيقى فى رأى فى مواجهة واضحة صريحة، لوضع قبيح صريح...

وأبدأ فاقول إن من بين العبارات التى يردّها الكثيرون - عن حسن نية لاشك - أن «تعاليم الأديان الكبرى تمجّد مبدأ التسامح»، أو أن «جميع الأديان لديها فى جوهرها فكرة الأخوة العالمية، ورسالة مشتركة من الرحمة والمحبة»، أو أن «المصدر الرئيسى للتسامح يوجد فى التعاليم الدينية التى تبشّر بعدم التمييز والإخاء والاحترام المتبادل بين البشر».... إلى آخر مثل هذه العبارات التى ساردها عليها الآن فى ثلاث نقاط:

النقطة الأولى: وهى ملاحظة فرعية تتعلق باستنكارى لاستمرار استخدامنا للكلمة Tolerance (أى التسامح والاحتمال) حتى يومنا هذا.. فهى كلمة إن جاز استخدامها فى القرن السابع عشر وقت كتابة جون لوك لرسالته فى التسامح لمقاومة ما ساد فى زمنه من اضطهاد دينى، فهى لا تعنى اليوم غير قلة الاكتراث بالفرقة بين الحقيقة الروحية والخطأ الروحى، ولا سند لها على الإطلاق من حبّ الآخرين واحترامهم.. هى كلمة توحى فى واقع الأمر بنوع من الاحتقار للدين ذاته. فإن قال لى امرؤ إنه «يحتملنى»، فالمؤكد أنه ليس صديقى. وإن قال إنه يتسامح مع رأيى، فالمؤكد أنه لا يحترم هذه الآراء.. وفى اعتقادى أن من الواجب فى زمننا هذا أن تتجاوز الاحتمال والتسامح إلى الاعتراف والمعاشية.

النقطة الثانية: تتعلق بقول البعض إن الاختلافات بين الأديان ظاهرية أكثر منها حقيقية، وأنها جميعاً متفقة في جوهر تعاليمها، وأنه بالإمكان التوفيق بينها وتوحيد أساسها كخطوة في سبيل تعزيز التسامح الدينى.. مثل هذا الموقف التوفيقى فى رأى يضع نفسه فوق الأديان كافة، ويتنحل صفة الإله وامتيازاته، ويحلّ الفلسفة محلّ الدين، وهو بالتالى موقف لا دينى. وعندى أن كل معاشة وكل حوار بين الأديان يفقدان مغزاهما ما لم يكونا دينيين. ولو صحّ هذا الرأى الذى طالما سمعناه ليس فقط من العوام ومحدوى الثقافة، بل ومن زعماء الطوائف الدينية فى مناسبات معينة، لصارت حصيلة الفكر البشرى أشدّ فقرًا وضحالة مما هى عليه اليوم. فلو كانت الأديان جميعاً على اتفاق فيما بينها لما كانت ثمة حاجة إلى أكثر من دين. وإنما هى رؤى متباينة يعكس كل منها مفهوماً مخالفاً عن الكون والحياة والسلوك البشرى.. وليس إله هذا الدين بإله ذاك. فما الإله فى مفهومى غير حصيلة مكونات هذه الرؤية المباشرة للرؤى الأخرى. (لكم دينكم ولى دين)... والاعتراف بهذه الحقيقة التى يدركها فى قرارة نفسه كلّ ذى دين يابه به، خطوة إيجابية فى سبيل التعايش الدينى والاحترام المتبادل بين أفراد الطوائف الدينية المختلفة، شريطة أن يستقرّ فى النفوس مبدأ أساسى: هو أن كلّ رؤية تحمل جانباً من الحقيقة لم تركّز عليه سائر الرؤى، وأن ثراء الروح البشرية والفكر الإنسانى هو فى الإطلاع على كلّ تلك الرؤى المتباينة، ومحاولة الفوص إلى أعماقها للاستفادة من الجديد الفريد الابداعى المتميز فيها، وأن معيار رقى الفرد وعظمته الروحية هو مدى فهمه وتوقيره لكافة ضروب الفكر التى أسهمت فى تشكيل البشرية.

النقطة الثالثة: وتتعلق بالرّعم بأن كافة الأديان أمرت بالتسامح واحترام الأديان الأخرى.. وهو قول لن ندعه يمرّ.. أىّ دين بالضبط أمر بالتسامح واحترام الأديان الأخرى؟ اليهودية التى أباحت السرقة من مال غير اليهود، والزنا بغير اليهود، واقتضاء الرّبا من غير اليهود؟ أم المسيحية بقول عيسى عليه السلام: «أَجْبِرْهُمْ عَلَى الدخول حتى يمتلئ بيتى» (إنجيل لوقا ١٤ : ٢٣)؟ أم الإسلام والقرآن يذكر صراحة (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يُقبل منه) آل عمران ٨٥؟

إنه لمن السهل، ومن المألوف، أن يسترشد البعض بعبارة أو آية أو حديث من هنا أو هناك لإثبات ما يؤيد حجّته فى أىّ موضوع شاء. غير أنه من حقنا أيضاً أن نسألهم: هل هذه العبارة أو الآية أو الحديث هو كل ما ورد فى الكتاب المقدس أو كتب الحديث بصدد الموضوع الذى تتحدّثون فيه؟ هل تعنى هذه العبارة أو الآية أو الحديث حقاً ما تعنون، أم أنكم تفترضون

على ما اخترتموه تأويلًا ومعاني لم يقصدها النص؟ وعلى سبيل المثال أذكر أن البعض يستشهد وهو في معرض التدليل على أن الإسلام قضى بالتسامح وحرية العقيدة بآية (لا إكراه في الدين)، ويتغافل عما أورده الطبري في تفسيره من أن الآية نزلت قبل أن يؤمر المسلمون بقتال أهل الكتاب، فهلا استشهد بآية (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون)؟ أو آية (فإن لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب)؟ أو آية (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله)؟

والخلاصة أن الخطوة الإيجابية الثانية في سبيل التعايش الديني تتمثل في إدراك الحقيقة التالية: وهي: أنه إن كان كل من الأديان يرى لنفسه الحق في أن يعلم وأن يسود على حساب الأديان الأخرى، فإن فكرة التعايش والاحترام المتبادل هي من إنجازات العقل البشري، ومن أعظم ثمار الحصيلة البشرية من الخبرة التاريخية الطويلة المرة - هي من خلق الإنسان لا من وحى الأديان..

الأديان بطبيعتها تتنافس فيما بينها على أرواح البشر، وهي بالضرورة غيرة متميزة، شأن مشاعر القبلية والوطنية.. ولا يكمن خطأ المتعصب في اعتقاده أن دينه هو أفضل الأديان، فهو أمر طبيعي ومشروع، ولو لم ير المرء لدينه الحق في الشمولية والعالية لما كان هذا دينه، إنه لا يلتمس لنفسه طريقاً، وإنما يلتمس لها الطريق. ولا يسعى وراء حقيقة وإنما يسعى وراء الحقيقة.. وإنما يكمن خطئه في عجزه المطلق عن إدراك ما يدور بين الله وروح المؤمن من أتباع الديانات الأخرى، وعن إدراك حقيقة أنه ليس ثمة دين خاطئ إن كان معتنقه يرويه كافياً لسد احتياجاتهم الروحية والحياة الفاضلة على هديه، وعن إدراك أن جهود المبشرين أشبه شيء بمحاولة الاستعماريين فرض ثقافتهم وحضارتهم وأسلوب عيشهم على مختلف أنحاء العالم مما لا يمكن أن ينجم عنه سوى فقر الفكر البشري.. كذلك يكمن خطأ المتعصب في عزله نفسه عن الجوانب الإيجابية في الأديان الأخرى، واتخاذهُ لمُعتنقه وجهة نظره مقياساً للحكم على معتقدات الآخرين. ومن هنا تأتي أهمية الحوار وضرورة التلاقى والتلاقح. فما تلاقى الأديان غير مظهر واجب آخر من المظاهر المتزايدة لتلاقى الحضارات والشعوب في عصرنا هذا. ولا يعني هذا مطالبة أتباع أي دين باطراح أية حقيقة جوهرية فيه. وإنما يعني تجاوزنا الاستماع في صبر، والجدال في أدب، إلى التفتح الذي يمكننا من الاستفادة والتعلم من الآخرين، بل وإلى تصحيح بعض مفاهيمنا عند الضرورة،

وإلى التفرقة بعناية أكبر بين الجوهرى وغير الجوهرى فى الدين، وبين الرمضى وغير الرمضى، ثم إعادة صياغة الجوهرى، وإعادة تفسير الرمضى.

على المسلمين مثلاً أن يبذلوا جهداً أكبر فى التعرف على تعاليم السيد المسيح وتفهمها، والّا يثبّطهم إيمانهم بتحريف التوراة والإنجيل عن دراستهما. وعلى المسيحيين أن ينظروا مثلاً فى إمكان إعادة صياغة عقيدة التثليث بهدف التركيز على وحدانية الله التى يقول بها الإسلام، وأن يشرعوا فى تقييم محمد الرسول تقييماً أكثر إيجابية يتطوى على الاحترام والتقدير والفهم، وهو ما لن يتعارض مع جوهر المسيحية. وعلى الجميع أن يبدوا استعداداً لتقبّل نتائج الفكر العلمى الحديث فى الدين، وتعديل مناهجهم الفكرية. وعلى هؤلاء وأولئك أن يدركوا أن إقدام المرء على تعميق فهمه لدين الآخرين يعنى تعميق فهمه لدينه هو. وأن المتدين الحق ليس من كان بوسعه تنفيد الأديان الأخرى، والسخرية من معتقدات أهلها كما يفعل بعض الدجالين فى برامجهم التليفزيونية فى مصر، وإنما المتدين الحق هو من كان بوسعه أن يميّز الحقائق الواردة فى الديانات الأخرى، ثم ينتقل بعدها إلى ما هو أبعد من ذلك.

* * *

أعود بعد هذا كله إلى الأوضاع الطائفية فى مصر، فأزعم أن ثمة خطراً حقيقياً يهدد الوحدة الوطنية فيها. فالتطرف الدينى الذى يهدّد بنسف الوحدة فى ازدياد، وكذا الإحساس لدى عدد غفير من المسلمين المصريين بأن الانتماء إلى العالم الإسلامى يجبُ الانتماء إلى مصر، والشعور لدى عدد متزايد من الأقباط بأن «الأقباط قد يضطرون فى مستقبل غير بعيد إلى أن يحملوا السلاح دفاعاً عن حقهم فى المواطنة الكاملة، وأن تدفق التيار الإسلامى يدفع الأقباط إلى تعصب طائفى لا يقل فى رجعيته عن طائفية الخصوم» - وهو ما صرح به أحد أقطابهم لمراسل صحيفة لوموند الفرنسية (عدد ٢٣ أغسطس ٨٤).

وأقولها هنا صراحة وبون التواء، إنى أرى القبط مسئولين إلى حدّ ما عما يحدث لهم، وذلك بانطوائهم التقليدى، وسليبتهم وحذرهم المشهورين فى العالم كله، واختيار الكثيرين من أفضل العناصر فيهم وأكثرها ثقافة وخبرة ومهارة للهجرة من وطنهم، دون المجابهة الإيجابية النشطة لعدو إيجابى نشط، والاشتراك اشتراكاً فعالاً مع المسلمين المستنيرين فى إيجاد مخرج من هذه الورطة، ومساعدة الحكومة باقتراحاتهم على تعزيز التعايش الدينى بين الطائفتين.. وإنه ليحزننى أن أرى مواقفهم لا تتعدّى فى الأغلب رمود الفعل إزاء ما يحدث، إما بالهجرة إلى الخارج، أو الشكوى والتبرّم فى مجالسهم الخاصة، أو الصبر على مضض، أو

الثأر مما يلحق بهم. أما التخطيط لإنقاذ الوحدة الوطنية فلا يكابون يعرفونه. وأما بصددهم حقهم في المواطنة والمساواة الكاملة في قطر لهم فيه ما للمسلمين، فإن مثقفهم وقادتهم لا يفعلون أكثر من أن يرددوا في المحافل العامة ما لا يؤمنون به ولا يؤمن به أحد، من أن كل شيء على ما يرام، لولا مؤامرات تحاك في الخارج وتعصب لدى بعض العناصر في الداخل.

نقطة ثانية: لطالما لمست في وطننا وفي غيره أن أفضل العلاقات بين أفراد الطوائف الدينية المختلفة هي تلك التي تسود بين الملحد من كل طائفة، ممن قد تلاشت لديهم العقيدة، وجمع بينهم الشك في صحة الأديان جميعاً.. هنا يختفي التعصب وضيق الأفق، والشك المتبادل والحيطة والحذر، ويصبح من المتصور والممكن أن تقوم الصداقة الحرة، والألفة الحقيقية، ويضحى شعارهم بيت الشاعر القروي:

سلام على كافر يوحد بيننا وأهلاً وسهلاً بعده بجهنم

وربما وافقني القارئ على أنه من المؤسف أن يكون للإلحاد مثل هذا الفضل، ولا يكون للعاطفة الدينية، وأنه من المحزن أن نرى المتدينين في كل من الطائفتين وقد غلبت عليهم مشاعر الشقاق والمرارة والشك تجاه متديني الطائفة الأخرى، في الوقت الذي تجابه الأديان كلها قوى عاتية تعارضها وتسعى إلى هدمها جميعاً، هي أعتى وأبلغ خطراً مما كانت عليه في أي عصر مضى.. قد كان ثمة أزمات كذلك التي عرفها الإسلام وقت محنة خلق القرآن، أو كذلك التي عرفت أوروبا في عصر الإصلاح الديني. غير أنها كانت أزمات داخل الدين، في حين نجد الأزمة الراهنة تتمثل في هجوم ضد الدين، سواء جاء هذا الهجوم من جهة الماركسية، أو الإنسانية، أو المادية العلمية، أو نمط الحياة المعاصرة، وقد زاد عدد أولئك الذين بات الدين لا يلعب دوراً كبيراً أو صغيراً في حياتهم، ولا يعرفون القيم الدينية التي هي وسيلة فعالة لمقاومة فقر الحياة الروحية في المجتمع الحديث، فبدون هذه القيم يصعب أن يكون ثمة سلوك متجانس، ويضحى سلوك الفرد في أغلب الحالات مجموعة من التصرفات وربود الفعل لا رابط يجمع بينها.

وقد أحسّت الكنائس المتصارعة في الغرب بهذا الخطر الذي يهددها جميعاً في السنوات الأخيرة، فسعت بنجاح إلى رأب الصدع بينها، وفتح باب الحوار من أجل إقامة جبهة متحدة ضد العدو الحقيقي، بل ومدت جميعها يدها إلى اليهودية للمشاركة في الدفاع، وأعلنت أن المطلوب هو مجرد احترام الدين في حد ذاته، وتقدير العاطفة الدينية حيثما وجدت، وأياً كان موضوعها، في سبيل إحداث التقارب وتحقيق التلاقي. وبقينا نحن في مصر نعيش في بيت قد انقسم أهله على أنفسهم، ولا يغطي سقفه غير جزء من مساحة أرضه.

بقيت كلمة أخيرة. لئن كان المثل العربى يقول (الناسُ أعداءُ لما جهلوا)، فإننى لا أرى جهلاً من فئة بعقيدة فئة أخرى كجهل كل من المسلم والقبلى فى مصر بعقيدة الآخر. لا هذا قرأ الكتاب المقدس عند الآخر، ولا تعلم عقائده فى مدرسته، ولا تطلع إلى معرفتها حين شبّ ونما.. إن سألت القبطى عن الإسلام أجابك بأنه دين يحرم الخمر ولحم الخنزير ويحلّ زواج الرجل من أربع. وإن سألت المسلم عن المسيحية أجابك بأنها دين يحلل الخمر ولحم الخنزير ويحرم زواج الرجل من أكثر من واحدة. وقد كان المفروض أن تتدارك المدارسُ ووسائلُ الإعلام والآدابُ عندنا هذا الخلل الذى هو، دون شك، أحدُ أسبابِ التعصب وسوء العلاقات. غير أنها لم تفعل. فحصر الدين فى المدارس قاصرة على أبناء كل طائفة، وكان يمكن أن تُدرّسَ للجميع دياناتُ الجميع. وثمة ستة قرون من من تاريخ مصر المسيحى (هى أطول من تاريخ الولايات المتحدة بأسره)، لا يكاد المسلم المصرى يعرف عنها شيئاً. والصحف والمجلات لا منبر فيها لفكر قبطى، ويكاد الأمر يقتصر على صحيفة واحدة أو صحيفتين لا يقرأهما غير القبط. والإذاعة والتلفزيون لا يلقيان بالا إلى عقيدة القبط. بل على العكس من ذلك، ففيهما نسمع أحد الشيوخ يقول إنه لا ينبغي لمسلم أن يتخذ قبطياً صديقاً له، ونسمع شيخاً آخر يقول إن الأقباط كانوا دائماً يخونون مصر كلما تهدّدها أو اجتاحتها غزو أجنبى. كذلك يبدى أدباء القبط وكتّابهم تقصيراً عظيماً فى تصوير أحوال طائفتهم وطريقة عيشها، سواء فى الروايات أو المسرحيات والأفلام. أما الأحزاب السياسية فإن كل ما تسعى إليه باتّجارها بالدين، وإبرامها التحالفات مع الأصوليين الإسلاميين، هو الوصول إلى كرسى من خشب، حتى إن استندت قوائمه إلى فوهة بركان. فما عسانا أن نتوقعه بعد هذا غير الجهل، وغير مشاعر الإحباط والمرارة، وتعذّر قيام علاقاتٍ صحيحةٍ من التعايش الدينى؟

وأخيراً فإن الافتقار إلى الصدق التام، والصراحة الكاملة فى عرض الأمور، وإلى الحوار الحر المباشر من أجل معرفة الأسباب الحقيقية للنفور والشك ومن أجل الوصول إلى حلول معقولة، كفىل بأن يبقى الأوضاع على حالها. كما أننى زعيم بأن التركيز على دور المستعمرين، وإلقاء التبعة على الأصوليين المتطرفين، أمران لا أقول إنهما لا يقالان إلا للأطفال، بل هما لا يقالان أصلاً حتى للأطفال، خشية تشويش أفعالهم، وتشويه مداركهم.

يوم صلى النبي على أخ نصراني له

قال قتادة: لما مات نجاشي الحبشة، وهو نصراني، قال رسول الله لأصحابه: أخرجوا فصلوا على أخ لكم قد مات. قالوا: ومن هو؟ قال: النجاشي.. ثم صلى النبي وكبر أربع تكبيرات، واستغفر للنجاشي، وقال لأصحابه: استغفروا له. فقال المنافقون: أنظروا إلى هذا يصلي على حبشي نصراني لم يره قط، وليس على دينه! فأنزل الله آية: (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم، خاشعين لله، لا يشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، أولئك لهم أجرهم عند ربهم) - آل عمران ١٩٩.

ولابد أن النبي قد تذكر ساعتئذ ما كان أتباعه يعانونه على يد قريش من محنة وبلاء في مكة حتى فكر في إرسالهم إلى الحبشة، «فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه». وقد أرسلت قريش في أعقابهم وفدًا إلى النجاشي كي يسلم المهاجرين إليه، وبعثت معه الهدايا الكثيرة إلى النجاشي والبطارقة حتى يعملوا بما يريد. غير أن النجاشي أبى غاضباً أن يرد المهاجرين المسلمين إلى بلادهم وقومهم، وقال لوفد قريش: «والله لا أسلمهم إليكم! هم قوم جاوروني، ونزلوا بلادى، واختاروني على من سواي. وإن هذا الذي أتى به محمد والذي جاء به يسوع المسيح ليخرج من مشكاة واحدة. خذوا هداياكم فلا حاجة لي بها. فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين ثبت لي ملكي فأخذ الرشوة فيه». ثم التفت إلى أصحاب النبي قائلاً: إذهبوا فأنتم آمنون بأرضي. من سبكم غمًا من سبكم غمًا من سبكم غمًا!

ولإيضاح هذا الموقف النبيل الذي وقفه كل من نجاشي الحبشة من أصحاب رسول الله، رسول الله من نجاشي الحبشة، نقول:

إن الإسلام دين الله. وهو لم يظهر خلال القرن السابع الميلادي كما يظن البعض، وإنما منذ بدء الخليقة. ذلك أنه حين خلق الله الكون، قضى بأن تعمل قوى الطبيعة وفق أنماط

وقوانين شرعها لها. ولم يكن ثمة بدء من إطاعة هذه القوى لتلك القوانين إلى أبد الأبد. هذه الأنماط والقوانين الطبيعية هي آيات الخالق. ويوسع كل من له عقل يفكر أن يفهم منها، متى تأملها، حكمة الله وعزته.

كذلك فإنه حين خلق الله الإنسان، وضع للحياة البشرية نمطاً وقوانين ينبغي على الإنسان إطاعتها والحياة على هديها. فقد شرع الله منذ البداية قواعد السلوك الواجب على المرء الالتزام بها تجاه خالقه، وتجاه الناس من حوله، ورسم له المبادئ كى تحكم تصرفاته وسلوكه الفردى والاجتماعى. ومع أن الإنسان ليس إلا ظاهرة أخرى من ظواهر الطبيعة، فهو يختلف عن سائر المخلوقات فى أنه حرّ ونوعى بذاته. ورغم أن الله حدّد له - كما حدّد لسائر المخلوقات - الطريق الأمثل للتصرف والسلوك، فإن الإنسان وحده هو الذى وهب القدرة على الاختيار بين انتهاز هذا الطريق وبين الحيدة عنه. فهنا إذن خير أبدى، لكن الإنسان حرّ فى تبيّنه أو عدم تبيّنه. وهى مسئولية جسيمة أشارت إليها الآية ٧٢ من سورة الأحزاب إذ تقول: (إنّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، إنه كان ظلوماً جهولاً).

عرض الله إذن الأمانة (أى حق الاختيار) على السماوات (القوى الروحية) وعلى الأرض والجبال (عالم الطبيعة)، فأحجمت فى فزع عن تحمل المسئولية عن حريتها. أما الإنسان فقد قبلها وقبل معها فكرة حريته فى أن ينظم شؤونه وفق النمط الذى أراده الله له، أو وفق غيره. فإن كان على النجوم أن تسير بدقة فى مدارها حسبما شاء الخالق لها، فإن الإنسان حرّ فى انتهاجه الصراط المستقيم أو انتهاز غيره.

ويكمن خطر هذه الحرية فيما يتهدّد المجتمع البشرى من التخلل والفوضى متى كان اختيار الإنسان غير سليم. كذلك فإن الله قد وعد أولئك الذين يسرون على الصراط المستقيم الجنة، وأعدّ لغيرهم عذاب النار. ولم يشأ الله أن يترك البشرية دون هداية بصدد الطريقة المثلى للحياة والسلوك. فقد أطلع الإنسان منذ البداية على قانونه الذى استتّه له، وحدّد له ما يجب أن يفعله وما يجب أن يتجنّب فعله. وبذا فقد بدأ التاريخ البشرى والإنسان يدرك ماهية الخير والشر. غير أنه بمرور الوقت ضلّ وتعثر. وأهمل الناس أو نسوا أو حرفوا الرسالة حتى نست البشرية كل ما يتعلّق بالشرع الإلهى. فهجران الناس للطريق السوى لم يصدر إذن عن مجرد عصيان لإرادة الله، وإنما عن جهل وتخبط وحيرة. وشاعت رحمة ربك أن يبعث برسول يشرح الرسالة من جديد، وليفصح عن نفس المعانى القديمة للقانون الأزلى... غير أن الناس

بمرور الوقت أهملوها من جديد، ومنهم من حرقها، حتى نسيتهما الكافة.. وتكررت الظاهرة عدة مرات فى عدة أقطار. غير أنه بالرغم من تعدد الرسل، كانت الرسالة يوماً واحدة.

وقد حفظ القرآن لنا أسماء بعض هؤلاء الرسل، ومن بينهم موسى وعيسى. فأما رسالة موسى فقد أطاعها قوم ثم وقع بعضهم بعد ذلك فى خطئين: الأول: أنهم حرقوا الكتاب المقدس؛ والثانى: أنهم توهموا أن الرسالة الموجهة إلى العالمين موجهة إلى قومهم فحسب، لا إلى البشرية قاطبة.

لذلك أرسل الله عيسى بن مريم حتى يعود بالناس إلى الطريق الحق. وقد فهم أتباعه من النصارى جيداً أن البشرية جمعاء هى المقصودة بالرسالة. غير أن القرآن أشار إلى أن بعضهم أخطأ إذ ركز اهتمامه على عيسى دون فحوى الرسالة، وأكد جانب تقوى الفرد دون ضرورة السعى وراء إقامة عدالة اجتماعية فى المجتمع البشرى. وهكذا عاد الإسلام الذى كان قائماً منذ الأزل ليظهر من جديد فى القرن السابع الميلادى وليوضح الرسالة الأبدية مرة أخرى.. وعلينا أن نتذكر دائماً هذه الحقيقة: أن المسلمين ليسوا فقط من قبلوا رسالة محمد صلى الله عليه وسلم عند تبليغه إياها أو بعد ذلك، وإنما هم مسلمون أيضاً أولئك الذين قبلوا آياً من رسالات الأنبياء قبل محمد، وعملوا بما أوصت به، وآمنوا بالله واليوم الآخر وبما أنزل إليهم، وكانوا فى علاقتهم بالله والناس خاشعين صالحين، ولم يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً (أى لم يحييوا عن تعاليم الرسالة فى سبيل كسب دنيوى)، ولم يدعوا هذه الرسالة تندرج فى طى النسيان.

وهذا هو سرّ إيواء النجاشى النصرانى لمسلمى مكة وإكرامه لهم، وهو السرّ فى أن محمداً صلى الله عليه وسلم صلى على النجاشى المسيحى ودعا المسلمين إلى الصلاة عليه. وقد أخطأ المنافقون خطأ فاحشاً إذ قالوا إن النجاشى، وهو الرجل الصالح، ليس على دين الإسلام، وكان خطأهم أفذح إذ استنكروا الصلاة عليه، والاستغفار له، واعتبار النبى إياه أخاً له ولسائر المسلمين. وجاءت الآية ٦٢ من سورة البقرة تؤكد أن النصارى واليهود والصابئين المؤمنين الصالحين (لهم أجرهم عند ربهم، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون).

ثم لننظر بعد ذلك فى مفهوم العدالة فى معاملة أهل الكتاب من اليهود والنصارى الوارد فى القرآن والسنة:

فقد ذُكر أن مسلماً من الانصار يُدعى طُعمة سرق درعا من جار له، ومضى به إلى يهودى يطلب منه الاحتفاظ بها عنده، ولم يخبره بأنها مسروقة. ثم افترض الأمر وكادت التهمة تثبت ضد طُعمة الانصارى. فأسرع قومه إلى رسول الله يتوسلون إليه أن يدافع ويجادل عن طُعمة وأن يكسب التهمة باليهودى. فقام النبى (وكان هواه مع قوم طُعمة) فبرأه وعذره على روعس الناس. فإذا هو وقد نزلت عليه الآيتان: (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ، وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً. واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً) - سورة النساء ١٠٥ و١٠٦. ومعناهما: إنا أنزلنا إليك القرآن يا محمد لتقضى بين الناس بما أراك ربك من الحق، فلا تدافع عن الخائنين، واستغفر الله وسله أن يصفح عنك إذ جادلت عن هذا الانصارى اللص.

أبان الله لرسوله وللمؤمنين إذن أنه لا يجوز لأحد أن يدافع عن أحد إلا بعد أن يتيقن من أنه على حق، أو أن يدفعه الهوى أو المصلحة الظاهرة إلى الانحياز إلى طرف دون طرف فى أى نزاع. كما بين أن لليهود والنصارى مثل ما للمسلمين من حق فى عدل الحاكم أو القاضى أو الفرد العادى، وأنه على الناظر فى أية قضية أو خصومة أن يجمع فى نفسه الميل إلى محاباة أحد أطرافها نتيجة توافق المصالح، أو الانتماء إلى نفس الجماعة أو الملة، أو أى اعتبار من الاعتبارات.

فهنا مفهوم عن العدالة لم يكن مألوفاً لدى العرب فى الجاهلية أو فى بداية الدعوة الإسلامية حين كان الناس يعتبرون قوله «أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» عين الحكمة، ونصيحة واجبة الاتباع.. لم يكونوا يرون فى القتل أو السرقة جريمة إن كان القتيل أو المسروق منه من غير قبيلتهم، ولا كان المسلمون فى السنن الأولى من الدعوة يرون فى إهدار حقوق أهل الملل الأخرى غير ملتهم خرقاً للمفهوم الإلهى عن العدالة، حتى نزلت هاتان الآيتان فأوضحتا أن عدل الله يسع الكافة بغض النظر عن دين المرء وانتماءاته، وأن الجانى - وإن كان مسلماً - على الحاكم أو القاضى أن ينتصف منه، والمجنى عليه - وإن كان غير مسلم - ينبغى على الحاكم أو القاضى أن ينتصف له.

وقد كان لابد من مرور بعض الوقت حتى يتشرب المسلمون الأوائل هذه المفاهيم الجديدة، وحتى يتركوا النهج الذى سار عليه آباؤهم لعدة قرون سابقة. غير أن أفراداً من المقربين إلى رسول الله سرعان ما تخلقوا بأخلاقه، وتفهموا مقاصد الدين الجديد وغاياته. وكان من أبرزهم الفاروق عمر، الذى يُروى عنه أنه قال لأحد المتخاصمين عنده، (وكان عمر

يبغضه ولا يرتاح إليه): والله لا يحبك قلبى أبداً قال الرجل: فهل يعننى ذلك من عدلك؟ قال: لا. قال: فلا بأس إذن؛ إنما يأسف على الحب النساء!

بل إن مفهوم العدل فى القرآن يمتدّ حتى يشمل الوثنيين أنفسهم! ففى الواحدى أن آية ٥٨ من سورة النساء (إن الله يأمركم أن تؤنّوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) نزلت فى عثمان بن طلحة سادن الكعبة. ذلك أن النبى حين دخل مكة يوم الفتح، أغلق عثمان باب الكعبة (وكان لا يزال على شركه) وصعد السطح، وأبى أن يعطى النبى المفتاح. فصعد إليه على بن أبى طالب، ولوى يده، وأخذ منه المفتاح عنوة. وإن أنزل الله تعالى هذه الآية، أمر رسول الله علياً أن يردّ المفتاح إلى عثمان بن طلحة ويعتذر إليه عما بدر منه. فلما فعل على ذلك قال له عثمان: أذيتَ ثم جئتَ ترفقُ؟ فقال على: لقد أنزل الله قرآناً فيك، وقرأ عليه الآية. فقال عثمان: أشهد أن محمداً رسول الله، وأسلم.

فهنا مثل واضح لأسلوب النبى فى الدعوة ونشر الإسلام يذكّرنا بخرافة لافونتين عن الريح والشمس اللتين تراهنتا أيهما أقدر على أن يجرّد رجلاً فى أحد الحقول من عباءة يلبسها. فأما الريح فهبت تحاصره وتشدّد من هجومها، فإذا الرجل يزيد من تشبّثه بالعباءة وإحكام قبضته عليها. وأما الشمس فقد ملعت فى هدوء وثقة إلى كبد السماء، تبتّ حرارتها، حتى رأى الرجل من المناسب أن يخلع العباءة من تلقاء ذاته ويلقى بها جانباً!

وقد كان عنف على بن أبى طالب كفيلاً بأن يزيد من عداة عثمان بن طلحة للإسلام إذ يُسلَب عنوة حقه فى السدانة، لولا تدخل رسول الله وردّه الأمانة إليه وأمره علياً أن يعتذر عن تصرفه العنيف معه. وكتب السيرة مليئة بالمواقف التى حقق فيها الرسول بسماحته وحلمه ما لم يحققه السيف والعنف، والفظظة والفظاظة. (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك).

ومع هذا، فما نحن نشهد بيننا من الغلاة والمتطرفين من يظنون أنهم تادّبوا بأداب القرآن والسيرة، ويحسبون أنهم قد اتخذوا من النبى أسوة ومثلاً يُقتدى، فى حين يشهد حالهم وسلوكهم مع إخوانهم فى الدين، ومع إخوانهم من أهل الكتاب، بأن المسلم كلما ازداد فظاظاً وكراهة لمخالفه فى رأى أو الملة كان أقرب إلى الله تعالى، وأنه بإحراقه للكنائس واعتدائه على النصارى وممتلكاتهم قد بات أدنى إلى الإيمان الحق!

لقد كان القديس فرانسيس داسيسى يحضّر أتباعه دائماً على أن يعكس مسلكهم وعلاقاتهم بالناس أثر العقيدة فى نفوسهم وأخلاقهم. وكان من رأيه أن هذا هو خير طريق إلى اجتذاب الناس إلى الدين والمسيحية السمحاء، إذ من المؤكد أنهم سيتسائلون عما عساه قد هذب على هذا النحو خلقهم وطباعهم ومعاملتهم، حتى إذا ما عرفوه مالوا إلى اختباره بأنفسهم.

والذى نعلمه أيضاً أن الإسلام إنما انتشر ووطّد دعائمه فى أنحاء عديدة من أفريقيا السوداء وجنوب شرقى آسيا، لا بالعنف والقهر، ولا حتى بالتبشير والدعوة، وإنما بفضل خلق التجار المسلمين الوافدين إلى تلك المناطق للتجارة، وأمانتهم ودماثة طبعهم ووقارهم، مما دفع الناس إلى سؤالهم عن تعاليم دينهم، ثم اعتناق هذا الدين الذى كان له الفضل الأكبر فى غرس هذه الفضائل.

فإن كان مسلمو هذا الزمان مؤمنين حقاً، فما بالهم لا ينتهجون طريق هؤلاء؟ طريق القديس فرانسيس، أو طريق التجار المسلمين فيما مضى، أو طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان يستشير أصحابه فى بعض المواقف بشأن مشرك أو منافق، فيوصى بعضهم بقتله، وبعضهم بإخراجه من المدينة، فيهدىء النبىء من غلوائهم، ويتبسّم قائلاً:

— بل نترفّق به ونحسن إليه.

موقف البدو من دولة الإسلام

(قالت الأعرابُ آمناً قل لم تؤمنوا ولكن قولوا
أسلمنا ولمَّا يدخل الإيمانُ في قلوبكم)

سورة الحجرات ١٤

كان تقبّل العرب لتعاليم الإسلام في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم على ثلاث مراتب:

الفريق الأول: وهو ذلك الذي تقبّل جوهر التعاليم وروحها تقبلاً داخلياً تاماً، وبكل إخلاص وإيمان، ومنه تكونت فيما بعد نواة النظام الديني. وقد كان هذا الفريق بطبيعة الحال صغيراً في بداية الدعوة، إلا أنه كبر ونما نمواً مطرداً بنموّ حجم الجماعة.

والفريق الثاني: وأبرز ممثليه أولئك الذين تأخّر اعتناقهم للإسلام من أهل مكة (خاصة من بنى أمية)، فجاء ولاؤهم للإسلام ولأهله شكلياً، وقبولهم لتعاليمه وواجباته دون تمثّل روحه. وإنما كان اعتناقهم للإسلام عن ابتغاء لما يجنيه الانتماء إلى الجماعة الجديدة من مكاسب. وقد كانت وجهة نظر هؤلاء أن فروض الإسلام وشعائره تلائم مزاجهم التجاري إلى حدّ كبير، ولا تتطلّب منهم سوى اليسير من الوقت والمال، في حين يخلى لهم حق التمتع بما بقي من هذين ليحققوا مصالحهم ومآربهم. وكان للإسلام في نظر هؤلاء التجار من أهل مكة فضل آخر، هو ذلك الحزم الأكيد الذي أخذ به الأعراب ممن كانوا مصدر تهديد دائم لقوافلهم التجارية.

والفريق الثالث: هو من هؤلاء البدو أو الأعراب الذين اضطرتهم الظروف اضطراراً إلى قبول دولة الإسلام ونظامها الجديد، بعد تهديدهم بمواجهة تمردهم وانحرافاتهم بعقوبات لم يتردّد النبي صلى الله عليه وسلم ولا الخلفاء من بعده في إيقاعها بهم. وقد ورد وصف هؤلاء في عدّة آيات من القرآن الكريم (خاصة في سورة التوبة)، منها:

(الأعراب أشدُّ كُفْراً ونفاقاً وأجدرُ ألاَّ يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله، والله عليم حكيم. ومن الأعراب من يتخذ ما يُنفق مَقْرَماً ويتريّص بكم الدوائر، عليهم دائرةُ السوء والله سميع عليم). التوبة ٩٧ و٩٨ .

البدو والفتوحات الإسلامية

وقد كان هؤلاء البدو في جاهليتهم يتعيشون بصفة أساسية، كلّا مستتهم ضائقة أو أصاب القحط موارد شبه الجزيرة العربية الضئيلة أصلاً، من شتّى الغارات على جيرانهم من القبائل، ونهب القوافل التجارية المارة بمواطنهم في الصحراء. وكانت هذه الغارات بما ينجم عنها من خُفض متجدّد بصفة دورية لعدد الأنواء اللازم إطعامها، تمثل الحل الأوحّد لمشكلة عجز موارد شبه الجزيرة عن إشباع حاجات سكانها. فلما جاء الإسلام الذي حرّم على المسلم سفك دم المسلم، ووضع بذلك حدّاً لهذه الغارات في نطاق الأمة الجديدة، كان لابدّ من إيجاد حلٍّ آخر لهذه المشكلة. وقد أدرك الرسول صلى الله عليه وسلم أن الاكتفاء بإخماد مقاومة البدو إنما يعنى أن جيشه سيظلّ دوماً في صراع مستميت عقيم مع قبائلهم، وأنه لابد من وسيلة ترفع الأعراب في إسلامهم إلى إحدى المرتبتين الأوليين، أى أن توفر لهم من الظروف ما يرفعهم - على الأقل - إلى المرتبة التى تتفق عندها مصالح الإسلام مع مصالحهم الخاصة.

وقد هدأت المشكلة إلى حدّ كبير بإيفاد النّبى السرايا إلى غير المسلمين من اليهود ومن بقى على وثنيته من أهل شبه الجزيرة، ثم بقرار خليفتيه (أبى بكر وعمر) بإرسال الحملات إلى خارج بلاد العرب بعد أن دان أهلها كافة بالإسلام ولم تعد ثمة حاجة إلى القيام بغزوات فيها. ومن ثم فقد كان من بين أفضال الفتوحات الإسلامية الأولى خارج شبه الجزيرة (فى الشام وفارس ومصر وغيرها) إيجاد بديل ترضاه القبائل العربية للحروب فيما بينها، (وهو ما حفظ على الإسلام وحدته فى بلاد العرب)، وضمان غنائم للبدو أوفر مما كانت تدرّه عليهم حروبهم وغاراتهم على القوافل، وتوفير الحل الناجع للمشكلة الاقتصادية فى شبه الجزيرة. ولاشك أيضاً فى أن تلك الفتوحات خدمت المآرب التجارية الطموحة للتجار من أهل مكة الذين كانت لهم - فى معظم الحالات - إمارة جيوش الفتح، وكذا ولاية الأمصار المفتوحة دون غيرهم. وقد كان سبيل الخلفاء الأوّل إلى تقاضى ما يمكن أن يطرأ على صفوف أجناد المسلمين من شغب

وصراعات، وإلى بثّ الحماس فى قلوب الغزاة، تأكيد أن فرض الجهاد يشمل الأقطار خارج شبه الجزيرة، وأنه من واجب المسلمين العرب العمل على نشر الإسلام حتى يعمّ غير العرب من الشعوب.

موقف البدو من السلطة السياسية

غير أن المصالح المادية لقبائل البدو والمكيين ظلت متضاربة رغم ما أحرزوه من انتصارات باهرة وحققوه من فتوحات واسعة. فقد كانت قبائل البدو تطمح إلى أن تجعل من الأراضى المفتوحة مراعىً لقطعانها من الإبل والمواشى، بينما رغب المكيون فى استثمار مواردها طلباً لفوائدها التجارية، وأملأ فى توسيع نطاق نشاطهم التجارى الذى مارسوه فى جاهليتهم، بالسيطرة على التبادل التجارى بين أنحاء إمبراطوريتهم الجديدة.. وقد أجبر المكيون من قادة الجيوش وولاة الأمصار رجال قبائل البدو على التخلّى عن الأراضى الزراعية والمراعى التى غلبوا عليها، وعلى تركها فى حوزة أبناء الأقطار المفتوحة، حتى يبقى البدو والعرب عامة جنداً فى جيوش تواصل الغزوات والفتوح؛ لضمّ المزيد من الأقطار، وتحقيق المزيد من الفوائد التجارية للمكيين.

لذلك فإنه لم يمض زمن طويل حتى أحسّ الأعراب بأنهم فقدوا حريتهم فى الحركة والتنقّل، وفى ممارسة النشاط المحبّب إليهم (وهو الرعى)، وبأنهم اضطروا إلى ممارسة نمط من الحياة فى الأمصار لم يألّفوه، لمجرد خدمة مصالح التجار المكيين الذين لم يدعوا فرصة إلا اغتتموها للاستفادة من تجارة العراق والشام ومصر، وتكوين المؤسسات التجارية الضخمة التى يعمل فيها العبيد والموالى. وقد بلغ سخط رجال القبائل أوجّه حين قوّى التجار المكيون - وغالبيتهم من الأمويين - نفوذهم السياسى فى ظل خلافة عثمان بن عفّان (وهو أموى)، وسيطروا سيطرة تامة على الموارد الاقتصادية فى الإمبراطورية.

وقد تمّ قتل عثمان على أيدي رجال القبائل الساخطين المتمردّين على الأوضاع السائدة، مما أثار حرباً أهلية وقف فيها الأتقياء فى جانب رجال القبائل بسبب سخطهم على تلك النزعة الدنيوية وتلك المادية الطاغية اللتين اتخذتا من الدين الإسلامى مجرد ستار. وقد انبرى معاوية المكيّ الأموى لمقاومة هؤلاء وحريهم. وسرعان ما تبينّ للأتقياء والفقهاء - خاصة بعد مصرع

على بن أبى طالب - أن النزاع بين المكين والقبائل البدوية ليس نزاعاً بين الأسس الدينية والأسس الدنيوية للوحدة، وإنما هو نزاع بين القوى القبلية المخربة، وبين الوحدة التي تخدم مصالح العرب كما يفهمها الأمويون. ومن ثم فقد انحاز فريق الفقهاء تدريجياً إلى جانب معاوية ضد ما تنطوى عليه القبلية من خطر الفوضى، حتى مع ما يتسم به المفهوم الأموي من صبغة دنيوية قوية.

الخوارج

وقد قوّى من هذا المنحى لدى الفقهاء والأتقياء فهمهم لحقيقة أمر الخوارج الذين انشقوا عن جيوش المسلمين في أواخر خلافة على، فقد كان أفراد تلك الفرقة ينتمون إلى قبائل بدوية (خاصة قبيلة تميم من البدو الأقحاح الذين قُطروا على عدم الانصياع للسلطان، وكان لهم نصيب كبير في جميع الفتن التي نشبت في عهد الأمويين). فقد أنكرت تلك القبائل ذلك التنظيم الدقيق الذي فرضته عليهم الدولة الإسلامية الجديدة، وذلك الحدّ من الحرية البدوية المطلقة أو شبه المطلقة مما لم يعهدوه من قبل، وأحسوا بضيق أيّما ضيق إذ يرون أنفسهم وقد عادوا بعد الغزوات، لا إلى الصحراء التي يعشقونها، وإنما إلى معسكرات أو مدن لم يألّفوا الحياة فيها. وقد شعرت هذه القبائل البدوية بحاجة طاغية إلى العودة إلى الحياة في الصحراء، وإلى نمط الجماعة الصغيرة ذات العلائق الوثيقة بين أفرادها. غير أنه كان لابدّ لهم الآن من إيجاد أساس من دين الإسلام لهذه الحاجة، وأن يوهّموا أنفسهم أنهم في سعيهم إلى إشباعها إنما يحرصون على الالتزام بأحكام هذا الدين. فكان أن خرجوا على السلطة ثقيلة الوطأة واتّهموها بالكفر، وكان أن هجروا المدن البغيضة إلى قلوبهم وأسموها دار حرب، وكان أن استأنفوا الغارات الجاهلية بغرض السلب والغنيمة وخالوا أنها جهاد، وكان أن ربطت أوثق الوشائج بين أفراد جماعتهم الصغيرة وقالوا إنهم أهل الجنة!

وقد بذل الخلفاء الأمويون الأوّل محاولة مخلصّة للتوفيق والتنسيق بين مصالح التجار المكين ومصالح القبائل، وتزيين مواصلة حروب الفتوح في أعين البدو بما ينجم عنها من الأسلاب والغنائم. وقد تواصلت هذه الفتوحات العربية باسم الإسلام الذي رأى فيه الأمويون الوسيلة المثلى لتوحيد صفوف العرب، وخدمة مصالح عرب شبه الجزيرة كما فهموها.. غير أن

تطاول أمد المقاومة العنيفة التى بدرت من الخوارج والقبائل فى وجه الأمويين - خاصة فى العراق - حال دون نجاح الأمويين فى مسعاهم لمرضاة البدو، فاضطروا فى النهاية إلى تغيير سياستهم تغييراً جوهرياً، واتجهوا بالإدارة وجهة المركزية، ولجأوا إلى العنف والقسوة فى إخماد ثورات القبائل، ثم إلى إخراج البدو من صفوف الجيش فى العراق.

البدو والشعبوية

أما الفقهاء ورجال الدين فقد كان كافتهم فى البداية من العرب، وكانوا تجاه الأمويين فى حيرة شديدة؛ فتقوهم تحول دون تأييد الطابع الدنيوى لإسلام الأمويين؛ غير أن إدراكهم لما يعود من الخير والقوة على دولة العرب من جرّاء فتوحات الأمويين واسعة النطاق، وما قد يعود على هذه الدولة العربية القح من تفكك وانحلال من جرّاء تطلّعات البدو، وما فى ثورات الخوارج والشيعة من شطط وغلوّ، جعل هؤلاء الفقهاء والمتدينين العرب يتردّدون فى معارضة الدولة الأموية.

بيد أنه بمرضى الوقت زادت أعداد من دخلوا فى صفوف الفقهاء من فرس ومصريين وغيرهم، وقد كان من الطبيعى أن يرفض هؤلاء الطابع العربى الذى أسبغه الأمويون على الإسلام، وأن يتمسكوا بتفسيره الأوسع والأشمل مما يتضمنه حديث «لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى»، وأن يؤكدوا أن الإسلام إنما جاء لشعوب الأرض كافة، عربيّها وغير عربيّها. وقد عكس هؤلاء الفقهاء من غير العرب ذلك السخط المرير الذى كان يشعر به غير العرب من شعوب الأقطار المفتوحة تجاه العنجهية العربية لدى الأمويين، واستنثار العرب دون سائر المسلمين بشار الإمبراطورية. ومن ثم فقد كانت جهودهم الناجحة فى الدعوة للإطاحة بالدولة الأموية بمثابة فصل حاسم بين الإسلام كدين وبين مفهوم السيادة العربية.

لقد كان الخلفاء العباسيون هم أيضاً من أصل عربى مكّى. غير أنهم كانوا مدينين بوصولهم إلى السلطة للفرس والخراسانيين ولجهود الفقهاء المسلمين من غير العرب، مدركين بوضوح لأهمية الدور الذى بات الآن للموالى فى توجيه مصائر الدولة الجديدة. لذلك جعل الخلفاء العباسيون التعاون مع هؤلاء ركناً ركيناً فى سياستهم، فزاد تقلّد غير العرب للوظائف الإدارية، وأحييت التقاليد الفارسية القديمة فى مراسم البلاط وفى شؤون الإدارة، وأصبح

جيش الدولة النظاميّ مؤلفاً بصفة أساسية من الخراسانيين، ثم من الترك، دون العرب، مما أراح الخلافة من وطأة العصبيّة القبلية العربيّة، ومن متاعب الخوارج وقلقل البدو.

وبالتالي فإنه يمكن القول بأنه وإن كان العباسيون قد جنوا ثمار المعارضة القبلية والبدوية العربيّة للدولة الأموية، فإنهم لم يسمحوا قط لتلك القبائل البدوية بنيل أغراضها، ولا استخدمتهم دولتهم في أعمالها، بل وانتهجت تلك الدولة حيالهم نفس السياسة المعادية التي انتهجها الأمويون.

موقف المسلمين العرب من الحضارة الأوروبية

(١)

خلف لنا الأمير أسامة بن منقذ (١٠٩٥ - ١١٨٨م) في «كتاب الاعتبار»، والشيخ ع الرحمن الجبرتي (١٧٥٦ - ١٨٢٥م) في كتابه «عجائب الآثار»، صورتين بالغتي الأهم والطرافة لحدثين تاريخيين بارزين عاصراهما. وقد جمع بين الحدثين أنهما يمثلان عدوان أوروبيين مفاجئين على الشرق، وأن العدوانين فتحا عيون كل من أهل الشرق وأهل الغرب على حدّ سواء على أوضاع غير مألوفة البتة في حياة الطرف الآخر. غير أن القرون السبعة التي تفصل بين الحدثين كانت قد شهدت من التطورات الهائلة هنا وهناك ما جعل الصورتين تختلفان اختلافاً جوهرياً في خلفيتيهما الحضاريتين.

فأما ما شهده الأمير الشاعر فالشطر الأول من الحروب الصليبية في الشام. وبالرغم من أن الشعوب الإسلامية في وقته كانت قد أنهكت نظمها السياسية الفرقة، واستنزفت طاقتها الحروب فيما بينها، فقد ظلت نظمها الحضارية أرقى في مجالات شتى من النظائر الحضارية في الغرب. وكان بوسع أسامة أن ينظر إلى الغزاة الأوروبيين نظرة استعلاء، وأن يصفرهم بأنهم «بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل»، وأن يقول إن «كل من هو قريب العهد (منهم) بالبلاد الإفرنجية أجفى أخلاقاً من الذين عاشروا المسلمين»، «ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة»، وأن «طلبهم ساذج جاهل بالمقارنة مع الطبّ العربي»، و«محاكماتهم غبية غريبة». وهو مع ذلك يدعو الفرسان الدأوي «بأصدقائي»، ونسمع صديقاً إفرنجياً له يدعو «بأخي»، ويرجو أسامة أن يسمح لابنه (مرهف) بأن يرافقه إلى بلاده «ببصر الفرسان ويتعلم العقل والفروسية، وإذا رجع كان مثلاً رجل عاقل». فيتعجب أسامة من غياب الرجل وكلامه الذي «ما يخرج من رأس عاقل»، «فأمر ابني لو أسر ما بلغ به الأسر أكثر من رواحه إلى بلاد الإفرنج».

وأما ما شهده الشيخ المؤرخ الجبرتي فسنوات الحملة الفرنسية على مصر التي وصفه

بأنها «سنو الملاحم العظيمة، والحوادث الجسيمة، والوقائع النازلة، والنوازل الهائلة، وتضاعف الشرور، وترادف الأمور، وتوالى المحن، واختلاف الزمن، وانعكاس المطبوع، وانقلاب الموضوع». وهو فى نظريته إلى الإفرنج وعاداتهم ليس أقل وقاراً من أسامة، وليس بأخف حدة فى استنكاره لبعض مظاهر سلوكهم. غير أننا نتبين مع هذا اختلافاً كبيراً بين موقفيهما... إن كل ما يستنكره الجبرتي من الفرنسيين إن هو ناجم فى رأيه عن «كفرهم»، وعن أنهم ليسوا من أهل الدين الحق، بينما يجد وقاره حيالهم سنداً له فى إيمانه بأنه من أهل هذا الدين. أما أسامة، فهو وإن نعت الإفرنج بالكفرة، واستنزل عليهم لعنة الله، فإن وقاره إزاءهم منبثق إلى حد كبير عن تفوق حضارة قومه... كان بوسع الجبرتي أن يحتقر إقبال الفرنسيين على شرب الخمر، وأن يستنكر سفور نسائهم وقلة حيائهن، غير أنه لم يعد بالوسع أن يصفهم بالبهايم، أو أن يقول إن محاكماتهم غبية وطبهم ساذج. بل أصبح إذا رأى سلعة مصرية جيدة الصنع، يقول إن من يشاهدها لا يشك فى أنها من صنع الإفرنج، وأن من يذهب إلى بلادهم «تهذبت أخلاقه بما اطلع عليه من عمارة بلادهم، وحسن سياسة أحكامهم، وكثرة أموالهم، ورفاهيتهم وصنائعهم، وعدلهم فى رعيّتهم مع كفرهم»..... لقد شهدت القرون السبعة انقلاباً فى الأوضاع وتغيراً فى الموازين. وعاد الإفرنج الذين بهرهم فى عصر أسامة ما أنجزته حضارة الإسلام، واقتبسوا منها ما رأوه جديراً بالاعتباس، عادوا بعد تلك القرون السبعة إلى الشرق، ناظرين إلى أهله نظرة علماء الأنثروبولوجيا إلى قبائل البدائيين.

(٢)

كانت الانتصارات الحربية والسياسية التى حققها الإسلام فى حقبه التاريخية الأولى قد غرست فى نفوس الشعوب الإسلامية شعوراً من الاطمئنان والرضا عن النفس، لم تر معها حاجة إلى تقليد ما ابتدعه الغرب منذ بداية عصر نهضته من أسلحة وألوات ونظم وأفكار، كوسيلة للتصدى لهذا الغرب ذاته. وقد كانت ذكرى هذه الانتصارات الإسلامية هى أيضاً مما جعل الغرب يتردد طويلاً فى شأن الانتقال من طور الدفاع إلى طور الهجوم، خشية أن تتكرر مزايمه فى الحروب الصليبية المتتالية. غير أنه ما إن أحرز الغرب انتصاره الحاسم عام ١٦٨٣ على الأتراك العثمانيين المهاجمين عند شيينا، حتى بدأ يدرك حقيقة ضعف خصمه، ويتطلع إلى

الهجوم المضاد. غير أن هذا الهجوم المضاد تأخر قرابة قرن من الزمان لعدة أسباب منها انشغال الدول الأوروبية بتأسيس مستعمرات لها في كل من آسيا والعالم الجديد. فما حل عام ١٧٦٨ حتى اشتعلت نيران الحرب الروسية التركية التي توالى خلالها سنواتها الست الهزائم الساحقة على العثمانيين، وبحلول عام ١٧٩٨ كانت الحملة الفرنسية على مصر، ثم توالى بعد ذلك هجمات الأوروبيين على العالم الإسلامي التي أسفرت عن وقوع جل أقطاره في براثن الاستعمار الغربى.

وقد أزعج المسلمين ما منوا به من هزائم على يد مخالفيهم في الدين. وكان أن بدأت ثقتهم بأنفسهم تهتز. بل إن الاعتزاز بالدين نفسه سرعان ما تأثر هو أيضاً لدى الكثيرين. ذلك أنه كان منهم من تأثرت نظرتهم إلى دينه إذ يرى تفوق المسيحيين الغربيين في مضمارى السلاح والحضارة، وهو ما استمر حتى بعد أن نالت الأقطار الإسلامية استقلالها. وكان منهم من لم يفهم الهزيمة الحربية على معناها الدنيوى، وإنما عجب لما أصابه من مذلة والقرآن يقول: «وكان حقاً علينا نصر المؤمنين».. ومع ذلك فإنه مما يسرّ لغالبية المسلمين بعد ذلك الإذعان لمختلف مظاهر الحضارة الغربية أمان، الأول: إتخاذ الحضارة الغربية لنفسها إطاراً دنيوياً بحتاً، وإغفال المستعمرين اعتبار الدين بحيث لم يبدُ الأمر في صورة استعباد أهل ملّة معينة لأهل ملّة أخرى، والثانى: تصديق الغالبية في الأقطار المفتوحة لادعاء الغرب أن حضارته إنما هى حضارة كاملة دائمة، وأن الصورة الدنيوية لها بعد تحررها من ربة الدين هى الصورة النهائية الناضجة للحضارة بوجه عام، وهى صورة لا يمكن أن يعتمروها تدهور أو يصيبها فساد، بل ومن المحتم أن تقود الإنسانية إلى الطريق نحو الوحدة الاجتماعية.

وقد أحدث اتصال العرب الوثيق بالمدنية الغربية، وغزو هذه المدنية لبلادهم، أثراً عميقاً فى طبقة المسلمين المستنيرين، وفى علاقة أفرادها بما توارثته من نظريات وتقاليد دينية، إذ شعروا بحاجة شديدة ملحة إلى التقريب والملازمة بين هذه النظريات والتقاليد وبين الأحوال الجديدة التى وجدوا أنفسهم فجأة فى ظلها. وقد كان من المؤسف حقاً أن تجيء جهود هؤلاء الساعية إلى التوفيق بين الحياة والفكر الإسلاميين وبين مطالب الحضارة الغربية فى الوقت الذى تزعمت فيه ثقتهم بترائهم بل وبيديهم، ونظروا إلى المستعمرين نظرتهم إلى أنصاف الآلهة. فلم يكن من الغريب إذن أن تغلب على محاولاتهم نزعة عقلية هى نزعة أوروبية محضة، وأن تتأثر أفكارهم بالتيارات الفكرية السائدة فى المدنية الغربية، وأن يتبنّوا قيماً كلها أو جلها من قيم الغربيين المستعمرين. فإن كان هؤلاء المفكرون قد انبروا للدفاع عن الإسلام والإشادة

به لصدّ الحملات التي شنها المسيحيون اللطعن فيه حتى لا يقف حائلاً دون غزو مدينتهم (وبضائهم)، فإنما تركّز دفاعهم على إزالة وصمة مناقضة تعاليمه للحضارة، وإثبات مرونة الأحكام والأوضاع الإسلامية، وسهولة تشكّلها حتى تطابق حاجات الجنس البشري في كل زمان ومكان.. وقد اكتشف هؤلاء شبهاً قوياً بين الإسلام «الحق» وقيم السلف الصالح، وبين القيم الغربية الحديثة. فالإسلام يخاطب العقل، بدليل أنه لم تكن لنبيّه معجزة غير القرآن. وقد أبطل عمر قطع يد السارق عام الرمادة. والقراءة المتعمقة للقرآن تهدينا إلى أنه في حقيقة الأمر غير مرحب بتعدد الزوجات. وقد أوصى الإسلام بالمساواة بين الجنسين، وحرر المرأة، وجعل الناس سواسية كأسنان المشط، فأذاب الفوارق بين الفقراء والأغنياء.. وقد كان منهم من أنكر ضرورة الجهاد في زماننا هذا وأسقطه من الفرائض، وكان منهم من دعا إلى السلم والتسامح ونهى عن التعصب، ومنهم من جدّ في أن يبعث الميل إلى العلم والثقافة، والعناية بالتربية والتعليم، وتحرير المرأة، والاهتمام بالصحة. وكان أذكاهم من دعا إلى التفرقة بين معالم الإسلام الأصلية وبين الزيادات التاريخية التي أضيفت إليه عن طريق الإجماع، والتي يسهل التضحية بها في سبيل حاجات المدنية، ومقتضيات العمران، وذهب إلى أنه لا يقف بين المسلمين وبين النهضة غير حوائل زائفة في إمكانهم إزالتها بإصلاح نظام التعليم، وتطهير الإسلام مما علق به من شوائب عبر القرون، وإعادة صياغة العقيدة الدينية على ضوء الفكر الحديث، والعناية بدراسة العلوم الحديثة وتاريخ أوروبا للتوصل إلى معرفة سرّ تقدمها.

وهكذا أخذ من سمّوا بالمصلحين في كل البلاد الإسلامية يدعون دعوات متشابهة، عمادها أن تأخذ شعوبها من المدنية الغربية ما يناسب، وأن يأخذوا من المدنية الإسلامية ما يناسب.. وكانت خلاصة رأيهم «أن عقدة العقد في موقف المسلمين اليوم هي التوفيق بين المدنية الغربية والمبادئ الإسلامية. غير أن المسلمين لحسن الحظ ليسوا مخيرين بين التمسك بدينهم وبين اعتناق الحضارة الغربية. فمدنية الغرب غير مؤسسة على دين، وإنما على العلم والتجربة والاختبار، وهي بالإضافة إلى هذا محدودة بحدود المادة. فليس هناك ما يمنع من أخذ المدنية الغربية المادية بعد صبغها صبغة روحانية إسلامية. والحق أن الاثنين ليسا متخاضمين بطبيعتيهما، وإنما هما متخاضمان من سوء فهم سكانهما. وبالإمكان توثيق العلاقة الودية بينهما واستعانة كل منهما بما عند الآخر من مزايا، فخير للعالم الإسلامي اليوم أن يأخذ من المدنية الغربية كل علمها وتجاريها في الصناعة والزراعة والتجارة والطب والهندسة وسائر العلوم، من غير قيد ولا شرط، ثم يحتفظ مع ذلك بروحانيته التي يلون بها هذا

العلم، فتجعله موجهاً لخير البشرية لا لفلو في كسب مال، ولا لإفراط في نعيم، ولا للقوة والغلبة، ولكن للخير العام. وهذا هو المبدأ الذي يضيء للمسلمين الطريق، ويبدد حيرتهم، ويحل الكثير من مشكلاتهم. فدينهم الإسلامى لا يمنهم أى منع من ذلك، بل إن الإسلام حث على طلب العلم ولو في الصين، ولا شىء يمنهم من ذلك إلا تمسكهم بالتقاليد الموروثة، وتقديسهم للعادات المألوفة، ودينهم براء من ذلك... وإنما برزت أوروبا الشرق المسلم في مضمار الحضارة لا لأنها مسيحية، وإنما لعنايتها بتطوير العلوم وإعمال المسلمين لها. وليس في الإقبال على التعليم من الغرب من بأس، ولا هو مدعاة للخجل، فإنما كان الفضل في نهضة العلوم في أوروبا راجعاً إلى استفادتها من النقل عن المسلمين الذين عنوا بالحفاظ على تراث الإغريق وتطويره وتنميته».

هكذا كانت دعوة هؤلاء «المصلحين»، وهى دعوة أيدها المستعمرون وأبهجتهم، خاصة إن صدرت عن رجال الدين البارزين من أمثال الشيخ محمد عبده، إذ راؤوا في مجملها دعوة مقنعة إلى التغريب. والذي نتج عن هذه الدعوة هو ما كان متوقعاً منها، فتحت الباب على مصراعيه أمام الاقتباس من مدينة الغرب بون حرج، في حين أغفل الشطر الثانى وكأنما لم يورده الدعاة إلا من قبيل التمويه والنفاق وتسهيل الأمر.

فهنا إذن إحساس يتفوق الغرب، وإدراك لضرورة الدفاع، واعتراف بصحة الأسس التى تقوم عليها حضارة الدول الأوروبية تضمنته الإشارة إلى الشبه بينها وبين مبادئ الإسلام، وهو أكثر صنوف الإطراء والمديح إخلاصاً..

(٣)

فإن كان الطابع الدنيوى للحضارة الغربية ردّ فعل لأحوال الخلافات الدينية في العصور الوسطى، فقد كان من المحتم أن تحدث في الغرب، إن عاجلاً أو آجلاً، حركة مضادة لهذا الطابع. وقد بدأت هذه الحركة المضادة في التبلور في الخفاء في الوقت الذى كان سائر العالم - ومنها الأقطار العربية - ينهل فيه من الحضارة الغربية نهلاً، ويتخلى عن تراثه الثقافى وعن تقاليده ودينه. وكانت المأساة المضحكة أنه في اللحظة التى تم فيها تبنى الشعوب غير الغربية لحضارة الغرب الدنيوية، وجدت هذه الشعوب نفسها قد وقعت في شباك أزمة الغرب الروحية

التي انتابته فجأة فى القرن العشرين، والتي كان لها صداها فى مختلف بقاع العالم. فمنذ نشوب الحرب العالمية الأولى، بدأ الغربيون أنفسهم يدركون أن حضارتهم الدنيوية الحديثة ليست بالكاملة على الإطلاق كما خالوها فى البداية، وأنها أبعد ما تكون عن الحصانة ضد الانهيار وضد عنيف الأزمات. وقد كان الأمر فى الواقع مؤسفاً بالنسبة للشعوب غير الغربية أكثر منه بالنسبة لشعوب الغرب. فقد وجدت الأولى نفسها معلقة بين تراث ودين وتقاليد قد هجرتها وفقدت ثقتها فيها، وحضارة غربية لم تملك بعد ناصيتها، ولم تكد تبلغ يدها الثمرة حتى بدت تلك الثمرة معيبة فاسدة. وكان أن نتج عن هذا شعور حاد بالمرارة تجاه الغرب، وحدث انفصام فى المجتمع وفى نفوس الأفراد لما يلتئم. صاروا كالغرباء الذى مضى يتعلم مشية الطاووس، فلم يتعلمها، ونسى مشيته.

وقد علمنا التاريخ أنه فى المجتمعات التى تمر بهزات عنيفة، أو تطورات ضخمة متلاحقة، كثيراً ما تظهر جماعات دينية انعزالية تميل إلى أن تغلق الأبواب على نفسها فى عالم خاص بها، وتقلل إلى أقصى حد ممكن من صلاتها وعلاقاتها ببقية العالم. وقد ظهر مثل هذه الجماعات بين كل من اليهود والمسيحيين والمسلمين، وربما بين غيرهم من أتباع الديانات الأخرى. فمن بين أبرز الأمثلة التاريخية على رفض التكيف وفق الأحوال الجديدة، موقف الفريسيين اليهود من غير اليهود، إذ وضعوا القواعد المفصلة الصارمة التى تكفل تجنب كل صلة بمن هو ليس يهودياً وذلك حين كانت الهيلينية تهدد بإبتلاع الديانة اليهودية واستئصالها من الوجود. كذلك ظهرت فى بقاع كثيرة من العالم المسيحى، خاصة منذ منتصف القرن التاسع عشر، جماعات (أشهرها جماعة شهود يهوه)، أفرادها من المسيحيين الأتقياء الذين وجدوا من الصعب أن يوفقوا بين الاكتشافات الحديثة فى علوم الفلك والطبيعة والكيمياء والنظريات المتعلقة بتاريخ الأرض وظهور الحياة فيها، وبين مفهومهم التقليدى عن الكتاب المقدس. وكان أن وجهوا همهم الأكبر إلى تجنب الاتصال بالتيارات العلمية والفكرية التى سادت مجتمعاتهم، ورأوا أنه لا بد من أجل حماية عقيدتهم من عزلة صارمة وسط مجتمع لا بد أن تودى به ثقافته وأنماط عيشه إلى الكفر. وكانت النتيجة أن قبلت هذه الجماعات وضع الأقليات فى مجتمع أفرادها على نفس دينها فى الظاهر على الأقل.

وقد كان هذا هو ما حدث أيضاً فى العالم الإسلامى مع بداية الثلاثينات من هذا القرن، حين بدأت تظهر جماعات إسلامية دعوتها شديدة الاختلاف عن دعوة المصلحين الإسلاميين من أتباع محمد عبده، بل ورأت فى هؤلاء «المصلحين» شبهة قويا بدعاة التغريب إذ

هم لم يطعنوا فى قيم الغرب وإنما انتحلوها للإسلام، فلم يقدموا بفعلهم هذا بديلاً حقيقياً لأمتهم. وقد نهبت هذه الجماعات الجديدة، بدءاً بجماعة الإخوان المسلمين، إلى أن الإسلام بمفرده قادر على التصدى لكل تفاصيل مظاهر حياة الفرد والمجتمع دون حاجة إلى اقتباس من حضارات وأنظمة أجنبية. ومع ذلك، ورغم هذا الإصرار منهم على شمولية الإسلام وتفردّه، وتميز كل نظمه ومفاهيمه عن كل النظم والمفاهيم الغربية، لم يفلحوا إلا فى إبراز حفنة من النقاط والقضايا، ركزوا عليها وألحفوا فى تكرارها إلى حد الإملال، دون أن يتجاوزوها إلى غيرها إلا فى النادر. وأعنى بهذه النقاط: موضوع الربا وفائدة البنوك، وسفور المرأة وتحديد النسل، والحدود، وكراهة العلمانية والعقلانية، والنفور من استخدام سبل البحث العلمى والمنهج التاريخى فى مجال الإسلاميات.

ثم عيب خطير آخر يتمثل فى مفهوم أفراد هذه الجماعات عن المعرفة. فهى عند المجتمعات المتسمة بالحيوية والتحضر تعنى استخدام المعروف فى إمالة اللثام عن المجهول. أما عند هؤلاء فهى لا تعنى أكثر من تجميع المعلومات، والمعلومات فى رأيهم ليست بالمتطورة، النسبية، القابلة للتوسع، وإنما هى ثابتة خالدة. وقد نجم عن هذا المفهوم ثلاث عواقب:

الأولى: أن المعرفة عندهم لم تعد عنصراً ديناميكياً فى الفكر، بل كتلة جامدة، مما أسهم فى قهر كل نشاط فكرى حرّ بدعوى مخالفته لأحكام السلف.

والثانية: أن اعتبار المعرفة دائرة مغلقة ثابتة يجعل من المحال أطراح شىء من المعارف المقبولة متى ثبت خطؤها أو عدم مسابقتها لأحوال العصر، ويجعل من الصعب تقبّل المعارف الجديدة ما لم تجد لها سنداً فى فكر الأقدمين.

والثالثة: أن حصار سبيل اكتساب المعرفة هو تجميعها من كتب الأسلاف، أو الكتب الحديثة القائمة على كتب الأسلاف، لا التحليل والاستنباط والتجربة والفكر الحر. وكلها عواقب خلقت عند غير المسلمين اقتناعاً بأنه لا يمكن للإسلام أن يكون له مستقبل ما دام عاجزاً عن مسايرة التطور على ضوء الجديد من الأفكار والنظريات العلمية.

(٤)

لقد أصاب الأفغانى ومحمد عبده وأتباعهما فى بيانهم لضرورة إعادة تفسير الإسلام

تفسيراً يوائم احتياجات العصر الحديث والمجتمع المتغير. غير أن موقفهم الدفاعي والاعتذاري تجاه الحضارة الغربية حال دون تقديمهم لمثل هذا التفسير الشمولي، ومال بهم إلى الاقتصار في فكرهم على التصدي لقضية هنا وقضية هناك من القضايا التي تشغل الأذهان في الغرب، مثل الديموقراطية ووضع المرأة، وذلك من قبيل الرغبة في الرد على خصوم الإسلام في الغرب، أو الأخذ بمشورة الأصدقاء الناصحين في الغرب أيضاً. وقد كان أنصار التيارات الإسلامية الجديدة على حق في انتقاداتهم للموقف «التفريبي» لدى هؤلاء المصلحين التوفيقيين، لما ينطوي عليه بالضرورة من إحساس بالنقص دفعهم إلى محاولة التبرير. غير أن أنصار هذه التيارات، باندفاعهم في الاتجاه المضاد، وقعوا في خطأ مماثل. إذ بينما ركز الأولون على نفى أن تكون فائدة البنوك من الربا المحرم، ونفى أن يكون الإسلام قد انتقص من حقوق المرأة، وحدّ من دورها الاجتماعي، والإصرار على أن الشورى الإسلامية هي بعينها ديموقراطية الغرب السياسية، وعلى اهتمام الإسلام بالدعوة إلى تنمية العلوم وتحصيلها، أو بعبارة أخرى: بينما ركز الأولون على بيان اتفاق الإسلام مع المقومات الإيجابية للحضارة الغربية، اتجهت الجماعات الإسلامية الجديدة إلى انتقاء قضايا محدودة للغاية لإثبات تميز الإسلام واختلافه عن المفاهيم والقيم الغربية، كضرورة عودة النساء إلى الحجاب، وضرورة تأسيس بنوك إسلامية لا فائدة فيها، وضرورة إقامة الحدود الشرعية كقطع يد السارق وجلد الزاني وشارب الخمر، والتفرقة في المعاملة بين المسلمين وأهل الذمة. أما فيما عدا هذا من مسائل اقتصادية واجتماعية وسياسية بالغة الحيوية والأهمية، فلا يكاد يكون ثمة علاج أو برنامج أو فكر. وهو ما يقودنا إلى نتيجة هامة: هي أن فكر الجماعات الإسلامية الجديدة ليس أقل انشغالاً بالغرب من فكر المصلحين التوفيقيين. ولكن الأفغانى ومحمد عبده وتلامذتهما انشغلوا به على نحو إيجابى، فى حين انشغلت به الجماعات الجديدة على نحو سلبى. وشبح الغرب عند هؤلاء وأولئك هو الشبح الجاثم الرابض، مغرٍ ومنقَرٍ معاً، يدعو إلى الإعجاب ويستثير الكراهية فى آن واحد.

قلة قليلة فحسب من المفكرين الإسلاميين المحدثين رأت الحل الأمثل فى الإقدام على دراسة موضوعية هادئة للأفكار والنظم الغربية من أجل تحديد طبيعة الاستجابة الصحية الواجب على المسلمين أن يتبنوها إزاء الضغوط الغربية المختلفة على مجتمعهم. فإن كان فى الحضارة الغربية من العناصر ما هو فاسد مفسد، فالكثير من الأفكار والنظريات التى ورثناها عن أسلافنا المسلمين هو أيضاً فاسد مفسد، وما لم نتصدّ بالدراسة لتراثنا وتقاليدنا

هى الأخرى بنفس الموضوعية والهدوء والمعايير العلمية والحرص على تجنب الآراء التحكيمية، فما من أمل يبقى فى قدرتنا على مواجهة التحديات المعاصرة. كما أنه ما لم نول اهتماماً بما يمكن للدين أن يحققه لخير الإنسان الاجتماعى والاقتصادى مماثلاً لاهتمامنا بما يمكن للإنسان أن يفعله من أجل تمجيد الخالق، فما من أمل يبقى فى قدرة الإنسان على حل المعضلات.

غير أنه حتى هذه القلة القليلة المتعلقة نراها اليوم فى انحسار، فتفاقم مشكلات المجتمع العربى، وتعاظم المد الفكرى والحضارى الغربى، يميلان بالبعض إلى هجر الاعتدال وفقد الثقة بجذواه، والتعاطف مع التطرف باعتباره السبيل العلى الأوحى إلى مواجهة الأخطار التى تهدد بابتلاع هويتنا، واستفطاع بهظ الثمن الاجتماعى والنفسى الذى لابد من دفعه إن نحن أردنا اللحاق بركب الغرب فى مضمار التقدم. أضف إلى ذلك أن انتشار تأثير الجماعات الإسلامية المتطرفة فى صفوف الجماهير العريضة، وازدياد فرص استيلائها على الحكم، على نحو ما حدث فى إيران، خلال سنوات قلائل، دفعا بعض الانتهازيين من المفكرين إلى التضحية باستنارته، والتعبير عن تعاطفه واتفاقه فى رأى مع فكر تلك الجماعات، من أجل ضمان الرضا والشعبية، أو الاستفادة المالية من حكومات دول عربية غنية تنفق بسخاء على وسائل نشر ذلك الفكر. هذا إلى أن ميل السلفيين إلى الدخول فى تنظيمات تجمع شتاتهم، وتنسق خطاهم، وميل المجددين المستنيرين، شأن المصلحين التوفيقين قبلهم، إلى العمل فرادى، لا يصبرون على تنظيم، يزيد من قرص نيل الأولين دون الآخرين لأغراضهم.

(5)

ما من شك فى أن مستقبل الأمة يتوقف بصفة أساسية على قدراتها على التوصل إلى مفهوم إيجابى يساعدها على مواجهة التوترات الناجمة عن تغييرات هائلة طرأت على المجتمع العربى فى القرنين الماضيين، والتغلب على القوى المخربة التى تدفع المجتمع دفعا إلى المزيد من التفكك والتحلل.

كذلك فإنه ما من شك عندى فى أن كافة الحلول التى طرحت فى مجتمعنا خلال المائة سنة الأخيرة، معيبة قاصرة:

فالمحافظون الرافضون لكل تجديد وكل مساس بالأفكار والمعتقدات الموروثة، قد فقدوا صلتهم بالعصر واحتياجاته، ولم تعد حججهم بالقادرة على إقناع المثقفين، وهى التى يصوغونها يوماً فى قوالب فكرية شكلية تستند استناداً كاملاً إلى أقوال السلف، مما لا يمكن أن يتجاوب المحدثون معه. بل إنه حتى اللغة التى يستخدمونها توحى على الفور بخلو جعبتهم من رسالة لعصرنا الذى نعيش فيه. ففكرهم تستغرقه التكاليف الشرعية. وما من أحد منهم حاول أن يوجه الإسلام فى قنوات خلاقة، وإنما قيده بنظرة رومانسية درامية لتاريخه، أساسها انتقاء تحكمى للمادة، واستبعاد لكل ما ينقض الصورة التى يفضلون أن تكون الأحداث فى الماضى قد تمت عليها. وهم بهذا أغلقوا الباب فى وجه أهم عامل كان بوسعه أن يحفظ على الفكر الإسلامى مرونته، ويحول دون تعفن العقائد، ألا وهو المنهج التاريخى العلمى الذى ابتدعه الغرب، والنظرة التاريخية إلى الأمور.

وأما المصلحون الإسلاميون التوفيقيون فموقفهم فى جوهره مشابه كما قلنا لموقف دعاة التغريب العلمانيين، وبالتالي فإنهم لم يطرحوا بديلاً حقيقياً للقيم الغربية. فإن كان دعاة التغريب قد أعلنوا أن «القيم الغربية هى القيم المثلى فلنتبناها»، فإن المصلحين التوفيقيين قد أعلنوا أن «القيم الغربية شبيهة بالقيم الإسلامية فلنتبناها»! وقد ظل هؤلاء يوماً يلهثون فى عدوهم وراء التغريبين كى يبرروا كل جديد، ولكى يوجدوا الأسس الدينية لتبنى المفاهيم الغربية. فإن كان العلمانيون قد نادوا بأن العلم والعقل هما مفتاحا التقدم والحضارة، فقد تركوا للمصلحين الإسلاميين مهمة إثبات أن الإسلام يقر هذا الموقف.

وأما عن دعاة التغريب والعلمانية، فإنهم مع كل تحمسهم للديموقراطية والمساواة وغيرهما من المفاهيم الغربية، لما يكن بوسعهم قط الادعاء بأنهم يعبرون عن إرادة الشعب، وإنما أفصح لسان حالهم عن أنهم إنما يسعون للصالح العام باعتبارهم الصفوة، وأنهم أدرى من الشعب باحتياجات الشعب ومصلحته. فهم صفوة حسنة النية. غير أنهم دائماً صفوة، مباينة للجماهير فى عقائدها وطريقة تفكيرها. صحيح أن المفهوم العلمانى والاتجاه إلى محاكاة الغربيين كانا قد انتشرا فى صفوف الجماهير من جراء التعليم المدنى، ووسائل الاتصال والإعلام المتزايدة، والتصنيع والحياة فى المدن، وأنماط الاقتصاد وغيره، وأن تأثير الفرنجة إنما كان ضخماً بقدر ما كان الفراغ فى الساحة الفكرية العربية ضخماً. غير أن الثابت الواضح الآن أن الولاء الأول لدى الجانب الأعظم من الجماهير فى العالم العربى هو للإسلام دون غيره، وأن الفكر الإسلامى لا يزال له بعد أربعة عشر قرناً سلطان عليها تصعب

زعزعته. وقد كان المسلمون الأوائل إبان ازدهار حضارتهم ينهلون نهلاً من منابع الحضارات والثقافات غير الإسلامية، دون تحرج أو تحفظ أو حيرة أو قلق. فقد كانت الثقة بالنفس تعمر صدور هؤلاء وهم الفاتحون السادة. أما وقد وقع المسلمون في براثن استعمار الفرنجة وباتوا يعانون من الهيمنة الاقتصادية والسياسية للغرب على أقطارهم، فقد فقدوا هذه الثقة، وصاروا يرون في كل اقتباس من نظم الفرنجة مكيدة للإسلام وفخاً، واقتباساً معادياً للدين. والواقع أنه لولا هذا الخلل النفسى، وهذا الارتياح المرضى، وفقدان الثقة، لكان للإسلام المعاصر، في زمننا، شأن آخر.

تقييم المسلمين للحروب الصليبية

بين التفريط والإفراط

المعروف عن الإنسان العربى اتجاهه إلى اتخاذ مواقف عقلية متطرفة من الناس والعالم والأحداث حوله، وإلى النظر إلى كل ما يصادفه، وكل من يلقاه، بمنظار لا يرى من الألوان غير الأبيض الناصع، أو الأسود القاتم، دون الفروق الدقيقة فى الأفكار والألوان والظلال، لا يعبر عن رأيه إلا فى صيغة منتهى التفضيل، ولا يرتاح خاطره إلا إن تطرّف فى أحكامه.

وقد يرجع البعض هذا الميل إلى طبيعة الصحراء التى تركت أثراً عميقاً فى شخصية العربى. ففي الصحراء يعقب الشتاء القارس الصيف القانظ، والليل ذا النسمة الباردة المنعشة نهار خائق، والبدوى فيها يصادف بعد السفر الطويل المضمنى فى أرض قاحلة جرداء، واحات وافرة الخضرة والمياه والظلال، وهو قد يلقى أثناء سيره بناقته التى تحمل كل ما ملكت يداها، عدواً يجردّه من كل ثروته فى دقائق، فينتقل خلال هذه الدقائق من حال إلى حال، ثم ها هى الوديان الصخرية التى تظل معظم الحول فى جفاف الموت، يأتى عليها موسم الأمطار فتغطيها السيول المتدفقة التى تجرف أمامها كل ما اعترض سبيلها.. فليس من المستغرب إذن أن نجد العربى فى مسلكه الشخصى ينتقل من حال الهدوء والاستسلام والتوكل بفتة إلى انفجار عاطفى مدمر، ومن الكرم المشرف على السرف إلى الحرص المشين وإلى الغدر، ومن الشجار المبالغ فى عنفه إلى الصلح والعناق وتبادل القبلات، ويأتى هذا الانتقال فى سرعة عجيبة مذهلة، لا تعرف مراحل متدرجة فى المشاعر أو الأفكار.

وقد أثر هذا التكوين النفسى فى أحكامه، فكان فيها شديد الميل إلى المبالغة، لا يحسن غير المباركة أو اللعن، ولا تخطر بباله ضرورة التزام الدقة. فالدقة إنما هى من معالم المجتمع الصناعى ومن المقتضيات الأساسية للحياة فيه. والفرد فيه إن أغفلها دفع ثمناً باهظاً لهذا

الإغفال، فعمله مرتبط بألة لا يسمح تسييرها بإغفال الدقة. والمواخذه العنيفة والجزاء فى انتظاره إن هو تأخّر عن عمله بضع دقائق. والعلاقات فى مجتمعه خالية إلى حدّ بعيد من الاعتبارات الشخصية، وعليه إزاءها أن يكون دقيقاً فيما يقول أو يفعل. أما الفلاح أو البوى الذى يتمتع بقدر أو فى من الاستقلال، ومن الحرية فى أن يذهب ويحىء وقتما شاء، وفى إطلاق الكلام على عواهنه، لن يؤدى خطأ مفرد فى عمله إلى كارثة، ولا بيان تعوزه الدقة إلى اضطراب فى مجريات الأمور، فهو بمأمن من الأخطار التى تنجم عن المبالغة، ولا بأس من أن يطلق لنفسه العنان فيها.. واختصاراً فإن المبالغة ظاهرة حضارية، شديدة الارتباط بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية.

الاستهانة بالحروب الصليبية لدى المسلمين المعاصرين لها

ومن الأمثلة الصارخة لهذا الاتجاه إلى اتخاذ مواقف عقلية متطرفة، ذلك التناقض الواضح بين موقف المسلمين العرب المعاصرين للحروب الصليبية فى الشام (١٠٩٧ - ١٢٩١ م.) من تلك الحروب، وبين موقفهم اليوم من أحداثها ومغزاهما ودلالاتها.

إذ من منّا لا يجده أمراً غريباً صعب التفسير ذلك القدر من اللامبالاة والاستهانة، بل والإغفال، إزاء الحروب الصليبية، مما نلاحظه فى المسلمين العرب المعاصرين لها، على اختلاف طبقاتهم ومواطنهم، ومستواهم الحضارى أو الثقافى؛ علمائهم وعامتهم على سواء، وعلى مدى القرنين اللذين استغرقتهما تلك الحروب؟ وإنه لمن الشائق حقاً أن نرى الإمام الغزالى فى السنة التى دعا فيها البابا أربان الثانى إلى شن الحرب الصليبية ضد المسلمين (١٠٩٥ م.)، يعتزل التدريس ويهجر بغداد لیسلك طريق الزهد والتصوف، ثم نراه بعد أعوام قلائل من استيلاء الصليبيين على بيت المقدس، وفى نفس السنة التى استولوا فيها على مدينة حماة (١١٠٨ م.)، يتمّ تأليف كتابه «المنقذ من الضلال» الذى لا يمكن لقارئه أن يخمّن من خلال قراءته مجريات الأمور العظيمة التى كانت تحدث وقتها فى عالمه الإسلامى.

فإن نظرنا فى كتب المؤرخين المسلمين المعاصرين للحروب الصليبية ممّن سجلوا وقائعها وبواعثها ببعض التفصيل، لم نجد أيّاً منهم قد خطر بذهنه أن ينهض بتأليف كتاب يُفرده لأحداث تلك الحروب، وإنما نجدهم يوردون ما كتبوه عنها ضمن تواريخهم العامة (مثل

«الكامل فى التاريخ» لابن الأثير، و«مرآة الزمان» لسبط ابن الجوزى)، أو التواريخ المكتوبة عن الأقاليم المختلفة (مثل «ذيل تاريخ دمشق» لابن القلانسى، و«زبدة الحلب من تاريخ حلب» لابن العديم)، أو عن الأسر الحاكمة (مثل «الباهر فى تاريخ الدولة الأتابكية» لابن الأثير، و«مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب» لابن واصل)، أو فى كتب التراجم (مثل «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية» لبهاء الدين بن شدّاد، و«كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين» لأبى شامة).. فليس ثمة كتاب عربى إذن من العصور الوسطى عن «تاريخ الحروب مع الفرنج». وعلى من أراد أن يتصدّى لمهمة دراسة موقف المسلمين من تلك الحروب، أن ينتقى ويوفّق، ويجمع ويربط بين فصول من كتب عربية شتى فى هذه الفروع المختلفة من الكتابة التاريخية، وهو ما اضطلعت به فى كتابى «الحروب الصليبية فى كتابات المؤرخين العرب المعاصرين لها» (مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٣).

أسباب قلة أكتراث المسلمين بتلك الحروب

وفى ظنى أن أهم أسباب ضعف اهتمام المؤرخين العرب المعاصرين للحروب الصليبية، وضعف اهتمام المسلمين عامة خلال تلك الحقبة بتلك الحرب، هو أن الأقطار شرقى البحر المتوسط التى تأثرت بفزوات الصليبيين كانت وقت بدء الحروب مقسمة بين عدد من الأمراء ضئيلى الشأن، أهمّ ما يشغل بالهم هو الاحتفاظ بمراكزهم، والتغلّب على منافسيهم فى المنطقة.. ولم يكن ثمة حافز يحفزهم على الاتحاد فيما بينهم ضد الإفرنج. بل إنه فى بعض الأحيان كان بعضهم يعقد أحنافاً مع الإفرنج ضد غيره من المسلمين، وكانت هذه الفرقة فى صفوف المسلمين هى التى مكّنت الصليبيين من تحقيق قدر من النجاح. أضف إلى ذلك أن أقوى دولة إسلامية وقت سقوط بيت المقدس فى يد الإفرنج كانت دولة السلاجقة التى هيمنت على بغداد ومعظم المراكز الشرقية العظيمة للحضارة الإسلامية، وإن كان مقر الحكومة فيها فى العادة هو إصفهان التى تستغرق الرحلة منها إلى مكان القتال نحو ستة أسابيع، والمؤكد أن أهل إصفهان ما كان يقلقهم غزو الإفرنج لبقعة صغيرة نسبياً بعيدة عنهم.. بل إنه لبوسع المرء أن يلحظ قلة الاكتراث بالحروب الصليبية فى كتابات المؤرخ العظيم ابن خلدون. ففى مقدمته الطويلة نجد الإشارات الوحيدة إلى الحروب الصليبية لا تشغل غير فقرات قليلة عن الهيمنة البحرية على البحر الأبيض المتوسط، وجملتين أو ثلاث عن مساجد القدس ومبانيها

المقدسة.. واختصاراً نقول إن اهتمام الشطر الأعظم من العالم الإسلامى فى العصر الوسيط بالحروب الصليبية لم يكن أكبر من اهتمام بريطانيا بالحرب التى دارت فى القرن التاسع عشر عند الحدود الشمالية الغربية للهند، وربما تركت فى وعى الرأى العام الإسلامى انطباعاً أقلّ حدة مما أحدثته الحرب الهندية فى نفوس البريطانيين.

اهتمام الأوروبيين العميق بالحروب الصليبية

أما حين ينظر القارئ العربى فى مؤلفات الأوروبيين عن تاريخ قارتهم فى العصر الوسيط، فإنه يعجب للمكانة المرموقة التى تحتلها الحروب الصليبية فى تلك التواريخ، واعتبار تلك الحروب المسئول الأول عن نموّ وعى الأوروبيين المسيحيين بأنفسهم.. لقد كان لشعور أوروبا الغربية (بلاد الفرنجة) بالنقص عند مواجهتها للحضارة الإسلامية جوانب متعددة. فالتكنولوجيا الإسلامية كانت متقدمة عن التكنولوجيا الأوروبية فى كثير من الميادين. وكان أثرياء المسلمين أكثر استمتاعاً بالكماليات وأساليب الحياة الرغدة من أثرياء الأوروبيين. ولم يقتصر نور الحروب الصليبية فى الشام (وصلات الأوروبيين بمسلمى الأندلس) على تعريف أوروبا الغربية بالكثير من المنتجات المادية والاكتشافات التكنولوجية فى ديار الإسلام، ولا على إثارة اهتمام الأوروبيين بالعلوم الفلسفية، بل إنه دفع أوروبا أيضاً إلى تكوين صورة جديدة لذاتها، وصورتين جديدتين (متناقضتين) للإسلام:

فمن ناحية، نجد أن الاتصال المباشر بالمسلمين فى ديارهم فتح أعين الغربيين لأول مرة على مدى التشويه الذى كان يُلحقه رجال الكنيسة فى أوروبا عمداً بصورة تعاليم الإسلام وسيرة الرسول، وأحوال المسلمين وأخلاقهم وطبائعهم ومستواهم الحضارى، حتى غدت صورة مشوية إلى حدّ رهيب بالأوهام والأخطاء والكذب، ويات من الضرورى بعد هذا الاتصال المباشر، والاطلاع على كتب المسلمين عن دينهم وتاريخهم، إعادة رسم الصورة على نحو أكثر أمانة وموضوعية، وأقرب إلى واقع الأحوال. وبالتالي فإن المسلمين مدينون إلى حدّ كبير إلى الحروب الصليبية بتصحيح المفاهيم الأوروبية عن الإسلام.

ومن ناحية أخرى مقابلة، فإن الأوروبيين المسيحيين أقلقهم ما شهدوه إبّان الحروب الصليبية من إحساس المسلمين الثابت الذى لا يتزعزع بتفوّقهم وفضلهم على غيرهم، فدفعهم

الإحساس بالنقص إلى التحول إلى ميدانٍ العقيدة والتاريخ في سعيهم لإثبات وجودهم، والتعويض عن عقدة النقص في مواجهة الحضارة المتفوقة. وكان سبيلهم إلى ذلك ذا شقين:

الأول: سعيهم إلى إقناع المسيحيين الآخرين بأنهم في حروبهم ضد المسلمين إنما يحاربون من أجل نصرته النور والدين الحق على قوى الظلام، وأنه حتى إن كان المسلمين أقوياء فإن المسيحية هي خير من الإسلام، وأجدر بالقلبة والسيادة.

والثاني: تهوينهم المتعمد من شأن أثر المسلمين في حضارتهم الأوروبية، (وهو تهوين لا يزال نلحظه في كتابات المؤرخين الغربيين غير المنصفين إلى يومنا هذا)، ومبالغتهم في بيان أفضال التراث اليوناني والروماني على هذه الحضارة، فكان أن نتج عن الحروب الصليبية في نهاية الأمر إقبال نهم من الأوروبيين على دراسة التراث الأدبي والفني والفلسفي والعلمي للإغريق والرومان، والتظاهر بالاستخفاف بالإنجازات الإسلامية والعربية في تلك الميادين. وبالتالي فإن الأوروبيين مدينون إلى حدٍ كبير إلى الحروب الصليبية ببزوغ عصر النهضة في قارتهم.

من التفريط إلى الإفراط

مقابل هذا الإغفال والإهمال غير المغتفرين من جانب مسلمي العصر الوسيط لمغزى الحروب الصليبية وأهميتها ودلالاتها، نلمس اليوم من جانب العرب والمسلمين مبالغة في تصوير نوايا الفرنجة تجاههم سواء في زمن تلك الحروب أو زماننا نحن، فعندهم أن الباعث في الزمانين واحد: وهو كراهة الإسلام والقصد إلى استئصال شأفته. ولا أبالغ إن قلت إن أحد الأسباب الرئيسية وراء اهتمام قرأتنا اليوم بدراسة الحروب الصليبية (وهو اهتمام ملموس تشهد به دور النشر في العالم العربي)، هو محاولة فهم المقاصد الغربية في عالمنا المعاصر إزاء الإسلام والمسلمين، وحسبنا أن نشير إلى كثرة تردّد وصف الأمريكيين والأوروبيين بالصليبيين الجدد سواء على ألسنة العامة أو في مقالات الكتاب الإسلاميين، ووصف النوايا الغربية تجاه الثورة الإيرانية والنظام الإيراني بالنوايا الصليبية، وإطلاق البعض إسم «الحرب الصليبية الثامنة» على حرب الحلفاء الغربيين ضد العراق منذ عامين.

فالواضح لنا أن المسيحية لم تعد تلعب دوراً ذا بال في الحضارة الغربية الحديثة، وأن

الانتصار لها لضمان غلبتها على سائر الأديان لم يعد من أهداف هذه الحضارة. كل ما هناك هو ضيق صدر بمخلفات أية حضارة أو عقيدة قد تعرقل من مسيرة الأمور على ما يوافق هوى الغربيين، أو من تنفيذ مخططاتهم سواء ما اتصل منها بإقامة البيت الأوروبي الموحد أو النظام العالمى الجديد. أو تؤخر من إرساء أسس سلطة عالمية تتصدى لمشكلات كوكب الأرض الصغير. وأغلب ظنى أنه إذا استمر العالم الإسلامى على تحجره الراهن، واقترن مفهوم الإسلام عند الغربيين بالإرهاب والعنف، وإهدار حقوق المرأة والأقليات الدينية، والاستهانة بحقوق الإنسان، فيسشرع هؤلاء القوم فى التساؤل: «إذا كنا قد نجحنا فى تقويض دعائم العقيدة الماركسية رغم ما كانت تحيط نفسها به من سلاح ودعاية، ورغم أصولها الأوروبية، فما بالناس لا نزلزل أركان عقيدة متخلفة متحجرة لدى هؤلاء البرابرة الهمج الذين لا يملكون سلاحاً، ولا يتقنون فنون دعاية، ولا يستمتعون من الدنيا بقذاء أو كساء إلا ما نجود به عليهم؟»

ستكون عندئذ ثمة مواجهة، لكنها ستكون مواجهة حضارية لا دخل للصليب فيها، ولا هى من جنس الحروب الصليبية فى شيء.

الدرس الأكبر للحروب الصليبية

ما أراء مؤسفاً حقاً، إزاء هذا الاهتمام الجديد المفاجيء من جانب المسلمين بدراسة الحروب الصليبية، هو استمرار إغفالهم للدرس الكبير المفرد الذى كان خليقاً بهم أن يفيدوا منه وهم فى سبيل هذه الدراسة:

فقد رأى صلاح الدين الأيوبي بوضوح أن ضعف الجسم السياسى الإسلامى، (وهو الضعف الذى أفسح المجال لقيام الدويلات الصليبية فى الشام)، كان نتيجة للانحطاط فى الخلق السياسى.. وعلى هذا الانحطاط ثار صلاح الدين. فلم يكن ثمة فى رأيه سوى طريق واحد لوضع حد له: وهو إحياء الكيان السياسى الإسلامى فى ظل دولة واحدة قوية.. وكان يدرك أن مشكلة العالم الإسلامى ليست سياسية فحسب، بل هى أيضاً، إلى حد كبير، مشكلة أخلاقية ونفسية، وأن التصدى لها على مجرد الصعيدين السياسى والعسكرى من شأنه أن يؤدى إلى الإخفاق فى حلها. وقد رأى أنه إن شاء الحصول على نتائج فعالة، فلا بد من أن

يعزّز إنجازاته وانتصاراته بخلق تيار خلقىّ نفسىّ يعمل فى صالح الأمة جمعاء، ويكون من القوة بحيث تتعذّر معه مقاومته. وقد نجح فى هذا بفضل إلزامه نفسه بمبادئ العدل والإخلاص والصدق وإنكار الذات، حتى أصبح المصدر الذى ألهم كافة العناصر والقوى الساعية إلى وحدة الإسلام فى وجه الفزاة، والبؤرة التى اجتمعت هذه العناصر حولها. والمؤسف أنه ما أن مات الرجل، حتى تناس المسلمون تشخيصه لداء بنى قومه ودينه، وهو التشخيص الوحيد الذى كان بمقدورهم أن يفيقوا منه، وركّزوا بدلاً منه فى حديثهم عن الرجل، على انتصاراته وإنجازاته العسكرية.

* * *

هكذا انتقل المسلمون إذن من التفريط إلى الإفراط فى تقييمهم لدلالات الحروب الصليبية دون أن يعوا درسها الأكبر.

قصة صلاح الدين الأيوبي مع السهروزي المقتول

شهاب الدين يحيى بن حبّش السهروزي (٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م - ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م)، فيلسوف من أعظم فلاسفة الإسلام، وصاحب الكتاب الخالد «حكمة الإشراق»، لُقّب بالمؤيد بالملكوت، وبالسهروردي المقتول تمييزاً له عن آخرين لُقّبوا بالسهروردي. وصفه ابن أبي أصيبعة في كتاب «طبقات الأطباء» بأنه «كان أوجد أهل زمانه في العلوم الحكيمة، جامعاً للفنون الفلسفية، بارعاً في الأصول الفقهية والفلكية، مفرط الذكاء، جيد الفطرة، فصيح العبارة».

وقد أمر السلطان صلاح الدين الأيوبي بقتله عام ١١٩١ م، فقتل مخنوقاً بقلعة حلب، ثم صُلِبَ أياماً في ظاهر المدينة، وكان عمره وقتها ستاً وثلاثين سنة.

حياته

ولد السهروردي عام ١١٥٤ م في سهرورد (من قرى زنجان في عراق العجم)، ونشأ بمدينة مراغة (من أعمال أذربيجان) حيث درس الفلسفة والمنطق وأصول الفقه إلى أن برع فيها، ثم انتقل إلى إصبهان، فبغداد. وفي سن الثلاثين رحل إلى حلب في طلب المزيد من العلم، وكان يحكمها وقتها الملك الظاهر، وهو الابن الثاني لصلاح الدين الأيوبي. يقول ابن أبي أصيبعة:

«قدم السهروردي إلى حلب، ونزل في مدرسة الجلاوية، وكان مدرّسها يومئذ الشريف افتخار الدين رحمه الله. فلما حضر السهروردي الدرس، تباحث مع الفقهاء وناظرهم، وتميّز بينهم، وظهر للشيخ افتخار الدين فضل هذا الشاب وعلمه. غير أن الشيخ لاحظ فقر ثياب السهروردي، فأشفق عليه، وجمع بعد الدرس بعض الثياب دفعها إلى ابنه وقال له:

- تروح إلى هذا الفقير وتقول له: «والدى يسلم عليك ويقول لك أنت رجل فقيه، وتحضر الدروس بين الفقهاء، وقد بعث إليك بشيء تلبسه إذا حضرت».

فلما وصل الولد إلى السهروردي وذكر له رسالة أبيه، سكت السهروردي قليلاً ثم قال:

- حظاً هذا القماش، وتفضل بقضاء حاجة لي.

ثم أخرج جوهرة في حجم بيضة الدجاجة ما ملك أحد مثلاً في حجمها ولونها، وقال للغلام:

- تروح إلى السوق وتنادي على هذه الجوهرة، ومهما بلغ ثمنها لا تتبعها حتى تخبرني.

فلما وصل الغلام إلى السوق نادى على الجوهرة، فانتهى ثمنها إلى مبلغ خمسة وعشرين ألف درهم، فأخذها عريف السوق وطلع بها إلى الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين، فأعجب الملك بها وعرض أن يشتريها بثلاثين ألف. فأستأذنه العريف أن يستشير صاحب الجوهرة بشأن الثمن. وأخذ الغلام الجوهرة وعاد إلى السهروردي وأخبره بما حدث. فأخذ السهروردي الجوهرة، ووضعها على حجر، وضربها بحجر آخر حتى فُتَّتْها، ثم التفت إلى الغلام وقال له:

- خذ هذه الثياب واذهب إلى والدك فقبل يده عنى وقل له: «لو أردنا فاخر الثياب لكنا

اشتريناها»!

أما الملك الظاهر فإنه استدعى العريف ليسأله عن أمر الجوهرة. فلما أخبره العريف بما حدث، ركب الملك إلى المدرسة الجلاوية، واجتمع بالسهروردي وحادثه فأعجب أشد الإعجاب به، وأخذه معه إلى القلعة، وصار له عنده شأن عظيم.

غيرة الفقهاء

كان العالم الفذ الشيخ فخر الدين المارديني الذي كان السهروردي يكثر من التردد عليه في حلب يقول عنه:

«ما أذكى هذا الشاب وأفصحه. لم أقابل أحداً مثله في زمانى. إلا أنى أخشى عليه لكثرة تهوُّره واستهتاره وقلة تحفظه أن يكون ذلك سبباً لهلاكه».

وقد تحققت نبوة الشيخ.

ذلك أن الملك الظاهر شرع يستدعى الأكابر من العلماء والفقهاء والمتكلمين لسمع ما يجرى بينهم وبين السهروردي من المباحث والكلام. وقد بدا للكافة ما كان السهروردي يتمتع به من منطق وعلم باهرين، وتفنن في الأدب والشعر والحكمة. وكان لا يناظر أحداً إلا بزه وغلبه في أية مسألة تثار. فحسن موقعه عند الملك الظاهر وقربه وصار مكيماً عنده، كما استمال خلقاً كثيراً من أهالي حلب عرفوا مكانته فتبعوه.. يقول ابن رقيقة:

«ومع ذلك فقد ظل السهروردي دائماً رثّ الهيئة، لا يلتفت إلى ما يلبسه، ولا له احتفال بأمور الدنيا.. كنت وإياه نتمشى في أحد المساجد، فرأني صديق لي معه فأتى إلى جانبي يهمس في أذني: ثُمّاشي هذا الصعلوك؟ فقلت له: اسكت، هذا سيد الوقت وعالم العصر، شهاب الدين السهروردي»

ويقول ياقوت الحموي في كتابه «معجم الأدباء»:

«... إن فقهاء حلب لما ناظرهم السهروردي فلم يجاره منهم أحد، ولما لمسوا تقريب الملك الظاهر له وإقباله عليه وتخصصه به، ازداد تنفيظهم وتألبوا عليه وكثر تشنيعهم عليه، ورموه بالإلحاد والزندقة، وبإنحلال العقيدة والتعطيل، وباعتقاد مذهب الحكماء المتقدمين. ثم إنهم أفتوا بإباحة قتله بسبب اعتقاده، وعملوا المحاضر بكفره وسيروها إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي في دمشق وقالوا له:

«أدرك ولدك وإلا تتلف عقيدته. فإن بقي هذا السهروردي في حلب فإنه يفسد دين الملك الظاهر، وإن خرج من حلب وانطلق فإنه يفسد أي ناحية قصدها من البلاد».

موقف صلاح الدين

وسأل صلاح الدين عندئذ عن السهروردي الذي لم يقابله ولم يسمع به من قبل، فحدثه عن إيمانه في الفلسفة، ورأيه في الحلول، وبأنه يعتقد أن العالم والله شيء واحد، وأنه يتبع مذهب الرواقيين الإغريق ويذهب مذهب الأفلاطونية القديمة. فكتب صلاح الدين إلى ابنه الملك الظاهر بإبعاده فلم يبعده، فبعث إليه كتاباً يقول فيه:

«إن هذا الشاب السهروردي لا بد من قتله، ولا يبقى حياً بوجه من الوجوه».

واضطرب الملك الظاهر حينئذ إلى أن يصدر أمره بخنق السهروردي في قلعة حلب، فخنق ثم صلب. غير أن أعداء السهروردي من الفقهاء لم يفيئوا طويلاً من قتله. إذ سرعان ما ندم الظاهر ندماً شديداً على فعلته، ونقم على من تسببوا في قتله، فأمر بالقبض عليهم واعتقلهم ونكبهم، وصادر أموال عدد كبير منهم.

ويضيف ابن خلكان قوله في كتابه «وفيات الأعيان»:

«أقمت بحلب سدين للاشتغال بالعلم. ورأيت أهلها مختلفين في أمر السهروردي الذي كان من أكبر علماء عصره، وكل واحد يتكلم فيه على قدر هواه، فمنهم من ينسبه إلى الزندقة والإلحاد، ومنهم من يعتقد فيه الصلاح وأنه من أهل الكرامات».

وقد خلف السهروردي من الكتب ما طبع وما لا يزال مخطوطاً:

فمن كتبه المطبوعة: حكمة الإشراق - هياكل النور - رسالة في اعتقاد الحكماء - التنقيحات - رسالة حي بن يقظان.

ومن المخطوطات: التلويحات - المشارع والمطارحات - الأسماء الإدرسية - الألواح العمدية - المناجاة - مقامات الصوفية ومعاني مصطلحاتهم - اللمحات - المعارج.

وله شعر كثير اشتهرت منه حائياً مطلعها:

أبدأ تحن إليكم الأرواحُ ووصالكم ريحانها والراحُ

ويعتبر السهروردي إلى اليوم أبرز أعلام مذهب الإشراقيين في الفلسفة الإسلامية.

تقييم فعلة صلاح الدين

قيل في تبرير أمر صلاح الدين بقتل السهروردي إنه كان يسعى من ورائه إلى تهدئة الفتنة الدينية والسياسية التي كانت قائمة إذ ذاك في حلب، شأنه في ذلك شأن الخليفة العباسي الذي أمر بصلب الحلاج. (انظر مقدمة الدكتور أحمد أمين لكتاب «حي بن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهروردي»).

غير أنه من الصعب علينا أن نقبل هذا التبرير لفعلة شنعاء في حق الفكر الإسلامي، خاصة إذ هي أتت من سلطان فاضل كانت صفاته الخلقية بالذات هي المسئولة عن أن صار

منذ زمنه وإلى يومنا هذا من أحب وأقرب الشخصيات في التاريخ الإسلامي إلى قلوب المسلمين وغير المسلمين على سواء.

ويزيد من بشاعة الحكم بإعدام السهروردي أن صلاح الدين ما كان يعرف الرجل، ولا سمع بآرائه إلا من الواشين به، الحاسدين له، ولا بذل جهداً فيقرأ كتبه، ولا فكر في استدعائه للاستماع إليه، ولا أمر بمحاكمته محاكمة عادلة، ولا أتاح فرصة للرجل كي يدافع عن نفسه، ولا فكر في استنابته كما تأمر أحكام الإسلام، ولا أخذ برأى ابنه الملك الظاهر في هذا المفكر الأديب الفيلسوف الشاعر.

ولو أنه كان ثمة إجماع من مسلمي حلب على أن الرجل ملحد زنديق، فلربما التمسنا في هذا الإجماع بعض العذر لصلاح الدين، غير أن كافة المؤرخين الذين أرخوا لهذه الواقعة، من أمثال ابن الأثير وابن الوردي، وابن تغري بردي، وابن خلكان، وابن أبي أصيبعة، وياقوت، وابن الجوزي، وعشرات غيرهم، مجمعون على أنه لم يكن ثمة إجماع على زندقة السهروردي، وأن الكثيرين من فضلاء العلماء كانوا يعظمون قدره ويبجلونه، وأن «كثيراً من أهالي حلب عرفوا مكانته وفضله فاتبعوه»، وأن منهم - على حد قول ابن خلكان - من كان «يعتقد فيه الصلاح وأنه من أهل الكرامات».

بل حتى إن كان قد حدث مثل هذا الإجماع، فإن الاحتجاج بأن عقيدة الأغلبية العظمى في مجتمع معين هي الحكم في مضمار صحة الرأي، احتجاج مردود عليه، فقد تخطيء الأغلبية في اعتقادها وقد يصيب إنسان فرد، ولو أن البشرية بأسرها أجمعت على رأي وخالفها فيه شخص واحد، لما حق للبشرية أن تخمد صوته، تماماً كما أنه ليس من حق هذا الفرد أن يخمد صوت البشرية. فإخماد الصوت في حد ذاته، وعلى حد تعبير جون ستيوارت ميل، «يضر بالجنس البشري، بخاضره ومستقبله، كما يضر بقامعي الرأي أكثر من إضراره بصاحب الرأي. ذلك أنه لو كان رأى ذلك الفرد سليماً لحرم الناس بقمعه من فرصة تصحيح خطئهم، ولو كان رأيه باطلاً لحرموا من فضل تصحيح الخطأ، ألا وهو الرؤية الأوضح للحق الناجمة عن صراعه مع الباطل. ذلك أنه حتى لو كانت عقيدة الأغلبية هي الحق المطلق، فإن حرمانها من فرصة إثبات نفسها على حساب الباطل يجردها من أسسها العقلانية، ويحجب الأسباب التي أحالتها من رأى إلى معرفة قطعية».

* * *

إنه ما من شك في أن قمع الآراء الحرة الجديدة كثيراً ما تسبب في الماضي في عرقلة التقدم أو الحيلولة لونه في المجتمعات البشرية. وقد كان هذا القمع يستند دائماً إلى حجة أن الآراء الفاسدة ليست أخف ضرراً من الأعمال الإجرامية، وأنه من مسئولية القائمين بالحكم مكافحة هذه كما أن من مسئوليتهم مقاومة تلك. والردّ الواضح على ذلك هو التساؤل عن الحكم بصدد تقييم الآراء، ومن صاحب الحق في الفصل بين الصحيح والباطل، والتمييز بين الإجرامى والبطولى، وبيان ما هو خليق بالمكافحة وما هو خليق بالتشجيع والرعاية. وكثيراً ما حدث في التاريخ أن أدان حكام رأياً ثم اعتنقه حكام تالون، كمكافحة حكومة القيصر نيقولا الثانى للشيوعية في روسيا، ومكافحة حكومة لينين بعدها للآراء المناهضة للشيوعية، كلّ بدعوى أن آراء خصمه آراء فاسدة. غير أن المثال الأقرب على هذا هو تغيير الفرد نفسه لآرائه بمرور الوقت. فالرأى الذى أومن اليوم بكل قوة وثقة بأنه صحيح وفوق مستوى الشبهات، قد أغيّره بعد عام أو عامين وأرى خطئه وفساده، ثم قد أنتقل من هذا الرأى الثانى فى مستقبل أيامى إلى ثالث فراجع. ففي أية مرحلة إذن من تلك المراحل من العمر يمكننى أن أقول فى ثقة بآنى على حق؟ وقد سبق للشاعر روبرت جريفر أن عرّف الأساطير بأنها ديانات الآخرين. فمن ذا الذى بمقدوره أن يصف عقيدته بأنها العقيدة الحقّة، وغيّرها بأنها أساطير، وهو يعلم أنه لو كان قد وُلد فى بلد غير بلده، وبين قوم غير قومه، لوصف العقيدة التى يؤمن الآن بها بأنها من الأساطير؟

حول الكتابة التاريخية عند المسلمين

لازلت إلى اليوم أذكر إذ كنتُ في الثالثة عشرة من العمر، وطلب منى مُدرّس التاريخ إعداد بحث عن الصراع بين الأمين والمأمون ألقيه على طلبة المدرسة النموذجية الثانوية مجتمعين... أعددتُ البحث، وكان هوى فيه مع المأمون ضدّ الأمين. ثم رأيت أن أقرأه على والدی قبل إلقائه بالمدرسة، فإذا بى أسمع منه يومها درساً لم يبرح ذاكرتى إلى اليوم، عن كيف أن المصادر الرئيسية الوحيدة التى تعرّضت لهذا الصراع بين الأخوين العباسيين هى أربعة: تاريخ اليعقوبى (وهو شيعى)، وتاريخ الرسل والملوك للطبرى (وهو فارسى)، والأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى (وهو فارسى)، والفخرى لابن طباطبا (وهو شيعى). فإذا هى إذن إما فارسية أو شيعية، وإذا كان هوى الفرس والشيعية مع المأمون ضدّ الأمين، فإن هذا لما يلزم القارئ والمؤرخ الحديث بالتزام الحذر والحيطة البالغين، وبأن يدركا دائماً أن غرض المصادر هو الإساءة إلى سمعة الأمين وإعلاء شأن المأمون، وأن الصورة النهائية لشخص الأمين لا يمكن على أىّ حال أن تكون بمثل هذا السوء أو التشويه الذى تبدو عليه فى تلك المصادر.

ثم ضرب لى أبى يومها أمثلة أخرى: كالحرب بين علىّ ومعاوية، وتاريخ الدولة الأموية كله، وهما ما لم يتعرّض لهما من المصادر القديمة سوى مؤرخين كتبوا فى ظل دولة العباسيين الذين أسقطوا حكم الأمويين، أو مؤرخين من الشيعة الناقمين على بنى أمية.. وكذا تأريخ عز الدين بن الأثير فى كتابيه «الباهر» و«الكامل» لعهد صلاح الدين الأيوبي، إذ يجب أن نذكر جيداً ولأى هذا المؤرخ لدولة الاتابكة التى أطاح صلاح الدين بها.. أما فيما يتعلق بتراجم شخصيات التاريخ الإسلامى، فقد يكفى أن نذكر فى هذا الصدد الظلم الفادح فى التراجم التى وصلتنا عن الحجاج بن يوسف الثقفى وزیاد بن أبیه وعبيد الله بن زياد، وجميعهم من أعظم الإداريين فى تاريخ البشرية، لا لشيء إلا لأن ميول كتابها كانت إما شيعية أو عباسية..

كذلك نلاحظ أنه ما من روايات إسلامية تحدّثت عن بطولات لسعد بن أبي وقاص في الوقائع والحروب إلا كان من بين سلسلة روايتها أحد من عشيرة سعد أو أقربائه، بينما تتحدث روايات أخرى عديدة من آخرين عن عزوفه دائماً عن الاشتراك في الحروب، وأنه لم يشترك في موقعة القادسية الكبرى بين العرب والفرس، واكتفى - لمرضه - بمراقبتها من سطح منزله، ثم نُسب النصر في كتب التاريخ إليه!

كنه الإرادة الإلهية

إلى والدى إذن يرجع الفضل في أن غرس فيّ منذ سن مبكرة النظرة النقدية إلى مصادر التاريخ الإسلامي، وعلمني أهمية «العنينة» أو سلاسل الرواة (التي كثيراً ما نسمع المتفرنجين اليوم بيننا يسخرون منها في حديثهم عن التراث العربي) في تمحيص صحة الروايات، وضرورة التدقيق لمعرفة هوى المؤرخ، وسيرته، والعصر الذي كان يكتب فيه، والخليفة أو الوالي الذي كان يخدمه أو تصله جوائزه أو رواتبه، فما شرعتُ جادا في دراسة التاريخ الإسلامي بعد هذا بسنوات، إلا كنتُ قد تعلّمت أن ألتزم التزاماً صارماً بتلك المعايير ومناهج البحث وطرائق النقد والتمحيص.

غير أنني ما قطعتُ شوطاً في قراءة المؤرخين المسلمين القدماء، حتى تعلّمت أن أكنّ لهم احتراماً وتقديراً عميقين، مقرونين بشيء من الدهشة، وأن أصل إلى الاعتقاد بأنه ما من أحد من مؤرّخي العالم الغربي - سوى ربما ثيوسيديدس وتاسيتوس وجيبون - يفوق في موضوعيته ودقته وجديته مؤرخين مثل الواقدي والبلاذري والطبري ومسكويه والمقرئزي والجبرتي.

وقد ذكرتُ لتوّي أن كتابات البعض من هؤلاء المؤرخين غلبت عليها أهواء أكرت في تقييمهم للشخصيات وتسجيلهم للأحداث. غير أن معظم تلك الأهواء كانت أهواء دينية تتصل بالعقيدة. وفي تقديري أن سرّ عظمة الكتابة التاريخية عند المسلمين في العصر الوسيط هو ارتباطها بمفهومهم عن الدين.

لقد أنكر البعض على المؤرخين المسلمين القدامى في كتابتهم لتاريخ العالم الإسلامي بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم اكتفاءهم بسرد الأحداث دون عناية بتعليق، والإقدام على

تسجيلها دون وجهة نظر مسبقة.. وقد كان وراء منهاجهم هذا فى الكتابة، وراء ذلك القدر المذهل من الموضوعية الذى تتمتع به مؤلفاتهم، اعتبارهم التاريخ المظهر الخارجى لإرادة الله فى عالمنا هذا، واعتقادهم أنه بالإمكان التوصل إلى كنه هذه الإرادة باستقراء ظواهرها. ومن ثمّ فقد رأوا واجباً عليهم تسجيل هذه الظواهر فى صدق، والإحجام عن الهوى فى الانتقاء.. فهُمْ هُنَا أَشْبِهَ بِالْحَقِّقِ فِى شَأْنِ مِنَ الشُّوْنِ، أَوْ قَضِيَّةٍ مِنَ الْقَضَايَا، يَجْمَعُ مَا بَوَسَّعَهُ جَمْعُهُ مِنَ الْمَعْلُومَاتِ وَالْحَقَائِقِ، دُونَ أَنْ يَدْرِيَ أَيُّهَا سَيَكُونُ ذَا صِلَةٍ بِالْكَشْفِ عَمَّا يَرِيدُ كَشْفَهُ. وَلَا يَعْنَى هَذَا أَنَّهُمْ كَانُوا لَا يَنْتَقُونَ، (إِذْ مِنْ ذَا الَّذِى بَوَسَّعَهُ أَنْ يَسْجَلَ كُلَّ صَغِيرَةٍ وَكَبِيرَةٍ بِصَدَدِ أَىِّ أَمْرٍ مِنَ الْأُمُورِ؟)، كَمَا لَا يَعْنَى أَنَّهُمْ جَمِيعاً كَانُوا يَتَعَقَّقُونَ عَنْ مَرَاعَةِ هَوَىِّ الْحُكَّامِ، أَوْ مَقْتَضِيَّاتِ الْمَذَاهِبِ الَّتِى يَتَّبِعُونَهَا. غَيْرَ أَنَّ الْمُؤَكَّدَ أَنَّ الْمُؤَرِّخِينَ الْمُسْلِمِينَ فِى الْعَصُورِ الْوَسْطَىِّ أَلْزَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِقِسْطٍ مِنَ الْمَوْضُوعِيَّةِ يَنْدُرُ أَنْ تَجِدَهُ فِى غَيْرِهِمْ، وَأَنَّ وَرَعَهُمْ كَانَ لَهُ الْفَضْلُ الْأَوَّلُ فِى ذَلِكَ.

لقد بدأ الكثيرون منهم - كالواقدي والطبري - حياتهم بالكتابة فى التفسير أو الحديث أو السيرة. وإذا تحوّلوا إلى كتابة التاريخ التزموا فيها بنفس المنهج والدقة والورع والمعايير التى أخذوا أنفسهم بها فى تعرّضهم للحديث والسيرة وتفسير القرآن. فإن كان الورع دفع غيرهم من المؤرخين إلى الكذب والتلفيق عن حسن نية، فقد كان مفهوم الورع لدى المؤرخين المسلمين هو التزام الصدق والأمانة قدر الإمكان، وهما ما قد يسميان فى زمننا هذا بالروح العلمية.

نشأة الكتابة التاريخية عند المسلمين

ويقودنا هذا إلى الحديث عن نشأة الكتابة التاريخية عند المسلمين:

ما انقضت فترة وجيزة على وفاة الرسول، حتى كان العرب قد انطلقوا من بيئاتهم انطلاق الجنى العملاق من قممته، فإذا هم بعد انصرام قرن من الزمان قد امتد سلطانهم من نهر جيحون فى آسيا الوسطى إلى أقصى شمال أفريقيا عند المحيط الأطلسى، وباتوا يحكمون شعوباً شديدة التباين فى عاداتها وأخلاقها وبيئاتها وحضاراتها عن أهل شبه الجزيرة، وأسسوا مدناً جديدة أو سكنوا مدناً قائمة تزخر بسكان هم الآن فى حاجة إلى شريعة أكثر

تعقيداً وأوفى تفصيلاً من تلك التي كانت كافية لأن تحكم مجتمعات في بساطة مجتمع مكة والمدينة، خاصة وقد واجه المسلمون ظروفاً لم يتحدث القرآن عنها، أو تحدث عنها ولم يورد بصدها غير مبادئ عامة تون التفاصيل.

إزاء هذا التوسع الجغرافى الهائل، وإزاء ضفط الظروف التاريخية الجديدة دائبة التغير، واختلاف الزمان والمكان، تلمس المسلمون وفقهاؤهم الدليل الهادى. وقد كان من الطبيعى أن تقودهم تقواهم إلى تلمس الدليل عند عين المصدر الذى نزل الوحي عليه وبلغ رسالة السماء. فكان أن شرع الجيل التالى للصحابة، جيل التابعين، يجمع روايات أقوال النبى وأفعاله، واتخذ من هذه السنة مصدراً ثانياً للشرعية، لا يعلوه غير القرآن. وقد افترض أنصار الالتزام بالسنة أن العناية الإلهية إنما كانت توجه كل عمل أتى به النبى، وكل كلمة صدرت عنه منذ بعثه الله رسولاً إلى قومه إلى أن مات. ومن ثم فقد رأوا أن أحكام السنة ملزمة فى الحالات التى لم يرد بصدها حكم قرأنى.

وربما كان من أهم ما دفع الفقهاء إلى جمع الحديث والروايات المتعلقة بسيرة النبى وأفعاله، واتخاذ السنة مصدراً للشرعية، تلك الرغبة العظيمة لدى جمهور الأتقياء ممن لم يعاصروا النبى فى معرفة كل ما تحدث به أو بدر عنه حتى يكتفوا بحياتهم وسلوكهم على هديه، وتلك الخشية من الوقوع فيما يخالف أحكام الدين، واستحداث ما قد لا يتفق وإرادة الله. وقد شاع بين الناس حديث الرسول (الذى أورده النسائى): «شر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار». فكان كلما طلع عليهم أحد الفقهاء برأى قالوا له: «أهو شىء سمعته عن رسول الله أم هو رأى ارتأيت؟» فأدرك الفقهاء أنه ما من فرصة أمام الرأى لأن يصادف القبول لدى جمهور المؤمنين ما لم يستند إلى سنة متواترة، أو يزعم أن له أصلاً فى الحديث.

وعندما حدث بعد ذلك أن شاع اختراع الأحاديث، وصار ميدانها بحراً خضماً يختلط فيه الصحيح بالزائف، أثار هذا الاضطراب جزعاً شديداً لدى لفيق من أجلة علماء الدين من أمثال ابن حنبل والبخارى ومسلم، فأقبلوا على وضع أسس لعلم الحديث، والمعايير الصارمة الواجبة لانتقاء الأحاديث الصحيحة. وقد كان المعيار الرئيسى الذى أخذوا به التحقق من الرواة والمحدثين وهويتهم، ومن تقوى رجال الإسناد وسلامة طويتهم. فإن ثبت توفر النزاهة والورع فيهم، ولم يعرف عنهم كذب متعمد على النبى ناجم عن قلة دين أو هوى حزبي، اعتبروا ثقات، وإن ثبت الاتصال الزمنى بين هؤلاء المحدثين وكتبه الحديث الواردة أسماؤهم فى الإسناد، اعتبروا الحديث صحيحاً.

علم الرجال وكتب السيرة النبوية

ومن هنا أدنى علم الحديث إلى نشأة علم الرجال، أى العناية بدراسة سيرة رواية الحديث، والتحقق من تاريخ ميلادهم ووفاتهم، وسفرهم ومقامهم وسلوكهم الشخصى، من أجل التأكد من ورعهم، ومن أنهم ثقات يؤخذ عنهم، ومن الاتصال الزمنى بينهم وبين من نقلوا الحديث عنهم، ومن إمكان التقاء هذا بذاك فى مكان معين فى زمن معين.

فعلما الحديث والرجال إذن هما الخطوتان الأوليان من خطوات ثلاث فى سبيل نشأة الكتابة التاريخية عند المسلمين. فأما الخطوة الثالثة المكتملة واللازمة لهما فهى كتابة السيرة النبوية من أجل الإحاطة بأفعال الرسول.

وهنا ينبغى التنبيه إلى أمر جدهام: وهو أن الصدق والموضوعية كانا أوفر فى مؤلفات كتّاب السيرة الأوائل الأقرب إلى زمن النبى، كعروة بن الزبير بن العوام (٦٤٣ - ٧١٢م)، وأبان بن عثمان بن عفان (٦٤٢ - ٧٢٣م)، وموسى بن عقبة (توفى عام ٧٥٨م)، وحديث المعجزات فيها أقل، والصراحة أكبر. وقد ضاعت للأسف هذه المؤلفات فلم يصلنا منها غير فقرات أوردتها كتب ابن إسحاق والواقدي وابن سعد والطبري وغيرهم. وترجع سمة الصدق والصراحة هذه فى كتابات الأوائل إلى أسباب أهمها: أن القيم والمعايير والأنواق فى عصرهم المقارب لعصر النبى لم يكن قد طرأ بعد عليها تغيير كبير، وأن حديث الصحابة ومعاصري الرسول عن أحداث زمانهم وأفعال النبى وأقواله كانت لاتزال حية فى أذهان التابعين. أضف إلى ذلك أن إعجابهم الشديد بشخصية النبى، وحرصهم على الإحاطة بكل ما صدر عنه من أقوال وأفعال، وبكل صغيرة وكبيرة تتعلق به، ومن أجل إرساء دعائم الفقه والشريعة ومعرفة حكم الدين فى أدق تفصيلات الحياة اليومية، دفعاهم إلى تسجيل كل ما يسمعون عنه، لا ينفقون ولا يتخيرون، ولا يستشعرون الحرج إزاء تدوين هذه الواقعة أو تلك. فكل ما صدر عن النبى خلى بالتوقيع والدراسة. وإن كان هناك من الأفعال ما يصعب فهم بواعثه، أو لا يتفق مع العرف الشائع، فإن المشكلة إنما هى فى قصور فكرهم عن إدراك المغزى الذى قد تكشف الأيام عنه، والحكمة التى قد تتضح لأجيال تالية. وكان هذا دون أدنى ميل منهم إلى انتهاج نهج النصارى مع المسيح عليه السلام، ودون أن تغيب عن أذهانهم فكرة أن محمدا إنما هو

بشر مثلهم، يوحى إليه. فكان موقفهم إذن من السيرة النبوية متفقاً مع موقف رجال الحديث، ثم المؤرخين المسلمين بعدهم من علم التاريخ، إذ رأوا واجبهم تسجيل مظاهر الإرادة الإلهية كما هي (أو كما تجلّت لهم)، ثم التأمل فيها واستنباط العبرة، أو ترك التأمل فيها للأجيال التالية من أجل الكشف عن كُنه هذه الإرادة.

ازدهار الكتابة التاريخية عند المسلمين

على هذا الأساس إذن ارتفع صرح الكتابة التاريخية عند المسلمين. وقد كان من بين أعلامها الأوائل محمد بن جرير الطبري (٨٣٩ - ٩٢٣م) الذي بدأ محدثاً فمفسراً للقرآن فمؤرخاً. وبالرغم من أننا اليوم نُحلّ تفسيره مكانة أعلى بكثير من مكانة تاريخه، فلا مفر من الإقرار بأنه قام فى «تاريخ الرسل والملوك» بعمل مشابه لما قام به البخارى ومسلم فى الحديث، وهو اختيار المادة التاريخية الصحيحة من مجموع المواد التى تقدّمها كتب الأوّلين. وقد أسبغ على كتابه هذا تدقيق المتكلمين والفقهاء، مما أكسبه مكانة مرموقة فى الأوساط الفكرية السُنية فى الإسلام، وجعل له أثراً عميقاً هائلاً فى المؤرخين التالين له الذين اعتبروه مثلاً يُحتذى فى الشكل الذى ينبغي أن تكون عليه كتب التاريخ.

ومع ذلك فقد كان هناك المجدّون أيضاً. فقد تحوّل المسعودى مثلاً (توفى عام ٩٥٦م) عن الحواريات التى أرّخ فيها الطبري للحوادث سنة بعد سنة، إلى سردها فى رواية واحدة متواصلة، مستغنياً عن الإسناد، بل وعن ذكر المصادر إلا فيما ندر. وقد حقّق المسعودى واليعقوبى تحرير الكتابة التاريخية من قالبها الدينى، وجعلها علماً مستقلاً. ثم خطا مسكويه (توفى عام ١٠٣٠م) خطوة أوسع فى هذا السبيل، وهو الذى شهد له الكافة بأن مؤهلاته لكتابة التاريخ كانت أعظم من مؤهلات الطبري. فإذا كان مسكويه قد عمل مدة طويلة فى خدمة ركن الدولة وعضد الدولة، أضحت له ميزة كبيرة وفُرّتها معرفته الشخصية بمشاهير رجال عصره، وقدرته على الحصول على المعلومات من مصادرها الأصلية. أضف إلى ذلك أنه كان ملماً بمناهج الإدارة وأساليب الحرب، مما يسّر له وصف الأحداث وصف عارف، والحكم على التصرفات والسياسات حكم واقف على دقائقها. وبينما نجد الطبري مُقلّلاً فى ذكر اقتصاديات الدولة، نجد مسكويه يفيض ويدقق ويوضح ذلك الجانب الحيوى من التاريخ السياسى.

وقد بلغت الكتابة التاريخية عند المسلمين ذروتها بمقدمة ابن خلدون (١٣٣٢) - ١٤٠٦م). فبالرغم من أن تاريخه لدول العالم الإسلامى - عدا شمال أفريقيا - يعتمد اعتماداً كبيراً على من سبقه المؤرخين، خاصة الطبرى وابن الأثير، فإن مقدمة الكتاب أحلت صاحبها مكانة سامية فى تاريخ الفكر الإنسانى، وهى التى وصفها المؤرخ البريطانى أرنهارد توينبى بقوله: «إن ابن خلدون وضع فيها فلسفة وقاعدة للتاريخ لاشك فى أنها أعظم عمل من نوعه قام به عقل بشرى. فى أى زمان ومكان». وقد عالج ابن خلدون فيها ما نسميه الآن «الظواهر الاجتماعية»، وما يسميه هو «أحوال الاجتماع الإنسانى»، رامية إلى الكشف عن القوانين التى تخضع لها هذه الظواهر فى نشأتها وتطورها. وهى قوانين لم يُعن أحد قبل ابن خلدون بالكشف عنها، ولا درسها عالم قبله كما تُدرس ظواهر الفلك والطبيعة والكيمياء ووظائف الأعضاء وما إلى ذلك من العلوم. فقد كان المعتقد أن ظواهر الاجتماع خارجة عن نطاق القوانين، وخاضعة لأهواء القادة وتوجيهات المشرعين ودعاة الإصلاح. فجاء ابن خلدون مبيناً أنها لا تسير حسب المصادفات والأهواء، ولا حسب ما يريده لها الأفراد، وإنما تسير فى نشأتها وتطورها حسب قوانين ثابتة مطردة، كالقوانين الخاضع لها القمر فى تزايدهِ وتناقصهِ، والنهار والليل فى اختلافهما باختلاف الفصول.

قرون الانحطاط الفكرى

غير أنه بمضى السنين، وبازدياد تحرر المؤرخين المسلمين من تأثير الفقهاء ورقابتهم، وانفصال الكتابة التاريخية عن علوم الدين، أثار المؤرخون عداوة الفقهاء وريبتهم، وهما عداوة وريبة تحولتا إلى حرب مريعة على المؤرخين فى عصر الانحطاط الفكرى فى الدولة الإسلامية. وقد أسفرت هذه الحرب عن انتصار الفقهاء، وعن اضطرار المؤرخين إلى تبنى موقف من أحداث الماضى شبيه بموقف الفقهاء منها، وأضحى الهدف من الكتابات التاريخية هو الهدف الذى حدده الفقهاء للمؤرخين؛ ألا وهو أن يكون علم التاريخ وأدب التراجم وسيلة من وسائل غرس القيم الدينية، والمبادئ الأخلاقية الرفيعة، والمثل العليا، لا تسجيل الحقائق بأكبر قدر مستطاع من الموضوعية بعد تححيص ما تجمع منها لدى المؤرخ من أجل معرفة كنه الإرادة الإلهية.

وكان أن بدأت الأيدى تمتد إلى التاريخ والتراجم والسيرة النبوية ذاتها لطمس بعض الحقائق، أو اختراع القصص من أجل التخفيف من تأثير معين أو إزالته، أو خلق تأثير معين وتقويته، على أساس من التشكك في قيمة الحقيقة ما لم تكن تخدم غرضاً أخلاقياً أو دينياً. ومن هنا بدأت تتكوّن نظرة المسلمين الرومانسية إلى تاريخهم وأبطال ماضيهم، وأضحت للحقيقة التاريخية مكانة تقل في الأهمية بكثير عن هدف الوعظ وبيان نماذج السلوك التي ينبغي على المتّقين أن يحذوا حذوها أو يتجنّبوها. ومثل هذه النظرة إلى التاريخ وشخصياته لا شك في أنها لا يمكن أن تخدم الفهم السليم لمجريات الأمور والأحداث التاريخية.

ثم جاء الغزو العثماني للأقطار العربية بما صحبه من موات فكري، فانصرفت غالبية المسلمين عن القراءة إلا في كتب الادعية والحديث والشعر والحكايات الشعبية، وأدارت المؤلفات التاريخية ظهرها، حتى نسيت ماضيها أو كانت، وحتى أهمل العلماء والمشايخ الكتابة في هذا الميدان، إلى أن ظهر الجبرتي في مستهل القرن الماضي بكتابه «عجائب الآثار» فأعطى دفعة جديدة للكتابة التاريخية عند المسلمين.

الثقافة العربية فى عالم متغير

بوسعنا القول إن تقدم البشرية يمكن أن يُقاس بعدد وأهمية الحقائق التى لم تعد تُثار الشكوك حولها، وأنه ما من أحد بمقدوره اليوم، (غير قلّة يُدينها الضمير البشرى)، أن يدافع عن نظام الرق (كما فعل أرسطو)، أو عن نظرية تفوقّ جنس على جنس (كما فعل جوينو)، أو عن حرمان المرأة من المساواة فى الحقوق مع الرجل (كما فعل ابن حجر الهيتمى)، أو أن ينكر أنه لا إكراه فى الدين، أو حقوق الأقليات، إلى آخره.

فإن كان بوسع البعض، وبحق، أن ينسب الفضل فى هذه النتيجة (أى تضيق حدود الشك وتوسيع دائرة الاتفاق على آراء معينة) إلى الدروس التى استقتها البشرية من وحى تجاربها عبر قرون متتالية، فلاشك أيضاً فى أنه قد كان للمبدعين من المفكرين والفلاسفة والأدباء والفنانين يدٌ طولى فى هذا المضمار، وفى ظنى أن واجب هؤلاء المبدعين تجاه توسيع دائرة الاتفاق قد بات مضاعفاً ومكّحاً فى هذه المرحلة بالذات من تاريخ العالم، وذلك لسببين:

الأول: أن معظم مجالات النشاط البشرى فى عصرنا هذا، من سياسية واجتماعية وثقافية وعمرانية واقتصادية، قد أخذت بمبدأى التخطيط والتوجيه الواعيين، ولم تعد تُترك للمصادفة أو القدر أو المبادرات العفوية.. قد يرى البعض أن تطور المفاهيم والقيم حتمى سواء ساهم فيه المفكرون وخططوا له أم لم يفعلوا، غير أنى أعتقد أن هذا التطور إن ترك وشأنه دون تخطيط واع وتوجيه من جانب الصفوة، قد لا يتخذ دائماً سماتاً إيجابياً محموداً، كذلك فإن التخطيط والتوجيه فى مجال القيم والمعتقدات ليسا فقط ممكنين، بل ولا غنى عنهما فى هذا العصر بالذات، من أجل الوقوف فى وجه المفاهيم الضالة، وتعزيز الاتجاهات المرغوب فيها.

والثانى: أن الإنسانية مقبلة على نظام عالمى جديد له مواصفات ومتطلبات مثل تخطى

الدول والشعوب عن المفهوم البالى عن حق الدولة فى السيادة المطلقة داخل حدودها القومية، وحق حكامها فى التصرف كما يهون داخل هذه الحدود، واستئصال كل ما من شأنه أن يتعارض مع أمن العالم واستقراره، أو يهدد من مبادئ الحرية والديموقراطية، والليبرالية والتعددية. فهو إذ نظام يهيم فى المقام الأول غرس مفاهيم جديدة عن الحرية والاستقلال، ومبادئ قانون أخلاقى جديد، ونشر الوعي بالمشكلات التى تواجه الجنس البشرى بأسره، كمشكلات البيئة، والطاقة النووية، والأمن الغذائى، والانفجار السكانى، والتعايش بين المعتقدات المختلفة، إلى آخره.

فإزاء كل ما يشهده عالمنا المعاصر إذن من تغييرات ضخمة متلاحقة، تغزو المشكلة المحورية التى يتحتم على مفكرى العالم العربى وأدبائه وفنانيه أن يحلّوها مكان الصدارة فى قائمة اهتماماتهم هى:

هل من المصلحة تكييف المفاهيم والقيم السائدة الآن فى العالم العربى وفق الأحوال الحضارية والاجتماعية والبيئية المتغيرة فى العالم ككل؟ فإن كانت الإجابة بالإيجاب انتقلنا إلى التساؤل: كيف؟

وفى رأى أن تعقد مظاهر المدنية الحديثة، وتشابك عناصرها المختلفة، يجعلان من أمر إعادة التكييف أمراً بالغ الصعوبة، ويجعلان من المصلحة أن تنصدى لهذه المهمة هيئة دائمة، أو مجمع، يضم نخبة من كبار الخبراء العرب فى علوم الاقتصاد والاجتماع والسياسة والدين، وفى علوم التاريخ والمستقبل والتحول الاجتماعى، وعلماء النفس والأدباء والفنانين والفلاسفة، من أجل المساهمة بحوارهم ومداولاتهم ونتائج نقاشهم فى كشف طبيعة التكييف المطلوب، وخلق أداة للتغيير والتوجيه العلمى الرشيد، تحلّ محل التغيير العفوى أو اللاشعورى، وتوفّر الإجابات الواضحة الشافية على الأسئلة الخمسة التالية:

- * ما هى القيم الأساسية التى ينبغى أن تحكم أى اتجاه إلى التكييف والمواعة؟
- * ما هى طبيعة التغيرات الرئيسية التى يشهدها العالم المعاصر؟
- * كيف يمكن مواجهة هذه التغيرات على ضوء القيم الأساسية التى اخترناها؟
- * ما هى التعديلات التى ينبغى إدخالها على القيم الأساسية من أجل ضمان كفاءة أكبر فى مواجهة التغيرات؟
- * ما هى حقائق البيئة المتغيرة التى يمكننا قبولها على ضوء قيمنا العربية أو الإسلامية؟ وما هى الحقائق التى تلزمنا تلك القيم بواجب مقاومتها؟

وتتبع ضرورة اشتراك ممثلين عن كل هذه الطوائف عن حقيقة بالغة الأهمية: هي أن عالم اليوم بات يشهد سبلاً متفرقة عديدة من سبل التفكير وأوجه التخصص، كل منها له جوانبه الإيجابية والسلبية، وله تأثيره العميق الفعال في منهجية البحث، وبإمكانه أن يسهم في سدّ أوجه النقص للموسسة في السبل الأخرى^٥.

أما من الناحية العملية فإنه بوسعنا أن نتصور أن يعقد مثل هذا المجمع سنوياً اجتماعاً موسعاً، في حين تعمل لجانه الفرعية على مدار السنة، وأن يُختار أعضاؤه على أساس القدرة على المساهمة الفعالة في مهمة المجمع، لا الكفاءة العلمية أو الأدبية أو الفنية فحسب. وسيعرض هؤلاء في اجتماعاتهم تصوّراتهم واقتراحاتهم للعمل، ويناقشون ما تم إنجازه، وكذا تقارير لجانهم الفرعية الخاصة بمشكلات الواقع الراهنة، وتحديات المستقبل المنظور، ويرصدون الممارسات الضارة بمثل المجمع، وينبّهون إليها، ويحاولون إيجاد الحلول لمشكلات تحولت لتحقيق الغايات، ويقدمون التوصيات للحكومات العربية بشأن طبيعة مناهج التعليم في المدارس، أو مضمون برامج وسائل الإعلام... إلى آخره.

واختصاراً، فإنه ستكون مهمة هذا المجمع التخطيط لنمط الحياة والقيم المنشودة في المجتمع العربي الجديد، عن طريق تلاقح الآراء والمواقف المختلفة، وتوفير الإطار المرن لنموّ مجتمع حيويّ يهيئ لهذه الاتجاهات فرصة التعايش والتلاقح، وفرصة صياغة نتائج المناقشات الحرة في صورة خطة، حتى تحولت نهوض القوى المدركة نيابة عنها بتكليف طابعنا، وتحديد مصيرنا.

وتتمثل أعتى هذه القوى المدركة في حياتنا المعاصرة في أولئك الرجعيين من المسلمين الذين لا يعترفون بقابلية القيم الدينية للتكيف والتعديل مع ثبات جوهرها، ولا يدركون أن الفضل هو مصيرهم المحتوم ما لم يترجموا التجربة الدينية الحقيقية إلى لغة الظروف المستجدة، وأن الشلل أو التخريب هو عاقبة كل محاولة لتطبيق الأحكام بصورتها القديمة على هذه الظروف. وستكون من بين المهام الرئيسية للمجمع المقترح أن يهدىء من مخاوف هؤلاء عن طريق بيان انتقاء التعارض بين التمسك بمفهوم القيم وبين الاستجابة لاحتياجات البيئة الجديدة، وأنه إن كانت الأولى هي الكفيلة بتحديد الهدف النهائي من تصرفات المسلم، فإن الثانية تمكّنه من المعاصرة، وتحول بينه وبين الانسحاب.

إنه لمن المصلحة أن تدرك الكافة، بادئ ذي بدء، أن الإسلام لا ينفي ضرورة تغير القيم والمفاهيم بتغير الأزمنة والظروف. فكلمة الإسلام تعني الإذعان لإرادة الله والتسليم بغاياته، مع

العمل على أن تكون هذه الإرادة هي العليا. وباستطاعة العالم الواعى الذى يدرس حركة التاريخ وطبيعة التغيرات الطارئة بفرض استشفاف كنه الإرادة الإلهية، أن يميز بين الاتجاهات التاريخية الحتمية التى تمثل قضاء الله الواجب الرضا به، وبين الأحداث والاتجاهات التى تسير ضد تيار التاريخ، وتقاوم حتميته، وتعرقل وصوله إلى هدفه، فيدرك أن واجبه أن يحارب تلك الاتجاهات الأخيرة، وأن يجاهد فى سبيل الله ضدها، «حتى تصبح إرادة الله هي العليا». وعليه فإنه يمكن أن نتصور أن يكون بعض الحركات المسماة بالإسلامية فى مجتمعنا ضد إرادة الله، (وبالتالى غير إسلامية ويحق لنا مقاومتها)، إن هي عميت عن كنه الإرادة الإلهية الكامنة فى التغيير، وتجاهلت الحتمية التاريخية، وأبت أن تغير مفاهيمها على ضوء المعارف المستجدة، فى حين يمكن أن تكون جماعات غيرها، دون إدراك واع منها، إسلامية حقاً، إن كانت ذات وعى بالاتجاهات التاريخية، مساعدة بجهدهما على دفعها إلى غايتها المنشودة.

إننا نعلم جميعاً أن الحياة هي عملية مستمرة من التكيف وفق مواقف دائمة التغير. واختيار القيم التى تحكم هذا التكيف جزء لا يتجزأ من هذه العملية. وقد أبدى المسلمون الأوائل همة عظيمة فى سبيل تطوير العقيدة والشريعة والمفاهيم الإسلامية حتى أغلق باب الاجتهاد. ثم زاد الطين بلة ما أدت إليه عزلة المسلمين عن العالم الخارجى فى ظل الدولة العثمانية من جهل بالتطورات الإيجابية الهائلة التى حدثت فى أوروبا خلال عصر نهضتها. فكان من أثر هذا الجهل، مع ما اتصف به مجتمعنا لأكثر من أربعة قرون من سمات الركود والتحجر وقلة التغيرات الطارئة فى كافة نواحي الحياة، أن ضعفت أو خمدت حاجة المسلمين إلى تطوير القيم والمفاهيم والعقيدة. فما فتحت أبواب الاتصال بأوروبا منذ قرابة قرنين حتى ثارت الأزمة الروحية التى ما كانت لتتسم بذلك القدر الرهيب من الحدة لولا طول أمد العزلة والركود والإحجام عن الاجتهاد. عندئذ نشأ الإحساس لدى الصفوة بضرورة تطوير المفاهيم، وأدلى البعض كالأفغانى ومحمد عبده بدلوه فى هذا الشأن، غير أن تلك الجهود الفردية، مع استنارتها، لم يجمعها تنظيم، ولم يكن يوسعها إدراك أهمية التخطيط الجماعى، فلم يسفر عنها بالتالى غير نتائج محدودة.

وقد بات مجتمعنا اليوم أشبه شئ بخلية النحل التى فقدت ملكتها.. قد نرى النحل مستمراً فى مجيئه وذهايه، وقد نحسب هذه الحركة حياة. غير أننا متى اقتربنا من الخلية لتناملها بعناية، ستهولنا مظاهر الفوضى التى ضربت أطناها فيها بعد رحيل الملكة، والتى

جعلت من الأجدى التخلص من الخلية بإلقائها طعمة للنيران. وفي اعتقادي أنه بوسع هذا المجمع الذي أقترح تأسيسه أن يعيد إلى مجتمعنا الإسلامى حقه فى البقاء على قيد الحياة بين الأمم النشطة المتوثبة حولنا... لقد كان من حسن حظنا أن ووجهنا بالتحدى الغربى، ثم بالتحدى الإسرائيلى، فأخرجنا الأول من عزلة قاتلة، وأيقظنا الثانى من سبات عميق. وقد خلق التحدى لنا مشكلة حضارية ضخمة. غير أن المشكلة ليست مستعصية على الحل.. هى إحدى تلك المشكلات التى وصفها نيتشه بأنها إن لم تقتلنا زادتنا قوة. ولكى لا تقتلنا هذه المشكلة لابد من التقاء خيرة العقول فى كافة المجالات عندنا فى تنظيم، كى نتضافر على رسم معالم نظام حضارى جديد، والتخطيط له تخطيطاً واقعياً لا هو بالمثالى ولا بالرجعى، فيضع بذلك حداً لعملية الانسحاب من التاريخ التى ينطوى عليها فكر الجماعات الدينية الرجعية فى أقطارنا العربية.

حصاء نصف قرن من القومية العربية

١٩٤٣-١٩٩٣

تحلّ هذا العام (١٩٩٣) الذكرى الخمسون لتأسيس حزب البعث القومى العربى فى دمشق بزعامة ميشيل عفلق وصالح البيطار. وهى مناسبة تدعونا إلى التوقف لتأمل حصيلة الدعوة على مدى نصف قرن كامل إلى غرس مفهوم القومية العربية، وإلى العمل من أجل تحقيق الوحدة العربية.

فى البدء كانت الكلمة

كان أول من لهج بفكرة القومية العربية عبد الرحمن الكواكبي الطبلى المولد (١٨٤٩ - ١٩٠٢)، وذلك فى نهاية القرن التاسع عشر، حين كرّر فى كتابه «أمّ القرى» بالحرف الواحد ما سبق لويلفرد بلنت البريطانى أن عبّر عنه من آراء فى كتابه «مستقبل الإسلام» (١٨٨٢). ثم كان أن تبئى السيد محمد رشيد رضا (وهو الذى اتهمه محمد فريد فى مذكراته بأنه عميل للبريطانيين) هذه الدعوة إلى القومية العربية فى مجلة «المنار» فى السنوات الأولى من القرن العشرين. وكانت دعوة الرجلين، المستقاة من أفكار بلنت، والتي ركزت على بيان المركز الخاص الذى يتمتع به العرب فى إطار الإسلام، أول نقلة أكيدة من فكرة الجامعة الإسلامية التى دعا جمال الدين الأفغانى إليها، إلى فكرة القومية العربية.

ثم سرعان ما أضحت هذه الفكرة تعنى فى الأذهان تلك الحركة الوطنية التى نشأت بين ظهرانىّ عرب أقطار الدولة العثمانية، ودعت فى بدايتها - بمباركة الحلفاء الأوروبيين وتشجيعهم، بل وبوحى منهم - إلى الاستقلال عن تركيا حليفة الألمان فى الحرب العالمية

الأولى، ثم تطورت بعد تحقيقها لهذا الهدف، وبعد وقوع الأقطار العربية فى براثن الاحتلالين البريطانى والفرنسى، إلى الدعوة إلى قدر من الوحدة السياسية والاقتصادية بين هذه الأقطار، يتفاوت بتفاوت أفكار الدعاة. وقد شجعت بريطانيا هذه الدعوة أيضاً حين كانت مطمئنة إلى ولاء الوحدات المكونة لهذا التجمع المنشود، وتمثل هذا التشجيع منها فى خروج أنتونى إيدن بفكرة تأسيس الجامعة العربية. غير أنها عادت وحاربت الدعوة، هى وغيرها من الدول الغربية، خاصة بعد ظهور جمال عبد الناصر، وحين وضع لها خطورة مثل هذا التجمع وهذه الوحدة على مصالحها.

حزب البعث

وقد كان السياسيون والصحفيون والكتاب فى العراق وسوريا ولبنان (أى فى مجموعة أقطار الهلال الخصيب التى حررها البريطانيون والفرنسيون من حكم العثمانيين خلال الحرب العالمية الأولى، ثم أخضعوها بعد ذلك لاحتلالهم)، أول من حمل لواء فكرة القومية العربية على نحو جاد، وسعوا إلى تطبيقها عملاً بادئين بصوغ الاسس النظرية والفلسفية والتاريخية لها. فقد ظهرت فى الثلاثينيات فى العراق وسوريا حركات صغيرة قوامها الشباب، وشعارها وحدة العرب، سرعان ما التحمت عام ١٩٤٣ فى الحزب المسمى بحزب البعث. غير أن الدعوة ظلت قاصرة أو تكاد على العراق وسوريا ولبنان، وظلت مصر بمنأى عنها، وخارج نطاق الاهتمام بفكرة القومية العربية، حتى حمل عبد الناصر لواءها منذ عام ١٩٥٥، ربما حين ارتأها وسيلة فعالة لبسط هيمنته على أقطار المشرق والمغرب العربيين. أما فى شبه الجزيرة العربية، فإنه بالرغم من أن الشريف حسين كان أول من رفع راية الدعوة إلى الاستقلال عن الدولة العثمانية باسم العروبة (بإيحاء مباشر من بريطانيا، وبناء على وعد منهم بأن ينصبوه ملكاً على العرب)، فإن الأسرة السعودية التى أقصته عن الحكم وخلفت فيه، لم ترق لها فكرة إحلال مبدأ القومية العربية الذى ارتأته دنيوياً صرفاً، محل فكرة الجامعة الإسلامية، خاصة أن المجتمع القبلى فى شبه الجزيرة لم يكن مهيئاً لتقبل ما ينطوى عليه مبدأ القومية العربية من معانٍ ومفاهيم.

ويمكننا أن نوجز دعوة الداعين إلى القومية العربية فيما يلى:

أن هناك أمة عربية واحدة، قد انقسمت بسبب ظروف خارجة عن إرادتها إلى دول

مستقلة، وأن الواجب إعادة توحيدها في كيان سياسي عضوي واحد ذي سيادة، بالنظر إلى ما يجمع بينها من عناصر هي: الدين (الإسلام)، واللغة (العربية)، والثقافة (الإسلامية)، والأرض الممتدة، والتاريخ المشترك. ثم أضيف إلى هذه العناصر عنصر جديد، وهو المصلحة الاقتصادية التي ستعود على الجميع من جرّاء الوحدة. ولاشك في أن ظهور المشكلة الفلسطينية وقيام دولة إسرائيل في المنطقة، أضافا إلى الدعوة حافزاً جديداً يتمثل في وحدة الهدف، والإحساس بالخطر المشترك.

تقييم فكرة القومية العربية

وبوسعنا أن ننظر إلى فكرة القومية العربية وأن نقيّمها على ضوء الاعتبارات التالية:
أولاً: أنها تمثل حاجة نفسية، لدى الأفراد كما لدى الشعوب، إلى الانتماء إلى جماعة.
وقد جاء التحول لدى معتنقي الفكرة من الانتماء الإسلامي إلى الانتماء العربي نتيجة لعدة عوامل:

* الضعف المطرد الذي طرأ على العقيدة الدينية لدى الكثيرين ممن تبوّأ نمط المعيشة الغربي.

* الضعف المطرد الذي أصاب الصلات بين أقطار العالم الإسلامي نتيجة للتطورات السياسية والاجتماعية في ثوله.

* الرغبة في ضمان مساهمة الأقليات غير المسلمة في هذه الحركة، وتجنّب وقوفها بمعزل عنها أو مقاومتها.

كل هذا بالرغم من أن فكرة القومية العربية فكرة نابعة في المقام الأول عن مفهوم مثالي لماضٍ حضاري ديني.

ثانياً: أنها كانت تمثل في بدايتها ردّ فعل لاستمرار سيطرة عثمانية أبقت رعايا الدولة قروناً طويلة في حال من التخلف في مختلف مجالات النشاط العمراني. ولم يكن بالإمكان أن يتخذ العرب من الإسلام شعاراً للمقاومة بالنظر إلى اشتراك الدولة المهيمنة (تركيا) مع رعاياها في الدين.

ثالثاً: أنها تحوّلت بعد ذلك فأصبحت تمثل رد فعل يقاوم الترتيبات الإقليمية

والسياسية المصطنعة التي فرضها الاستعمار الأوروبي بعد انفصام عرى الدولة العثمانية وانفراط عقدها عام ١٩٢٠. فهي إذن دعوة إلى التجمّع ولمّ الشتات تناهض واقعاً سياسياً مفروضاً من التجزئة والانقسام.

رابعاً: أنها باعتبارها فكرة بذر المستعمرون بذورها، ثم تولّاهم بالتعهد والرعاية طائفة من مفكرى العرب المتأثرين بالثقافة الغربية، كانت فى مستهل تاريخها محاولة من جانب الاستعمار لقمع الشعور بالانتماء الإسلامى، وإضعاف الخطر الذى يكمن فى حركة الجامعة الإسلامية والذى قد يهدّد فى وقت ما مصالح الأوروبيين فى المنطقة. وبالفعل فقد نجحت الدعوة: أولاً فى تجريد تركيا من حليفاتها أثناء الحرب العالمية الأولى، وثانياً فى فصم قدر كبير من الروابط التى كانت تربط مسلمى الأقطار العربية بمسلمى أقطار كإندونيسيا ونيجييريا وباكستان والاتحاد السوفيتى.

خامساً: أنه قد كان من المحتمل - بل والأرجح - أن يشجع الاستعمار الغربى فكرة قيام وحدة عربية تخدم مصالحه وأغراضه، لو كان قد اطمأن إلى استمرار ولاء القيادات العربية للغرب. غير أنه بظهور جمال عبد الناصر، وغلبة النزعة إلى مقاومة الاستعمار الغربى على اتجاهات المناادين بالوحدة، تحوّل الاستعمار الغربى إلى مقاومة الفكرة، وإلى العمل على بثّ بذور الفرقة بين الدول العربية ذاتها للحيلولة دون تحقيقها. وعلى هذا الضوء أضحى مفهوم الوحدة العربية بمثابة رد فعل للأطماع الغربية فى العالم العربى، ونواة تجمّع ضد الخطر الخارجى والعدو المشترك.

التناقضات الكامنة

هذه التناقضات الجوهرية فى أسس فكرة القومية العربية ومراحل تطورها، هى التى حالت - فى زعمنا - دون تحقيقها لأى قدر ملموس من النجاح العلمى بعد نصف قرن من قيام الحركة الداعية إليها، بحيث نجد العالم العربى فى يومنا هذا على حال من التمزق والتفرق، والعداوة والبداوة، لم يعرف التاريخ الحديث للمنطقة لها مثيلاً:

* فهى فكرة إسلامية وغير إسلامية: إسلامية باعتبار أن الوحدات المكوّنة لها كانت دائماً شديدة الوعى بماضيها الإسلامى، شديدة التركيز على أمجاد الحضارة الإسلامية فى

أوجها، شديدة الميل إلى إسباغ نفس مفهوم التضامن الذي كان قائماً في الأمة العربية... وغير إسلامية باعتبار أنها نشأت كبديل للرابطة الإسلامية حين ضعف التمسك بأهداف الإسلام نتيجة لتغلغل الحضارة الأوروبية، وهذت الصلات بين أقطار العالم الإسلامي، وحين اتجهت النية إلى خلق إطار يسع الأقليات العربية غير المسلمة ولا ينقُرها منه.

* وهي فكرة استعمارية ومناهضة للاستعمار: استعمارية باعتبارها أداة تُضعف من حركة الجامعة الإسلامية، ومن الروابط التي كان يمكن أن تجعل من منطقة أشمل، وأوسع حدوداً، كتلة تمثل درعاً قوياً في وجه الخطر الأوروبي والغربي... ومناهضة للاستعمار باعتبارها ردّ فعل لتقسيم مصطنع لأقطار الدولة العثمانية.

أضف إلى ذلك:

* أن تطوير الإدارة في الدول العربية على يد المستعمرين، وكذا تطوير الاقتصاد والتشريع والتعليم والأجهزة الحكومية على أسس تختلف من دول عربية إلى أخرى (ربما عن عمد) خلق من التباين في هياكل هذه الدول ما يزيد من صعوبة تحقيق هدف الوحدة.

* أن القومية بالضرورة مفهوم دنيوي لا ديني. وهو مفهوم نشأ أصلاً في أوروبا لخدمة مصالح الطبقة البورجوازية في أقطارها، وكان وراءه يعضده ويشدّ من أزره تاريخ طويل وقدر ضخم من المؤلفات الفلسفية الخاصة بالدولة وعلمانياتها والسلطة فيها: أما في الأقطار العربية فإن الفكرة ظلت تستند في جانب كبير منها إلى أساس الإسلام، ولم يتوفر لها ما توفر للقومية في أوروبا من فكر فلسفي بعيد العهد، ولا الطبقة البورجوازية الوطنية التي يمكن أن تستفيد منها. وقد حاول البعض (من أمثال قسطنطين زريق، وعبد الله العليلى، وساطع الحصري، وعبد اللطيف شرارة، وعبد الرحمن البزاز، وميشيل علق) أن يتداركوا هذا النقص، وأن يوفروا الأسس الأيديولوجية اللازمة لقومية علمانية، إن اعترفت بالإسلام ركناً منها فباعتباره ثقافة قومية لا ديناً، وباعتبار هذه الثقافة القومية ممثلة للروح العربية.. بيد أن القسط الأوفر من جهودهم كان مستقى من كتابات المفكرين الأوروبيين، خاصة روسو وهيغل ومازيني (كفكرة الشخصية المستقلة للدولة بصفقتها ضرورية تاريخية، واعتبار الأمة بناءً نفسياً وأخلاقياً مع إعطاء الأولوية لكل العضوى الذي هو الأمة على الأفراد المكوّنين لها، وإحلال المفهوم الأوروبي الخالص للأمة محل المفهوم الإسلامي لها). أما فيما عدا ذلك فقد غلب عليهم الطابع الرومانسي الوجداني الذي يتجاهل المصالح والصراعات الطبقيّة تجاهلاً تاماً، وهو ما يتمثل في قولة ميشيل علق «إن القومية هي المحبة قبل أيّ شيء آخر»!

عبد الناصر يدخل الميدان

وقد لقيت القومية العربية سنداً جديداً لها فى أحداث العالم العربى منذ عام ١٩٤٩، والانقلابات المتتالية التى أطاحت بالكثير من الأنظمة العربية القديمة (سوريا عام ١٩٤٩ - مصر عام ١٩٥٢ - العراق والسودان عام ١٩٥٨ - اليمن عام ١٩٦٢ - اليمن الجنوبي عام ١٩٦٧ - ليبيا عام ١٩٦٩).. فقد ظهرت حركات شعبية ذات مزايم أيديولوجية (كحركة البعث والناصرية) تقول بحتمية الوحدة العربية، وتتخذ موقف العداء الشديد من الغرب، وتتحدى بالإصلاح الاقتصادى والاجتماعى فى الوطن العربى، ثم بالاشتراكية، مع إعادة لتعريف القومية العربية بحيث يستبعد الرجعيين من الحكام العرب، ومع اعتبار إسرائيل العدو اللدود لهذه القومية.

لقد ظلت القومية العربية حتى ذلك الحين، فى عهد ملكيات المنطقة - مفهوماً وديعاً متواضعاً لا يكاد يتعدى كتابات عدد محدود من المفكرين، ومآدب فى القصور الملكية لزعماء العرب يخطب فيها الخطباء ويتغنّى المغنّون.. أما مع ظهور عبد الناصر بمطامحه، فقد أضفى طابع جديد على القومية العربية أدّى إلى عداوات عربية عنيفة، وصراعات على زعامة العالم العربى (خاصة بين مصر والعراق والمملكة السعودية)، بل وإلى حروب أهلية (لبنان عام ١٩٥٨، واليمن فيما بين ١٩٦٢ و ١٩٦٧). وقد قامت فى مصر بدءاً بعام ١٩٥٥، ولأول مرة فى تاريخها، حملات منظمة واسعة النطاق تحاول غرس مفهوم القومية العربية والانتماء العربى فى أذهان أفراد الشعب، وذلك عن طريق وسائل الإعلام القوية، والمناهج الدراسية فى المدارس والجامعات، وكتابات المفكرين المنصاعين للنظام أو المخلصين فى عقيدتهم، وخطب الزعماء والقادة، ودعايات الاتحاد الاشتراكى بشعاراته ولافتاته.. وقد بدأ فى وقت من الأوقات (خاصة عند قيام الجمهورية العربية المتحدة التى ضمت مصر وسوريا عام ١٩٥٨) وكأن فكرة القومية العربية، بمفهومها المعادى للغرب، قد دخلت حيز التنفيذ وبدأت تحرز قسماً من النجاح، فكان أن شمرّ الغرب ساعده لضربها بالتحالف مع الأنظمة الرجعية فى المنطقة، فكان انفصال سوريا عن مصر عام ١٩٦١، وكانت حرب ١٩٦٧ التى قلّمت نهائياً من أظفار عبد الناصر وأذهبت ريحه، وشككت العرب فى أنفسهم وقدراتهم، وشككت شعب مصر فى جدوى النظام الاشتراكى، وجدوى التدخل فى الشؤون العربية الداخلية، خاصة وقد اعتبر تدخل عبد الناصر المشنوم فى اليمن أحد أسباب الهزيمة فى الحرب على يد إسرائيل.

فشل عبد الناصر إذن فى توحيد الأمة العربية عن طريق الدعاية أو الثورة أو استخدام القوة، كما فشل حزب البعث فى تحقيق الوحدة أو الاشتراكية فى قلاعها الأصلية، وهى سوريا والعراق والأردن.. وقد انتهى الحال بعبد الناصر فى السنوات الثلاث الأخيرة من حكمه - وبعد أن خالت الأمة العربية أنه صلاح الدين الجديد- إلى أن أصبح تابعاً للاتحاد السوفيتى، يكاد اعتماده أن يكون قاصراً عليه من أجل إنقاذه من ورطتيه: الاقتصادية والعسكرية.

فى السبعينيات

غير أن اختفاء عبد الناصر من مسرح الأحداث العربى عام ١٩٧٠، والظروف التى أدت إلى حرب أكتوبر عام ١٩٧٣ ضد إسرائيل، وهى التى أسفرت عن قدرٍ من النصر ردت إلى العرب ثقتهم المفقودة فى أنفسهم، وتعاضم نفوذ عدد من الدول العربية النفطية بالغة الثراء وتأثيره فى الاقتصاد العالمى وقى اتجاهات الدول الغربية حتى يصدد إسرائيل، كل هذا أدّى إلى إعطاء دفعة جديدة للقومية العربية، ولكن مع إضفاء طابع جديد عليها.. فقد تبددت الآن الأوهام الرومانسية التى كانت لصيقة بأفكار حزب البعث، كما تبخّر المطامح والنزعات البروسية للزعامة المصرية، ودخل مفهوم القومية العربية فى صورته الجديدة شكل من التضامن على أساس من المصلحة المشتركة، وإدراك للخطر الاقتصادى والسياسى والحضارى الذى تمثله إسرائيل، وعى بإمكان إقامة كتلة اقتصادى عربى إقليمى ينافس كتلة الدولة الغربية الصناعية.. وقد كانت هذه هى الصورة الجديدة التى بدت عليها القومية العربية عقب حرب ١٩٧٣، وحيث أن أغنى الدول العربية الممولة لهذا الشكل الجديد هى من الناحيتين السياسية والاجتماعية أشد دول المنطقة محافظة وتمسكاً بالتقاليد، فإن الاشتراكية لم تعد الطابع البارز للقومية العربية، وإنما أصبح طابعها الغالب ربط العروبة بالإسلامية ربطاً دعامته المال والثراء.

ولم يكن ثمة مفر إزاء هذا البعث الجديد للقومية العربية عقب حرب ١٩٧٣، وإزاء صورتها التى بدت أكثر واقعية وأقرب احتمالاً لتحقيق أهدافها، من أن يحاول الغرب تسديد ضربات أخرى إليها، والعمل جاداً على بث بذور الشقاق والفرقة فى الصفوف، وكما أنه فى عام ١٩٦٧ قد اختار مصر هدفاً أولياً لصبّ نغمته (عن طريق إلحاق الهزيمة الساحقة بجيشها)، فقد اختارها الآن ولكن على نحو مخالف وبناء على الاعتبارات التالية:

* أن فكرة القومية العربية والوحدة لم تظهر فيها على نحو جادٍ إلا متأخرة عن الدول العربية الأخرى.

* أن هذه الفكرة لم تتغلغل في نفوس المصريين تغلغلاً كافياً، ولم تتعدَّ بائٍ حال من الأحوال رعوس أقلية من أصحاب الأقلام المتأثرين بالأفكار الغربية (لا الإسلامية)، ومن سكان المدن، دون الأغلبية الساحقة من سكانها من الفلاحين ثم من العمال الذين لم يشعروا في أيّ وقت من الأوقات بالحاجة إليها. أما مثقفو القبط، فبالرغم من أن بعضهم مال إلى الفكرة على أمل منه في أنها قد توفر إطاراً سياسياً دنيوياً مقبولاً لديهم، فإن غالبية أفراد الطائفة ظلت دائماً في خشية من قيام رابطة عضوية بين القومية العربية والإسلام.

* أن التجربة الفاشلة للوحدة مع سوريا شككت المصريين في جدوى الوحدة وإمكان تحقيقها عملاً.

* ميل عدد كبير من المصريين إلى الإحساس بانتماء لهم غير عربى، يغذّيه فيهم قدم ماضيهم وأجدادهم من الفراعنة.

* ضعف حصيلة المصريين عامة من التراث العربى والإسلامى بالمقارنة بغيرهم في سوريا أو العراق مثلاً.

* اعتقاد المصريين أن ما لحقهم من ضائقة اقتصادية إنما نجم عن خوضهم حروباً باهظة الكلفة لم يسهم فيها غيرهم من العرب إسهاماً كافياً، مع إحساسهم بضعف المساعدة المالية العربية لمصر رغم التضحيات التى تقدمها مصر فى سبيل قضية عربية تهّم الجميع (وهو إحساس غدّته الصحافة المصرية ووسائل الإعلام الأخرى بها فى عهد أنور السادات).

* ثم فوق كل شيء آخر، ذلك التدهور الرهيب الذى طرأ على الأحوال المعيشية والاجتماعية والاقتصادية فى مصر، مما ضخّم فى نفوس أبنائها الرغبة فى إنهاء الصراع والحروب مع إسرائيل وهو ما صوّر لهم على أنه السبب الرئيسى فى هذا التدهور. وهو تدهور من الجائز أن يكون الغرب قد أسهم فى التسبب فيه لإحداث هذه النتيجة ذاتها.

وكان أن انصرفت جهود الغرب إلى محاولة تحقيق صلح بين مصر وإسرائيل، يُخرج أقوى دولة عربية وأعظمها نفوذاً من حظيرة الدول العربية، ساعياً فى الوقت ذاته إلى إثارة الشقاق فى جبهات متعددة داخل العالم العربى، ومعتمداً فى سعيه هذا على ما بين قادة العرب من تنافس على الزعامة، وعلى ركافة قرائحهم، وغلبة الأثرة عليهم.

ولاشك فى أن التوفيق كان حليف هذه الجهود، بالرغم من قرار قبول مصر من جديد عضواً بالجامعة العربية بعد عشر سنوات من القطيعة، وبالرغم من اتجاه دول عربية كثيرة

اليوم إلى قبول فكرة الدخول في مفاوضات صلح مع إسرائيل، أسوة بما فعلته مصر عشية إبرامها اتفاقيات كامب ديفيد. وهما أمران وإن كانا أفلحا إلى حدّ ما في رأب بعض التصدّع في صفوف العرب، لا يمكن مقارنة أثرهما بالآثار الهدّامة المفجعة التي لحقت بأفكار القومية العربية، والتضامن العربي، والوحدة العربية، من جرّاء الغزو العراقي للكويت عام ١٩٩٠.

القسم الثاني
متنوعات

حيرة إسرائيل بين السلام واستمرار الخصومة

الحيرة التي لمسناها في إسرائيل إزاء محادثات السلام مع العرب، حيرة حقيقية عميقة، لا صلة لها بتمثيل الفلسطينيين، ولا الخوف من ضغوط قد تُمارس تجاهها، أو الخشية من اضطرابها إلى الانسحاب من أراضٍ محتلة، ولا هي حيرة مصطنعة تهدف إلى تقوية يدها عند المساومة.. فإن كان إسحاق شامير قد تمكن من الحصول على موافقة الأغلبية في مجلس وزرائه على الاشتراك في المحادثات، فإن معارضة الأقلية المتشددة داخل المجلس تعكس مشاعر القلق لدى الكثيرين من اليهود في إسرائيل إزاء مشكلة جدّ عويصة، ربما كانت أعوص وأشدّ خطراً من مشكلات الاضطهاد والتمييز والتشريد التي عرّفوها في الماضي، ومشكلات الإرهاب، وضرورة الإنفاق الضخم على التسليح، وعداوة جيرانها العرب لها، مما يعرفونه اليوم.

إنها مشكلة الخطر الذي يتهدّد الهوية الدينية لدولة إسرائيل والأمة اليهودية من جرّاء إقرار السلام مع العرب، وتحول إسرائيل بعده إلى مجرد دولة عادية عصرية من دول منطقة الشرق الأوسط...

غير أن الأمر يحتاج منا إلى أن نبدأ بمقدمة تاريخية.

(١)

بنشوب الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، ودعوة قادتها إلى دين جديد هو دين العقل، وإلى التسامح والمساواة، فوجيء اليهود الأوروبيون بقدر ضخم من التحرر لم يخبروا مثله في

تاريخهم إلا خلال القرون الأولى من الدولة الإسلامية، وربما في ظل الجمهورية الرومانية.. فقد أصبحوا، رسمياً، مواطنين في الدول التي يسكنونها، لهم ما لغيرهم من غير اليهود من الحقوق، وعليهم ما على الآخرين من واجبات، وياتوا مطالبين في نفس الوقت، أو بات من المنتظر منهم، أن يندمجوا اندماجاً كاملاً في المجتمع الذي يعيشون فيه، بأنظمتها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والحضارية، حتى مع احتفاظهم بديانتهم وهويتهم.

غير أن هذا التحرر أثار لليهود مشكلة ضخمة جديدة، فهم كانوا قد اعتادوا في شتاتهم الذي دام ما يقرب من ألفى عام أوضاعاً معينة خاصة بهم، ونمطاً من العيش جاء التحرر والمساواة والاندماج تزلزل كيانه.. والمؤكد أنه ليس صحيحاً ذلك الاعتقاد الشائع بأن كافة اليهود رحبوا بمساواتهم بغيرهم من المواطنين. فالكثيرون من زعمائهم ورجال دينهم الذين ارتبطت مصالحهم الخاصة بالوضع التقليدي لليهود كاتلية مضطهدة مكروهة، وجدوا نفوذهم بين اليهود يتزعزع نتيجة لما منحوه من حقوق، ووُفِّر لهم من مساواة وتسامح ديني. وكانت هناك خشية لدى هؤلاء وغيرهم من العواقب «الوخيمة» على الديانة والتقاليد اليهودية للمساواة السياسية الكاملة، بما تتضمنه من حق الانتخاب والخدمة العسكرية، وما تعنيه أيضاً من مطالباتهم بإنهاء عزلتهم وعيشهم المستقل عن غيرهم، وإلغاء حق زعمائهم في تدبير شؤونهم.

وقد تبين للمفكرين والمتدينين اليهود بمرور الوقت أنه وإن كان التحرر والمساواة قد خدما الفرد اليهودي العادي، وحسّنا من ظروفه المعيشية والاجتماعية والاقتصادية، وأراحاه من التمييز والبغضاء والاحتقار وسوء المعاملة، فقد ثبت أنهما يهددان الأمة ككل، وينخران في العقيدة اليهودية، خاصة مع ذلك الإصرار المستمر من جانب المسيحيين على أن الشرط الأول لتحقيق التحرر التام لليهود هو أن يتخلّوا عن كل المظاهر الانفصالية والانعزالية لنمط عيشهم، وأن يهجروا تقاليدهم التلمودية، وأن يتزاوجوا معهم، وهو موقف يعنى انتشاره نهاية اليهودية، وذوبان كيان الأمة على النحو الذي كاد أن يحدث في أقطار الدولة الإسلامية في العصر الوسيط في ظل التسامح الديني.

في ظل التحرر إذن بدأت وحدة الشعب اليهودي في التفكك، خاصة مع غلبة تيار العقلانية، وانتشار المادية في العصر الحديث، وروح الاستخفاف بالدين، والسعى وراء الملذات خارج الحياة الروحية، وطلب صنوف المتع واللهو. وقد كتب إسرائيل هيلك يشايمر عام ١٨٦٧ يقول إن تسعة أعشار الشباب اليهودي قد باتوا إما ملحدين أو غير آبهين بالدين. وهاجم كل

من أُنْجِرَ، وموشى شرايبر، وصامويل دافيد لوتزاتو تحرير اليهود ومساواتهم بغيرهم، واستنكر تبني اليهود لأنماط العيش الغربية كثن للتححر، وأبرز أوجه الخلاف والاختلاف بين اليهودية والحضارة المسيحية، ووصف التحرر بأنه لا يعدو أن يكون «عبودية فى إطار الحرية»، وارتفعت الأصوات اعتباراً من النصف الثانى من القرن التاسع عشر تنادى بالقومية اليهودية، وتطالب بدلاً من المساواة بنظام من الحقوق للأقليات، والحكم الذاتى الطائفى، وحرية اللغة والتعليم المدرسى المستقل وتقرير المصير، بدلاً من الاندماج القومى فى الغالبية من السكان.

(٢)

ثم كان أن ظهرت الحركة الصهيونية التى يحسب الناس أنها ردّ فعل لمظاهر العداء للسامية، ولظواهر الاضطهاد والظلم التى عانى منها اليهود فى شتاتهم. ويكفى لبيان فساد هذا الاعتقاد أن أشير إلى أن الدعوة الصهيونية لم تظهر إلا فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، وفى أوروبا الغربية، حين كان التحرر اليهودى ومساواة اليهود بغيرهم قد قطعاً شوطاً بعيداً، ولم تظهر لا فى أقطار كروسيا وشرق أوروبا حيث كانت مظاهر العداء للسامية قوية ملموسة، ولا قبل الثورة الفرنسية فى عصور الاضطهاد الحقيقى لليهود.

وواقع الأمر فى رأى أن الحركة الصهيونية إنما جاءت كرد فعل لتحرير اليهود ومساواتهم واندماجهم، لا للعداء للسامية.

ذلك أن زعماء هذه الحركة إنما كانوا من بين أناس آمنوا إيماناً قوياً بأن اليهودية لا يمكن أن تظل قائمة بانتهاء عزلة اليهود، وتآكل نمط حياتهم باندماجهم فى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية فى الدول المختلفة التى يعيشون فيها.

نظر دعاة الصهيونية إلى اليهود فى أوروبا والولايات المتحدة، فإذا هم يرون العلمانيين منهم وهم يعلنون أنهم لم يعودوا فى حاجة إلى مسيح يخلصهم من الاضطهاد؛ إذ لم يعد ثمة اضطهاد، ويرون المثقفين يجاهرون باعتقادهم أن الوصايا العشر وغيرها من الأوامر والنواهى الدينية إنما كانت مرتبطة بأسباب وظروف تاريخية معينة قد زالت وانقضت. فهم ليست شريعة ميتة فحسب - على حدّ تعبير بولس الرسول - وإنما هى أيضاً عقبة فى سبيل الحداثة

والاندماج فى المجتمع الدولى وتأسيس روابط الودّ والإخاء مع جيرانهم. وقد أصاب الصهيونيين الذعر إذ يرون الكثيرين من بنى جلدتهم يتزاوجون مع غير اليهود، والآلاف من شبابهم تعتنق الماركسية وغيرها من المذاهب الاشتراكية، ومن علمائهم ومثقفهم وقد شرعوا يفسرون الديانة اليهودية وبداياتها وفق المفاهيم العلمية الحديثة، وينقدون «العهد القديم» على ضوء أفكار سبينوزا ومندلسون، ويذهبون إلى أنه ليس فى التوراة فى حقيقة الأمر جديد، وأنها تكاد تكون برمّتها مأخوذة عن عقائد مصر الفرعونية وبابل وفينيقيا. كما رأوا التقدميين منهم وقد شاع بينهم هجر التقاليد وأنماط العيش القديمة، (رغم أن اليهودية إنما تُعنى بنمط العيش أكثر مما تُعنى بالعقائد)، ولم يعولوا يحترمون أجازة السبت ومتطلباتها، ولا يحتفلون بالأعياد، ويرونها ضارة بالاقتصاد ومضيعة للوقت ومجحفة بالتجارة، كما هجروا فرض الختان الذى هو الطقس التقليدى للدخول فى عهد إبراهيم، وبلغت بهم القحة حدّ وصف كل ذلك وغيره بالتقاليد البالية التى لا تناسب أحوال العصر الحديث واحتياجاته.

فالصهيونيون إذن هم فى الأصل جماعة تؤمن بأن لليهود رسالة خاصة، وهوية خاصة، قد أضحى فى خطر نتيجة انتشار العلمانية والمادية والإلحاد، ونتيجة لذوبان اليهود فى المجتمعات حولهم. ومن اللازم حماية الشعب اليهودى من هذا الخطر بتجميعه فى وطن خاص به، يواصل فيه أهدافه الحضارية دون تأثير أجنبى. وعندهم أن اليهود كانوا دائماً وحدة حضارية مستقلة، وينبغى أن يظلوا كذلك. كما أعلنوا صراحة تفضيلهم لوضع اليهود فى أقطار القارة الأوروبية قبل الثورة الفرنسية حين كانوا يتمتعون بحكم ذاتى واسع النطاق دون المساواة. فالحكم الذاتى دون مساواة هو فى رأيهم أفضل لليهود من المساواة دون حكم ذاتى. أما عن خرافة «التسامح الدينى» فهى ليست ناجمة عن اتساع أفق وتهذيب طباع كما يدعى البعض، وإنما هى ثمرة الإلحاد الذى ساد أهل هذا الزمان، وما أسهل التسامح على غير المؤمن!

(٣)

مثل هذه الخشية من الذوبان فى المجتمعات المحيطة، لا هى بالجديدة على اليهود، ولا بالقاصرة على أفراد ملّتهم.

فكثيراً ما حدث فى التاريخ أن لجأت دول أو أمم أو طوائف أو جماعات إلى اعتناق ديانة أو مذهب، أو حتى عقيدة سياسية أو اقتصادية، تنفرد به أو بها عن سائر ما يحيط بها من دول أو جماعات، فتجعل عقيدتها مذهباً رسمياً، ولا يكون وراء هذا الاعتناق غير شدة الحرص على بقاء الدولة أو الجماعة متميزة عن جيرانها الذين يهدّون كيانها ومقوماتها، والحرص على إضفاء طابع قوى من الاتحاد والتضامن بين أفرادها، يحول بينهم وبين الذوبان والضياح فى خضم جيران حولهم هم أكثر عدداً، وكلما اشتدت هذه الغيرة على الحرية والاستقلال والسمات الشخصية، زاد اتجاه القادة إلى إدخال نظريات جدّ غريبة، أو طقوس جدّ متميزة، فى عقيدة الجماعة، حتى يستبعدوا كل احتمال لأن تكون هناك أرضية مشتركة بين الجماعة وجيرانها، وحتى تحقق العزلة الكاملة للجماعة، ويزيد إحساس أفرادها بحاجتهم إلى التضامن والتكاتف وباعتماد بعضهم على بعض من أجل درء الخطر المشترك.

ففى التاريخ اليهودى نجد المكابيين (أو المقارع) يقومون فى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد بجهد جماعى انتحارى فى فلسطين من أجل مقاومة التهديد الحضارى الهيلينى لترات اليهود وتقاليدهم.

وجاء من بعدهم الفريسيّون الذين وضعوا القواعد الصارمة المفصلة التى تكفل تجنّب كل صلة بمن هو ليس يهودياً، وتحذّر من تأثير الهيلينية التى رأوها تهدّد بابتلاع الديانة اليهودية واستئصالها من الوجود.

فإن انتقلنا إلى الدروز فى الشام وجدناهم يسكنون المناطق الجبلية، وأهل الجبال فى العادة شديداً الاختلاف فى الخلق والعادات والطباع عمن يجاورهم من أهل السهول الأكثر عدداً، وبالفو الحرص على ألا تُفسد الصلات بينهم وبين جيرانهم تقاليدهم المتميزة. وقد وجد سكان بعض المناطق الجبلية بالشام فى العقيدة الدرزية التى تؤله الحاكم بأمر الله وتذهب إلى أنه لم يُقتل وإنما اختفى عند سور الصين العظيم وسيعود فى وقت ما لينشر العدالة فى الأرض، وسيلة مناسبة لتحقيق هذا الغرض، ونجحوا فى خلق روح من التضامن الوثيق بين أفراد طائفتهم فى مواجهة العالم الخارجى بأسره.

وفى إيران، وبالرغم من أن غالبية سكانها عام ١٥٠١ كانت سنّية المذهب، قرر مؤسس الدولة الصفوية فيها إسماعيل الصفوى أن يكون مذهب الإثنا عشرية الشيعى هو المذهب الرسمى للدولة، ومارس مختلف الضغوط على الشعب الإيرانى من أجل تحويله عن سنّيته، وذلك فى سبيل إقامة حاجز من الكراهية والريبة فى وجه العثمانيين السنّيين الزاحفين شرقاً لاقتطاع القوقاز وأذربيجان والعراق من الدولة الإيرانية.

وفى منتصف القرن التاسع عشر ظهرت فى روسيا جماعة من المفكرين والمثقفين تدعى بالسلافوفيل تذهب إلى أن الروس أمة فضلكها الله على العالمين، وأنهم أرقى خلقياً وحضارياً وسياسياً ودينياً من غيرهم، وأن عليهم بالتالى أن يحذروا دعاة التغريب، وأن يقاوموا تأثير أوروبا الغربية الزاحف إلى بلادهم، وأن يقلصوا علاقتهم بها إلى أقصى حد ممكن.

وقد تكرر حدوث هذه الظاهرة فى الإسلام، وكان من أمثلتها الحديثة فى مصر الجماعة الإسلامية التى أقدم أفرادها على تكفير المجتمع الذى يعيشون فيه، واختاروا أن يوصدوا الأبواب عليهم بون المجتمع بأسره، حتى لا يتأثر دينهم بمظاهر الفساد والانحلال ووهن العقيدة الدينية حولهم.

(٤)

بيد أنه إن كانت الظروف التاريخية خلال الألفى عام الماضيين قد سمحت بظهور مثل هذه الاتجاهات الانعزالية لفترات تطول حيناً وتقصّر حيناً، فأغلب ظنى أنها اتجاهات مقضى عليها بالفشل الذريع فى ظل المجتمع الدولى الجديد الذى نشهد اليوم بزوغ فجره، واتضح معالمة.

بزوغ فجر هو أشبه ما يكون ببزوغ فجر المسيحية فى تاريخ البشرية:

إذ كيف يمكننا أن نفسر فشل المكابيين والفريسيين فى القرن الأول قبل الميلاد، إلا على ضوء ازدياد قوة الاتجاه فى ظل الدولة الرومانية إلى تحويل أقطار العالم المعروف آنذاك إلى وحدة سياسية متشابهة، تسودها بعد ذلك عقيدة قوية متماسكة، فجاءت الديانة المسيحية تيسر قبول الأمة للأوضاع الجديدة المطلوبة ومسايرتها، وكانت أخلاقياتها خير سبيل إلى ضمان التعايش السلمى بين أهل فلسطين وحكامها الرومان، فى حين كانت أخلاقيات المكابيين والفريسيين تعرقل هذا الانسجام؟

وكيف يمكننا أن نفسر اليوم ما شهدناه فى الأعوام القليلة الماضية من انهيار مفاجئ لى دوى رهيب للستار الحديدى الذى أقامه ستالين بين دولته ودول أوروبا الشرقية وبين العالم الخارجى، من أجل الحيلولة بون تسلل التأثيرات الخارجية إليها، إلا على ضوء القدرات الجديدة التى باتت البشرية تملكها اليوم، وتضاؤل العالم نتيجة التغيرات التى أحدثها تقدّم فى

العلم لم يسبق له مثيل، بحيث كان لابد من تحطيم البنيان السياسى الذى عرفه القرنان التاسع عشر والعشرون، وتبيين للجميع فى جلاء أنه من المستحيل أن تُعاد إقامة البنيان الاقتصادى والسياسى للعالم على النمط القديم، وأن مسيرة العائلة البشرية نحو عصر السلام والرخاء، ونحو الأخوة الإنسانية المشتركة قد جعل منها العلم الحديث البديل الوحيد لاندثار الحضارة وسقوطها؟

وما من شك عندى فى أن موقف الصهيونيين والمتشددّين الإسرائيليين اليوم، وخشيتهم من أن يؤدى إبرام الصلح مع الدول العربية المجاورة إلى نوبان إسرائيل تدريجياً فى مجتمع منطقة الشرق الأوسط، وإلى فقدان اليهود لهويتهم الدينية والحضارية، هما أشبه شىء يتمسك الكتلة الشيعية حتى مؤخراً بستارها الحديدي، وأن مصير هذا الموقف منهم سيكون كمصير ذلك.. وقد كان لبوريس باسترناك، الشاعر والروائى اليهودى السوفييتى، فضل الإشارة لأول مرة (فى روايته «دكتور جيفاجو») إلى توافق موقفى اليهودية والشيعية السوفييتية من التاريخ، (وهما موقفان تنبأ بأن يؤول أمرهما فى المستقبل إلى الفشل)، وتعارضهما مع الموقف المسيحى الذى هو الموقف السليم الوحيد اليوم.. كتب يقول:

«شىء ما فى عالمنا قد تغيّر.. فقد عفا الزمن على مفهوم الزعامة والأمة بعد أن حل مكانه مفهوم الشخصية والحرية... وأىّ مثل هو أفضل من مثل اليهود لضحايا هذا النمط البالى من العقليات؟ لقد اضطروهم مفهومهم القومى، قرناً بعد قرن، إلى أن يكونوا أمة، ولا شىء غير أمة. والعجيب فى الأمر هو أن هذه المهمة القاتلة قد كبلت أيديهم وأقدامهم على مرّ العصور، فى حين تخلّصت بقية العالم منها بفضل قوة جديدة (هى المسيحية) نبعت من بين ظهرانيهم هم، وعبرت عن نفسها بلغتهم هم.. أليس هذا غريباً؟ لقد رأوها بأعينهم، وسمعوها بأذانهم، ثم أداروا ظهرهم لها.. كيف! كيف سمحوا لأنفسهم بأن يرفضوا كل هذا الجمال والروعة والقوة فى المسيحية وأن ينحوها جانباً، وأن يختاروا لأنفسهم بعد انتصار المسيحية أن يعيشوا على مدى القرون الطويلة مقهورين مضطهدين؟ ولصلحة من كان هذا الاختيار وهذا العذاب؟ لماذا لا يقولون لأنفسهم اليوم: «كفى هذا.. لننتوِّف الآن.. لا تتمسكوا بهوييتكم إلى الأبد.. لا تتجمعوا فى كتلة واحدة... تفرّقوا... كونوا مع بقية البشر.. إنكم أول المسيحيين فى التاريخ وخيرهم.. وقد كان أسوأ رجالكم وأضعفهم هم المسئولون عن رفضكم لتلك العقيدة التى هى جوهركم...»

وهى قولة من باسترناك حبّذا لو استعادتها ذاكرة المفوضين الإسرائيليين إذ يجتمعون
لبحث مسألة السلام مع جيرانهم العرب.

عن حاضر العالم الثالث ومستقبله

كنت فى مدينة ستراسبورج للاشتراك فى ندوة عقدها المجلس الأوروبى لبحث سبل تنمية التعاون الأوروبى العربى.. وقد وجدت نفسى خلال حفل غداء أقامته رئيسة المجلس للمشاركين، أجلس إلى جوار الكاتب السويسرى أرنولد هوتينجر، الذى أجريت معه الحوار التالى:

س: لاشك فى أن فهم كل من الأوربيين والعرب للطرف الآخر تحكمه منذ مئات السنين، وإلى اليوم، مجموعة من الكليشيهات أو الأفكار المبتذلة التى عفى عليها الزمن، والتى أن الألوان لتعديلها وإحلال المفاهيم السليمة مكانها.. ما هى فى رأيكم طبيعة هذه الكليشيهات، وجذورها التاريخية، وكيفية استئصالها؟

ج : فى ظنى أنه ما دام ثمة توازن فى القوى بين شعبين أو حضارتين يدفع كلا من الطرفين إلى الاعتراف بقوة الآخر وإلى أخذه بعين الاعتبار والاهتمام، فإن الكليشيهات هنا إن نشأت فهى فى العادة كليشيهات تنم عن الاحترام والتقدير، حتى مع الاعتراف باختلاف الطرف الآخر، سواء فى القيم أو الدين أو أسلوب العيش، فهنا نجد الإقرار بالجوانب الإيجابية ومزايا أساليب الحياة لدى الآخرين ونواحي القوة فى معتقداتهم وقيمهم.. من أمثلة ذلك ما نجده فى كتب الأوربيين فى العصر الوسيط من إشادة بحضارة مسلمى الأندلس، ومن مديح لصلاح الدين الأيوبي أو الظاهر بيبرس، وفى كتب المؤرخين المسلمين فى نفس العصر من إعجاب بشخصية فردريك الثانى إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة أو ببلاطه فى صقلية.

غير أن كل هذا يتغير متى ما اختل هذا التوازن فى القوى وأصبح ثمة طرف أقوى بكثير من الطرف الآخر، سواء من الناحية العسكرية أو الحضارية أو الاقتصادية.. فهنا

يصبح الطرف الثانى موضع احتقار الاول، وتضحى نظرة الاول إليه ليست فقط باعتباره «مختلفاً»، ولكن أيضاً باعتباره ضعيفاً و«متخلفاً»، ولا مستقبل أمامه إلا إن هو تعلم من الاول وتبنى مفاهيمه وأسلوب عيشه ومظاهر حضارته. وهنا تنشأ لدى الطرف القوى حاجة إلى الحفاظ على ذلك الوضع من اختلال التوازن، لا بالوسائل العسكرية فحسب (فهى وسائل مكلفة سواء بشرياً أو مادياً)، وإنما أيضاً عن طريق النشر المتعمد لمجموعة من الأفكار والكلشيهات الخاصة بنوجه الاختلاف بين الطرفين، وتصويرها على أنها ثابتة لا تتغير، وذلك من أجل إثبات حقه فى استعمار هيمنته، وغرس الشك لدى الآخر فى ذاته وفى قدرته على التصدى بنجاح لمقاومة الطرف الاول الذى ينتمى إلى جنس أرقى، وحضارة أعلى.

حينئذ يهيم الطرف الأقوى أن يشيع لدى الجميع، هنا وهناك، فكرة أنه الطرف المتحضر، وأن عليه عبء نشر الحضارة فى الأقطار الهمجية المتأخرة، ومسئولية إلحاق هذه الأقطار بركب الحضارة والمدنية ولو فى ذيل ذلك الركب.. وفى اعتقادى أنه ربما كان من الأهداف الرئيسية لإنتاج مسلسلات تليفزيونية أمريكية مثل «دالاس» وغيره، وعرضها فى دول العالم الثالث، إطلاع شعوب العالم الثالث على ما تتمتع به الشعوب المتحضرة من رخاء وثراء ونعيم عيش، وهو ما لن يحققه العالم الثالث ولو بعد ألف عام، «ما لم تبدأ شعوبه من الآن بإبداء الرغبة والاستعداد لاقتفاء أثرنا نحن، وإطاعتنا طاعة كاملة، والامتثال لأوامرنا، ببيعها مثلاً ما فى أراضيها من النفط لنا نحن، وهو النفط الذى وجدناه نحن فى صحاريهم التى تتبعهم اسماً..» فعن طريق الأفلام والمسلسلات التليفزيونية وما شابهها إذن يمكن تبليغ هذه الرسالة بصورة غير مباشرة، ولكنها أكثر فعالية وأبلغ تأثيراً، بالنظر إلى أنها تتسلل إلى العقل الباطن دون أن تلقى مقاومة أو اعتراضاً، فيصعب التصدى لها أو تحديها.

ولا يكتفى الغرب بإبراز الجوانب «الإيجابية» من حضارته هو، وإنما يعنى أيضاً بإبراز الجوانب «السلبية» فى المجتمعات التى يهيمن عليها، وذلك من أجل استئصال أى إحساس بالذنب أو تائب الضمير قد يشعر به المهيمون من جرأ استغلالهم أو استعمارهم لأقطار أخرى.. فهو يصور شعوب تلك الأقطار على أنها فى حاجة دائمة إلى مساعدة الغرب وتوجيهاته بالنظر إلى عجزها عن مساعدة نفسها، ويحاول أن يخلق لدى تلك الشعوب استعداداً لقبول كل ما يقرّر الغرب أنه مفيد لها وله.. وعلى سبيل المثال: صحيح أنه لا يزال فى العالم العربى حمير وجمال ونخيل ورمال وخيام وبدو، غير أن هناك اليوم أشياء أخرى كثيرة غير هذا.. ولذا فإن الشركات السينمائية تكثّر من إنتاج الأفلام التاريخية أو المستقاة

من قصص الكتاب المقدس، حتى ترسخ في أذهان المشاهدين من الأوروبيين والأمريكيين هذه الصورة القديمة عن الشرق الأوسط. فإن تناولت الأفلام موضوعات حديثة، فهي عادة أفلام بوليسية أو أفلام مغامرات تُظهر أهل المنطقة بنفس الصورة البدائية تقريباً.. ولا يلاحظ المتفرجون عندنا إلا نادراً أن هذه الأفلام تقدم عامدة خدمة كبيرة لمصالح نوى النفوذ في الغرب، بخلقها مفاهيم وكليشيهات عن مدى تخلف أهالي الأقطار الأخرى.

س: ألم تتغير خلال نصف القرن الأخير طبيعة مصالح الغرب في مستعمراته السابقة، وبالتالي سبل تحقيق أهدافه فيها؟

ج: لاشك في ذلك.. حدث تغيير جذري حين وضع في بعض الدول - كبريطانيا مثلاً - أن المستفيد من المستعمرات ليس هو الشعب البريطاني، وإنما هي جماعات معينة من الطبقات العليا في المجتمع البريطاني.. هذه الجماعات أضحت بمقدورها اليوم تكوين الثروات بطرق أخرى غير الاستعمار، كما أنها اكتشفت فجأة أن الإبقاء على المستعمرات بات يكلف المستعمرين أكثر مما تدرّه هذه المستعمرات من دخل، بالنظر إلى اضطراب المستعمرين إلى الإنفاق على جيوشهم فيها، بل وفي أحيان كثيرة إلى إنفاق بعض الأموال من أجل تخفيف أعباء الفقر المدقع الذي يعيش فيه أهالي مستعمراتهم، وهي أموال رأى المستعمرون من الأجدى إنفاقها على الطبقة العاملة البريطانية... وبتغير طبيعة المصالح، قررت بريطانيا فجأة منح مستعمرات كالهند ومصر استقلالها الذي جاهدت من أجله لسنوات طويلة في الماضي.

وفي السنوات التالية للحرب العالمية الثانية نشأت نظرة أمريكية متفائلة، مؤداها أن كل الدول المتخلفة (أو النامية كما سميت فيما بعد) يمكنها أن تلعب دوراً مرغوباً فيه، هو دور الشريك في التجارة والصناعة الدوليتين، شأنها في ذلك شأن ألمانيا الغربية التي ساعدها مشروع مارشال على الوقوف على قدميها.. وقد خُيل للأمريكيين أن النهضة الاقتصادية للدول النامية يمكن أن تتحقق وأن تؤتي ثمارها في زمن قصير جداً.. بوسعنا أن نسمى تلك الفترة بفترة «أساطير التنمية»، وكان أساسها الفكرة التالية: «نحن نساعدكم الآن حتى تصبحوا قريباً شركاء في عالم الغد الزاهر الذي سنعيش فيه جميعاً في رخاء عيم». وقد كان الجميع مخلصين في قبولهم لهذا الزعم وتصديقه. غير أن الذي حدث هو أن الفكرة لم تتمخض إلا عن تصدير واسع النطاق لرؤوس الأموال إلى الدول المتخلفة، وتصدير أوسع نطاقاً للسلع الاستهلاكية، تدفع تلك الدول ثمنها مما لديها من مواد خام، وبما حصلت عليه من قروض

وائتمانات، حتى وجدت نفسها دون أن تدري مكبلة الأيدي والأقدام، وقد زاد اعتمادها سنة بعد أخرى على الدول الصناعية فى حصولها على السلع والمواد الغذائية والخبرات، بل والأفكار ذاتها، ثم أفاق لتدرك أنها باتت غارقة فى ديون لا هى قادرة على تسديدها ولا حتى تسديد قيمة فوائدها.

أما عن أفراد الطبقة الحاكمة المتفرنجة فى تلك الدول فقد كانوا دائماً من الأناثية وضيق النظرة والتعلق بمصالحهم الخاصة بحيث قدروا أن أهم احتياجات بلادهم تتمثل فى السلع الاستهلاكية ومستلزمات الترف التى شاهدها فى الأفلام المصدرة إليهم.. أما الأمر الأكثر إيلافاً فهو أن هذا النمط المتبنى من التنمية لم تصحبه تسوية للنزاعات والصراعات بين الأقطار المتجاورة فى العالم الثالث، وقد استغلت الدول العظمى هذه النزاعات لصالحها بتزويد الأطراف المتصارعة بالأسلحة مقابل ما لديها من ثروات زراعية أو نفطية، وانشغلت الأقطار المتخلفة باستخدام هذه الأسلحة فى تدمير بعضها البعض.. كذلك فإن تطبيق سبل العناية الصحية والأساليب الطبية الحديثة، نتج عنه زيادة رهيبية فى تعداد سكان دول العالم الثالث، مما كان يبتلع أولاً بأول ثمار أى تقدم تحققه مشروعات التنمية.

على ضوء هذه النكسات وغيرها تغيرت مرة أخرى نظرة الدول الصناعية المتقدمة إلى طبيعة مصالحها، فظهرت فيها نظرية جديدة مؤداها «أن الآخرين مختلفون عنا، والأجدى أن نتركهم وحدهم، وأن نركز اهتمامنا على المناطق القليلة ذات الثروات التى لا غنى عنها لنا ولصناعاتنا ومجتمعنا.. وأهم هذه الثروات هو النفط، فعلىنا إذن أن «نضمن» ما يسمى بالاستقرار فى تلك المناطق أو الدول «الهامة».. ومن حسن الحظ فإن تعداد السكان فيها هو عادة قليل، فلنجعل منها الشركاء الجدد للعالم الصناعى، وكلما زاد اعتماد مواطنيها على حمايتنا العسكرية لهم، زاد حقد جيرانهم الفقراء عليهم. غير أن هذا لن يضير العالم الصناعى فى شىء، فالحقد لابد أن يستثير المخاوف، وستضطرب المخاوف شركائنا الأغنياء فى الأقطار المنتجة للنفط إلى الاعتماد أكثر فأكثر على حماية الدول الصناعية القومية.

سنكون عندئذ كالبرتغاليين الذين أدركوا فى مرحلة معينة من تاريخهم أنه لم يعد بمقدورهم الاستمرار فى استعمار وحكم بقاع شاسعة من بقاع الأرض، فاخترأوا الاحتفاظ بعددٍ منقّى من الموانئ تظل تحت هيمنتهم، وتضمن تدفق الثروات الناجمة عن التبادل التجارى على البرتغال.

الخطر الوحيد الذى قد يتمخض عن مثل هذا الوضع الجديد من وجهة نظر الدول

الصناعية، هو أن تتجه الملايين المتكاثرة من الشعوب التي لم نخترها شركاء لنا والتي تركناها وشأنها، إلى التضامن والتضافر ضدنا. ولكي نحول دون تحقق هذا التضامن والتضافر، علينا بأن نتمسك دائماً بسياسة «فرق تسد»، وأن نخلق الأسباب والدواعي التي تدفعهم إلى التحارب فيما بينهم، في الوقت الذي ننشغل نحن فيه بتنسيق مصالحنا وسياساتنا السياسية والصناعية. كذلك فإنه سيكون بمقدورنا دائماً أن نبعث بقوات دولية إلى تلك المناطق بدعوى الحفاظ على السلام والاستقرار، ثم نبقىها هناك إلى أبد الأبدين.. ففي بعض تلك المناطق، مثل كشمير، ظلت القوات الدولية باقية لأكثر من أربعين عاماً أفلحت خلالها لا في حل النزاع وإنما في تطويقه... وها هي قبرص وقد أصبحت مثلاً آخر.. وسيكون بوسعنا أن نقنع الكافة بسهولة أن الذنب ليس ذنبنا وإنما هو ذنب تلك الشعوب المتخلفة التي تتحكم العواطف فيها لا العقل، والتي ستبقى إلى الأبد (على حد تعبير أحد الجنرالات الإسرائيليين الذي ربما كان في تعبيره أصح مما ينبغي) كالصراصير السكارى داخل زجاجة مغلقة! والأفضل من كل ذلك أن ننشر هذه الفكرة من خلال الأفلام المصورة لهذه الصراعات والاشتباكات، حتى يراها الكافة ويصدق الجميع زعمنا أنهم هم المسؤولون الوحيدون عن وضعهم البائس.

لقد نجحت الدول الصناعية في تكييف مشاعر وآراء الشعوب المتخلفة والمتقدمة على السواء، فقد بات لدى الشعوب الغنية إحساس راسخ بتفوقها وحققها في الهيمنة على مقدرات العالم، وأضحى لدى الشعوب الفقيرة إيمان بتخلفها وبمشروعية وضعها الذليل في عالم اليوم. أما الدول المتخلفة الغنية كدول الخليج المنتجة لنقط تبيعه لنا، فلا حاجة بها إلى الإحساس بالنقص، حيث أنها باتت دولاً صديقة لنا وتحت حمايتنا.. فإن حدث ما لا مفر من حدوثه في بعض الأحيان وثارَت الدول الفقيرة على وضعها، فستنشأ الحاجة من حين إلى آخر إلى استخدامنا للقوة في قمع تمردها، ما لم تكن فيها حكومات قوية يمكننا الاعتماد عليها في استخدام الشرطة والجيش من أجل القضاء على القلاقل. وستعمل الصورة التي غرسناها عن حكمتنا وشعورنا بالمسؤولية، وعن نزقهم وافتقارهم إلى الشعور بالمسؤولية، على تبرير هذه الإجراءات الحكيمة، وهذا التدخل «المشروع» من جانبنا، حتى لو تصادف أن لاحظ البعض كيف أن هذه الإجراءات وهذا التدخل تتفق اتفاقاً تاماً مع مصالحنا الخاصة.

س. ما دور الحكومات المحلية في ظل هذا الوضع؟

ج. للحكومات المحلية فوائدها في مثل هذه اللعبة.. وكلما زادت خدماتها لنا سيزيد

استعدادنا للتفاخى عن حكمها الاستبدادى فى بلادها.. ذلك أن استخدام الحكام المستبدين بالسلطة كأدوات لتنفيذ مصالحنا هو أسهل علينا من استخدام الأنظمة الديمقراطية، وذلك بالنظر إلى شدة خوف المستبدين على حياتهم، وشدة تعلقهم بمناصبهم، مما يضطرهم اضطراراً إلى طلب حمايتنا.. وهذا هو بالضبط سرّ إبقاء الولايات المتحدة على صدام حسين فى حكم العراق بعد هزيمته الساحقة فى حرب الخليج. فبالرغم من محاربتة وتشبيها إياه بهتلر وكل ما صبيناه عليه من لعنات، قد أصبح الرجل الآن بعد تأديبه وتقليم أظفاره أهلاً لأن يكون شريكاً لنا. وقد استفاد صدام استفادة عظيمة من مثل جاره الأذى والأكثر فطنة، وأعنى حافظ الأسد فى سوريا الذى فهم قواعد اللعبة، وأخذ نفسه بالانصياع لها، واقتنع بأنه من الأفضل الانضمام إلينا وإلا أطيح به... غير أننا سنظل دائماً على تفضيلنا للدول النفطية ذات التعداد الصغير من السكان، لأن إدارتها أسهل من إدارة الدول الكثيرة السكان مثل إيران والعراق والجزائر ومصر.

س. ألا ترى أن مثل هذه النظرة من الدول الصناعية نظرة ضيقة، وخطرة عليها فى المدى البعيد، وشبيهة بقولة لويس الخامس عشر «بعدى الطوفان»؟

ج. بالتأكيد.. ثمة خطر من أن تضحي الدول الصناعية حبيسةً فضحيةً لمفهومها عن مصالحها، وكليشيتها عن العالم الثالث وعن نفسها، وهى الكليشيات التى تخلقها أجهزة الإعلام فيها.. ذلك أن كل ما يشغل بالها حالياً هو كيفية الاستفادة المادية فى الوقت الراهن وفى المستقبل القريب، ثم «بعدى الطوفان» كما قلت. انظر إلى مبيعاتنا من السلاح مثلاً إلى الدول النامية. أو انظر إلى أفلامنا وبرامجنا التليفزيونية التى تخلق الرغبات والتطلعات لدى شعوب فقيرة لن يمكنها أبداً إشباعها أو تحقيقها، اللهم إلا حكامها وطبقة جدّ محدودة من الأثرياء فيها.. نحن نسعى إلى أن تقلدنا هذه الشعوب لأننا نعرف أن التقليد بطبيعته يرسخ الإحساس بالنقص والشعور بعدم المساواة.. غير أن إعلامنا وأفلامنا تقول لهم: «عليكم بالعمل على اقتناء ما لدينا مهما كانت كلفة ذلك عليكم وعلى مجتمعاتكم وإلا بقيتم على تخلفكم». ولاشك فى أن هذه الرسالة رسالة خطيرة. فتزايد رغباتهم وتنامي تطلعاتهم - دون القدرة على إشباعها - يهدّدان أمننا. وإدراكنا لهذا الخطر سيدفعنا إلى أن نحصر - بل وقد بدأنا نحصر من الآن - على بناء أسوار عالية حول مجتمعنا الصناعى المتقدم حتى لا يتسلل إلينا الفقراء والإرهابيون وسائر الخطرين على أمننا من العالم الثالث.. بدأنا نضع العقبات فى

سبيل حصولهم على تأشيرات دخول إلى أراضينا، أو على تصاريح بالإقامة أو العمل فيها، ورفعنا أسعار تذاكر السفر إلى أقطارنا. وسيأتي الوقت الذي لن نسمح فيه بالدخول إلينا إلا لعدد محدود جداً منهم وذلك في أوقات الرخاء حين نكون في حاجة إلى أيدي عاملة رخيصة تقوم بالأعمال الوضيعة التي يابى مواطنونا أداؤها، أو إلى أطفال نتبناهم حين يقل عدد السكان في هذا البلد من بلادنا أو ذاك..

غير أن هذه الأسوار لاشك في أنها ستُخترق متى عظم الضغط عليها من الخارج، وسيزداد الضغط عليها كلما ازدادت الشعوب الفقيرة المتخلفة فقراً وتخلفاً.

وهنا يكمن الخطر علينا.

بعدى الطوفان نعم، ولكن ليس بعد أولادى.

وإن يتحقق تصحيح الوضع إلا إذا تغيرت طبيعة نظرتنا الراهنة إلى علاقاتنا بالعالم الثالث... تغييراً جذرياً.

صحوة الموت

(١)

ما الذى تحمله فى مليّاتها السنوات القليلة القادمة؟

أغلب ظنى أنها تحمل للبشرية سلسلة متلاحقة من الأزمات الرهيبة على غرار ما عرفناه منها منذ منتصف السبعينيات: حرب أهلية فى لبنان؛ حرب عراقية إيرانية؛ انهيار الأنظمة الشيوعية فى أوروبا الشرقية؛ حرب الخليج الثانية؛ الجرائم الإرهابية للجيش الجمهورى الأيرلندى، ولجبهة الإنقاذ الإسلامية بالجزائر، وللجماعة الإسلامية بمصر؛ مذابح المسلمين والسيخ فى الهند، والمسلمين والأرمن فى مرتفعات الكاراباخ؛ تمزّق أوصال يوغوسلافيا ومذابح الصرب والكروات ضد مسلمى البوسنة والهرسك؛ الصدمات العنصرية فى لوس أنجلوس؛ القتال بين فصائل المسلمين فى أفغانستان؛ انفجار مركز التجارة العالمية فى نيويورك، وتقابل المافيا فى روما وفلورانس....

أزمة إثر أخرى على هذا المنوال، يجمعها كافة عنصر واحد، هو أنها جميعاً مظاهر لضروب شتى من التعصب: الدينى، والتعصب المذهبى، والتعصب العنصرى، والتعصب الأيديولوجى، والتعصب القومى، أو ما شئت. وستتسم هذه الأزمات المتوالية فى ربع القرن القادم بأبشع ما يمكن للتعصب أن يتّخذه من أشكال، وهو ما اتسمت به أزمات ربع القرن الماضى. وهو ما يدفعنى إلى القول بأن نصف القرن ما بين عامى ١٩٧٥ و ٢٠٢٥ سيوصف بأنه نصف القرن الذى شهد صحوة الموت لدى كافة الأيديولوجيات والمذاهب والعقائد، والذى كان قبيح معالمة وأحداثه السبب المباشر فى خمود كافة أشكال التعصب بانتهائه.

حينئذ سيكون قد انغرس فى أفئدة الناس وعقولهم - ويسبب التجارب الأليمة والخبرات المفجعة - إيمان بأن صنوف التعصب المتنوعة إن هى إلا بدائل عن احترام الفرد لذاته.

وكما فى صحوة الموت، فإنه كثيراً ما ينفجر التطرف والتعصب والهوس عشية احتضار العقيدة.. فقد ظهر هوس الصليبيين عشية عصر النهضة؛ والهوس الدينى إبّان حرب الثلاثين عاماً فى أوروبا عشية ازدهار العقلانية والعلمانية والتنوير فى القرنين السابع عشر والثامن عشر؛ والتمسك الأهوج لدى سكان الجنوب من الولايات المتحدة الأمريكية بنظام الرق عشية تحرير الرقيق؛ والوطنية المسعورة المتمثلة فى الفاشية والنازية إبّان الربع الثانى من القرن العشرين عشية أفول النزعة الوطنية فى الغرب....

ويبقى تساؤلنا الوحيد: كم تستغرقه من الوقت عملية التهام النار لنفسها؟

أما التساؤل عن كيف تموت الفكرة فقد عرفنا إجابته: تطرف الحروب الدينية قضى على الدين فى أوروبا. وتطرف المشاعر القومية قضى على القومية. وتطرف أهل القرن التاسع عشر فى إيمانهم بما يخبئه العلم للبشرية من ثمار وكنوز قضى على الأمل فى مستقبل أفضل.

(٢)

قد ولّى إذن عصر الإيمان باليوتوبيا أو المدينة الفاضلة.. تبدّدت أوهامنا وتحوّلت براءتنا وسذاجتنا إلى نضج عقلى.. بتنا نعرف ما لم يعرفه معظم مؤرخى القرن التاسع عشر وعلماء الاجتماع فيه: بتنا نعرف نهاية القصة... كل قصة.. ونعرف العواقب الوخيمة لانتصار الأيديولوجيات، وتحقق الأحلام، ونيل التطرف لأهدافه.. شهدنا نهاية الرايخ الثالث الذى ظن هتلر أنه سيبقى قائماً لألف عام تالية، بعد مرور اثنتى عشرة سنة من تأسيسه.. وشهدنا صورة مؤسس الفاشية الإيطالية معلقاً على المشنقة.. وشهدنا بالأمس انهيار المشروع الحضارى الذى ضحى من أجله ملايين الشيوعيين بأرواحهم.. وشهدنا الخاتمة المروعة لأم الممارك.

أدركنا الآن جيداً أن الجهل يميل بطبيعته إلى التطرف.. فما من أحد يتطرف بصدده ما يفهمه حق الفهم، وإنما نتطرف فى أفكارنا وأرائنا بصدده الأمور التى نجهلها، أو نلّم بطرف يسير منها.

وأدركنا أن أولئك الشباب الذين يهّبون فى عزم وقوة من أجل المشاركة فى صنع التاريخ هم أجهل الخلق بالتاريخ.. فهم لا يدرون أن بناء المدينة الفاضلة لا يتحقق إلا عن

طريق الإرهاب، وأنه لن تمر فترة طويلة على بنائها قبل أن تبته كافة معالمها وسماتها إلا سمة الإرهاب.. إرهاب الدولة.. إرهاب «أبطال الحرية» من أمثال موسوليني وستالين وهتلر الذين ثبت لنا الآن أنهم كانوا لا يعرفون ما يصنعون بتلك الحرية، وأنهم كانوا طوال الوقت، ومنذ البداية، مجرد أناس متعطشين إلى السلطة.

أدركنا أنه من الأسهل علينا أن نحب الإنسانية من أن نحب جيراننا، وفهمنا كيف يمكن لأحد الأثرياء الروس في القرن التاسع عشر، وهو ميخائيل بيتراشيفسكى أن يكتب في يومياته يقول: «إننى إذ قد فشلت فى العثور على إنسان أحبه، رجلاً كان أو امرأة، قررت أن أكرس حياتى لخدمة البشرية»... وقد رفع بعض أفضع الأنظمة الفاشية فى قرننا هذا شعار خدمة البشرية، وتغنى به، وضمنه دساتيره، فى الوقت الذى كان يعتمد فيه بصفة أساسية، ومن أجل البقاء فى الحكم، على وشاية الفرد بجاره.. وقد ظلت الأنظمة الشيوعية ترى فى حب الجار شعوراً معادياً للثورة، كما عاب ماوتسى تونج على المثقفين الليبراليين فى الصين عدم إقدامهم على الإبلاغ عن معارفهم وأصدقائهم وأقاربهم وزملائهم وأصدقائهم وأحبائهم من غير المتعاطفين مع النظام القائم.

نحن لا ننكر أن البواعث قد تكون نبيلة فى الأصل، والنوايا طيبة فى البداية، والرغبة فى تغيير الأوضاع الفاسدة قائمة.. غير أنه كثيراً ما تكون النتيجة عكس ما كان مرجواً فى البداية، ويكون العلاج أسوأ من المرض.. فالإصلاح عملية تجرى على جسم المجتمع، بيد أن المصلحين يختلفون عن الجراحين من الأطباء فى أنهم لا يعملون حساباً للأضرار الجانبية غير المتوقعة، وهى الآثار التى تحول مسار الإصلاح إلى عواقب غير مرغوب فيها، ودهية فى أحوال كثيرة.. وحينئذ يغدو «المصلحون» من أطباء المجتمع جزءاً من المرض ذاته.

نبدأ بالسير فى نهج الاشتراكية بهدف تحقيق العدالة الاجتماعية، فينتهى بنا النهج إلى فاشية غاشمة وهيمنة للبيروقراطية على مقدرات الدولة.

وقد نتحول إلى انفتاح لتحرير الاقتصاد القومى، فإذا بمعظم من أفاد منه هم ممن لا خلاق لهم ولا مبدأ، وإذا بنا حيال تضخم ضاعت معه طبقة الموظفين والبرجوازية الصغيرة.

وقد نرى للناس كافة حقاً فى التعليم كحقهم فى الهواء والماء، فإذا التوسع فيه يؤدى إلى إغراق المجتمع بمتعلمين يريدون لأنفسهم مكاناً تحت الشمس، وينتهى بهم الحال إلى أن يصبحوا من أخطر عناصر التوتر الاجتماعى وعدم الاستقرار.

وقد نذهب إلى أنه ما من أمل للدولة المتخلفة في النهوض من كبوتها إلا بأخذها بأسباب الحداثة، وإلى أن التحديث في حقيقته لا يعدو أن يكون تقليداً للغرب. فإذا التقليد يولّد إحساساً بالنقص، وشعوراً ذليلاً بعدم الصلاحية، وإذعاناً لقيم وتقاليدها تخالف قيمنا وتقاليدها، وإذا هذا الإحساس بالنقص يولّد المرارة وأعمال العنف ومشاعر العداوة للغرب.

وقد ننتمى إلى أن الأمل معقود بتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية، فإذا النظام الذي يدعى الأخذ بها لا يطبق منها غير قطع أيدي حفنة من اللصوص الفقراء، وجلد زانية أو زانيتين في ميدان عام، وتفريغ زجاجات الخمر من محتوياتها في الأنهار والبحيرات.

(٣)

ما السبب؟ ما السبب في أنه ما من دولة إسلامية واحدة حتى الآن حققت نجاحاً يقارب نجاح اليابان أو تايوان أو كوريا الجنوبية أو سنغافورة أو ماليزيا أو هونج كونج في التحديث والتنمية السريعة؟ لقد بدأت مصر مسيرة التحديث مع بداية القرن التاسع عشر، أي قبل أن تبدأها اليابان بنحو نصف قرن.. وهي اليوم مع ذلك دولة متخلفة ينهش الفقر أحشائها. أما عن دول النفط الخليجية الغنية فما عملية التحديث الجارية فيها غير تحديث لأوجه الاستهلاك لا غير.

لقد كان تدفق الذهب على أسبانيا والبرتغال من ممتلكاتهما في العالم الجديد سبباً في التعجيل بتدهور قوتيهما... وأغلب ظنى أن تدفق الأموال على دول النفط العربية سيكون أهم أسباب تحللها وانهارها، وهي التي لا تنفق أموال النفط على سبل تحديث أقطارها بقدر ما تنفقه على سبل التمتع والترف واللذة، وعلى شراء الأقلام والصحف وضمم وضمان المفكرين في الدول العربية الأخرى، وعلى نشر الأفكار المتحجرة البالية، وإشعال نار الفتنة، والإساءة إلى غير المسلمين.

هلى ثمة خطأ يا ترى في تركيبة عقول مسلمى هذا الزمان يتنافى مع كل متطلبات مزاج الحداثة؟ يخيل إلى أن ثمة خطأ جوهرياً.. قد يكون هناك سخط على أوضاع معينة، غير أنه ليس بالسخط الذى يولّد التوتر الذى يدفع الفرد إلى بذل الجهد المستمر من أجل الارتقاء بنفسه وبمجتمعه وبلده وبالعالم، وإلى أن يثبت كل يوم من جديد قدره وقيمه وصلاحيته للبقاء.

وقد استقر لدى شعوب الدول الصناعية المتقدمة إحساس راسخ بعدم صلاحية المسلمين للاشتراك معها فى تكييف صورة المجتمع الدولى الجديد. وها نحن نكاد نقرأ ونسمع يوماً عن لَبَنَات جديدة يضيفها المجتمع الصناعى المتقدم إلى الأسوار العالية التى يبنها حوله حتى لا يتسلل إليه المهاجرون من العالمين الإسلامى والعربى. فالقوانين فيه يجرى تعديلها من أجل وضع العقوبات فى سبيل حصول هؤلاء على تأشيرات دخول إليه، أو على تصاريخ بالإقامة والعمل فيه.

غير أن هذه الأسوار لاشك فى أنها ستُخترق متى عظم الضغط عليها من الخارج. وهاكم كيف سيكون اختراقها:

فى الفيلم الأمريكى Penhouse (بنتهاوس) يلتقى الشاب الفنى بعشيقته الجميلة فى جرسونيرته. وإذ هما معا فى الفراش يدق جرس الباب فيهب الشاب من الفراش ليفتحه، ويجد نفسه أمام رجلين فى ثياب العمال يزعمان أنهما يريدان إصلاح خلل فى أنابيب الغاز فى الشقة. غير أنه ما إن يسمح لهما بالدخول حتى يشهرا فى وجهه مسدسين ثم يقيدانه وعشيقتة بالحبال، ويكتمان المرأة، فاهيهما، ويشرعان فى نهب محتويات الشقة، ثم يتواليان فى اغتصاب ثم يجلسان لشرب كأسين من الخمر، ويستمتعان أثناء شربهما لأغنية مسجلة على اسطوانة تتضمن المغزى من قصة الفيلم.

فهى تحكى عن رجل دخل حمام داره فإذا به يجد على أرضه تمساحين صغيرين.. يتناول التمساحين من ذيليهما ويلقيهما فى التواليت ثم يشدّ عليهما السيفون، ظاناً أنه بذلك قد تخلّص منهما إلى الأبد. غير أن التمساحين وقد انتهى بهما المطاف إلى المجارى، يتوالدان فيها ويتكاثران، ثم يأتى الوقت الذى تصعد فيه التماسيح الكبيرة عبر المواسير إلى حمام دار الرجل، فتلتهمه هو وزوجه وأولاده.

خواطر حول مفهوم السياسة

من المصادفات الشائقة، أو المفارقات الطريفة، تزامن بزوغ فجر الحياة السياسية الحديثة وفجر الحياة الاقتصادية الحديثة منذ نحو مائتي سنة. فقد شهد العقد التاسع من القرن الثامن عشر نشأة الطبواوية السياسية التي تبشّر بالمدينة الفاضلة، وكذا نشأة الرأسمالية الصناعية، دون أن يجمع بينهما سببٌ مشترك، أو دواعٍ واحدة. وقد مرّ على الاثنتين، كما ذكرنا، قرنان كاملان يجعلان من السهل علينا أن نقارن بين مسيرتهما وإنجازاتهما. فإن كنا لا نزال إلى اليوم نسمع الكثيرين يتساءلون: «هل للرأسمالية مستقبل؟» ولا نسمع أحداً يتساءل: «هل للسياسة مستقبل؟»، فإن الأمر خليق بأن يبعث على الدهشة، خاصة إن نحن درسنا إنجازات كل منهما ومدى وفائها بالوعود التي بشّرت بها عند نشأتها. فالتباين هنا واضح صارخ: قد جاوزت الرأسمالية الصناعية أقصى ما طمح إليه مؤسسوها، في حين لم تلق الطبواوية السياسية غير الفشل الذريع.

وعود وكوارث

لقد تنبأ الكثيرون في أوروبا وقت نشوب الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، (ومن بينهم القسّ الراديكالي ريتشارد برايس، والعالم الكبير جوزيف بريستلي والشاعر ويليام بليك) بوشك إقامة ملكوت السماء في الأرض، وبأن ما تشهده البشرية وقتها من «تحسن مطرد في أمورها وأحوالها لا بدّ من أن يسفر عن قدر من السعادة والفضيلة لم يعرفه تاريخها قط»، وبأن العالم هو «في سبيله إلى أن يخرج من الظلمات إلى النور، ومن الجهل والخرافة إلى المعرفة القطعية الثابتة، ومن الرقّ إلى الحرية». قيل هذا قبل سنوات قلائل من قيام عهد الإرهاب، ومن بدء ربيع

قرن من حروب الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية، شهدت البشرية بعدها حربين عالميتين هما أكبر حربين في التاريخ كله، وروحاً جديدة من القومية العدوانية عبّرت عن نفسها في صورة تسليح تقليديّ ونوويّ، وتوسع إمبرياليّ، وإيمان كره بالتفوّق العنصريّ.

كذا كانت ثمار الطوباوية السياسية. وقد حدث التغير الضخم في بداية العقد التاسع من القرن التاسع عشر. فإن كان بإمكاننا أن نسمى القرن فيما بين عامي ١٧٨٠ و١٨٨٠ بالعصر الأول للسياسة المحترقة، فلا بدّ من تسمية القرن فيما بين عامي ١٨٨٠ و١٩٨٠ بعصر شمولية السياسة. فقد شهد ذلك القرن الأخير بدء التوسّع في تشكيل الأحزاب السياسية الجماهيرية التي حلّ الإقبال على الانضمام إليها محل التردّد على الكنائس للصلاة، ومنح قطاعات عريضة من الشعب حق الاقتراع، وانحسار هيمنة طبقة الملاك على البرلمانات، وتأسيس نقابات عمالية لا تسعى إلى تحسين الأحوال المعيشية للعمال فحسب وإنما أيضاً إلى الملكية الجماعية، وإقامة نظم للضمان الاجتماعي. كما شهدت الثمانينيات من القرن الماضي غلبة الاشتراكية على الليبرالية باعتبارها فلسفة المستقبل، وغلبة فكرة شمولية الدولة على فكرة الدولة العقلانية.

وكانت النتيجة حدوث كوارث لم يشهد التاريخ مثيلاً لها. فقد نجم عن تصاعد القومية وتفشى السياسات الشمولية القائمة على الصراعات العرقية والطبقية، حربان عالميتان تتضاغل بجوارها الحروب النابوليونية، لقي مصرعه في الأولى ثلاثون مليون نسمة، وفي الثانية خمسون مليون نسمة، ثم لقي مصرعه أكثر من ثلاثين مليون نسمة في أكثر من مائة وخمسين حرب صغيرة نشبت منذ عام ١٩٤٥. كذلك تمخضت عن هذه السياسات الشمولية معسكرات الموت، ولجوء الحكومات إلى عملية غسيل المخ لمواطني بلادها وللأجانب على سواء، وتعاضم قوة الشرطة السرية التي بلغ عدد أفرادها في الاتحاد السوفييتي وحده قبل زمن جورباتشوف أكثر من مجموع عدد أفراد كل الجيوش الأوروبية مجتمعة في عصر نابليون.. فإن كان قد ظفر باستقلاله في الحقبة الأخيرة نحو مائة دولة جديدة، فإن معظمها قد استبدل بالحكم الاستعماريّ حكومات وطنية أشد استبدادا وقمعا... ولا تزال السياسية الشمولية مع ذلك تعد الناس بإقامة ملكوت السماء في الأرض. غير أنه لم يعد ثمة من يصدّقها غير القليلين. أما الغالبية فتنتظر ظهور نيتشه جديد يعلن على الملأ «أن السياسة قد ماتت».

إنجازات الرأسمالية الصناعية

فإن نحن نظرنا إلى مسيرة الرأسمالية وجدنا أنها لم تكن فلسفة أو أيديولوجيا من

وحى فيلسوف اقتصادى حالم، ثم تبنّتها أحزاب سياسية، وصاغتها برلمانات فى صورة قوانين، وإنما تطورت الرأسمالية الصناعية بكل بساطة بفضل الصفقات الخرة والنشاطات غير المنسقة والحركات غير المعاقة لأفراد مجهولين لا حصر لهم. فهى لم تكن أبداً من خلق السياسة، وإنما كانت ثمرة للثورة الصناعية التى تعتبر من أهم الأحداث فى تاريخ البشرية، والتى أتاح لها أن تزدهر وتنتج «خمول» السياسيين وسليبتهم إبان سنواتها.. فالتصنيع نفسه لم يكن قط فى برنامج الطوباويين أو السياسيين أو المفكرين الليبراليين، وإنما كان حركة ذاتية نمت من تلقاء نفسها، فى هدوء ودون ضجة، ودون أن يلتفت إلى مغزاها أحد. ومع ذلك فإن ما نجم عن هذه الحركة هو ذلك الرخاء واسع النطاق الذى كان المثاليون السياسيون قد وعدوا البشرية به ولم يمكنهم تحقيقه، بل إن هؤلاء السياسيين - حتى الراديكاليين منهم - ظلوا على مدى قرن ونصف قرن يصرون على القول بأن التصنيع كان على حساب مصالح الطبقة العاملة، وأن توفير رأس المال اللازم لتدشين الطور الأول من الرأسمالية الصناعية لم يكن ممكناً إلا بخفض مستوى معيشة العمال. وهو اتهام وضع بطلانه خاصة بعد أن أثبتت دراسة أعدّها بيتر ليندرت، وجفرى ويليامسون عام ١٩٨٣ أنه حتى خلال الأطوار الأولى للثورة الصناعية (من ١٧٨١ إلى ١٨٥١)، قد طرأ تحسن هضم فى مستوى معيشة قطاعات عريضة من العمال البريطانيين.

صحيح أن توفير القدر المناسب من الطعام وتوفير الكساء والسكن والسفر السريع الرخيص ووسائل توفير الجهد ليس بكل ما يلزم من أجل إسعاد الإنسان. غير أنه من المؤكد أنه يسهم إسهاماً كبيراً فى هذا السبيل، بحيث يمكن القول بأن الرأسمالية الصناعية كان لها من الفضل فى إسعاد البشر (أو التخفيف من معاناتهم) ما يفوق فضل أى ظاهرة أخرى من صنع الإنسان. فإن كان صحيحاً أيضاً أنه بانقضاء القرن الثانى من الرأسمالية الصناعية لانزال نشهد فى العالم مظاهر من الفقر المدقع، فإنما نجد معظم هذه المظاهر فى مناطق لم تتغلغل إليها الرأسمالية تغلغلاً كاملاً. ومع ذلك فإنه لا مجال للشك فى أنه بالرغم من تزايد عدد سكان العالم على نحو لم يعرفه من قبل، فإن نسبة الفقراء من بين مجموع سكان العالم هى الآن أقل بكثير منها فى أى عصر من عصور التاريخ.

وقد تحققت الزيادة الضخمة فى إنتاج السلع والخدمات دون أن يكون للحكومات أو السياسيين يدٌ فيها ولا دخل إلا فى أضيق الحدود. فالتغير الاقتصادى والنشاط الإبداعى اللذان حققا للعالم مستوى أعلى من الرخاء المادى إنما تولّدا عن تفاعلات متبادلة خفية بين

التكنولوجيا وعمليات الإنتاج والتسويق، أو بعبارة أخرى، إنهما قد حدثاً داخل أمعاء الرأسمالية الصناعية بفضل مئات الابتكارات والاختراعات، وآلاف المبادرات، وملايين القرارات. غير أن كل هذه الابتكارات والمبادرات والقرارات لم يكن وراءها أبداً خطة أو تدبير. أما عن الحكومات فإنه يكاد يكون من المستحيل الإشارة إلى قرار سياسى واحد اتخذته كان له أثر فى دفع هذا الاتجاه أو تأخير، أو أثر محسوس فى تشجيع عملية خلق الثروات. قد يكون لقرارات السياسيين والحكومات بإعلان الحرب أثر فى الإسراع بتطوير التكنولوجيا أو التوسع فى الإنتاج، غير أنهما كانا دائماً أثريين جانبيين للحرب، حدثا بالمصادفة لا بفضل التخطيط المرسوم أو السياسة الواعية.

تدخل السياسيين فى الإنتاج

لقد جاء نمو الثروة مستقلاً عن السياسة. ولا كان للسياسة تأثير فى ازدهار الاقتصاد العالمى أكبر من تأثيرها فى مناخ العالم. أما التأثير الإيجابى الوحيد للسياسة فهو التأثير الذى نتج حين قامت الحكومات بإزالة عقبات من صنع البشر كانت تعترض طريق النمو الحرّ للرأسمالية الصناعية، فسهّلت بذلك تحقيق ازدهار التجارة الدولية، وإن لم تكن المسؤولة عن خلق هذا الازدهار. واختصاراً فإن الحكومات إنما تخدم النمو الاقتصادى حين تحجم تماماً عن التدخل فيه، أو حين تقدم على إزالة مظاهر تدخلها فى الماضى.

أما حين يرغب السياسيون الحكومات على التدخل المباشر فى ميدان الإنتاج (رأسمالية الدولة) فإن النتيجة فى الغالبية العظمى من الحالات هى عرقلة التنمية، وأحياناً تقليص حجمها. ولعل أوضح مثل لذلك هو الزراعة فى روسيا التى يتزايد اعتمادها يوماً بعد يوم على الواردات من الدول الرأسمالية من أجل إطعام الشعب، وهو أمر يتكرر فى بلدان عديدة من العالم كلما أخذت السياسة فيها على عاتقهم مهمة اتخاذ القرارات فى ميدان إنتاج الغذاء، كما فى رومانيا وكوبا وتزانيا واثيتنام، حيث تحولت الوفرة إلى ندرة، والفائض إلى عجز. أما المناطق الأربع التى يقتصر اعتماد العالم الآن عليها فى إنتاج الفائض الغذائى فهى الولايات المتحدة وكندا وأستراليا وأوروبا الغربية، وكلها دول رأسمالية.

وما كان حظ السياسيين فى ميدان الإدارة الصناعية بأحسن كثيراً. فإن الواقع

التاريخى يشير إلى أن روسيا كانت قد تجاوزت نقطة الانطلاق فى التصنيع قبل نشوب الحرب العالمية الأولى بعدة سنوات، حيث بلغ معدل نمو التصنيع ٨٨٪ فى السنوات ما بين ١٩٠٨ و١٩١٤، وهو ما يفوق معدل النمو فى أى من الدول الأوروبية الأخرى، بما فيها ألمانيا. ويرجع المؤرخون أن يكون الخوف من هذا النمو الصناعى الروسى الذى من شأنه أن يزيد من قدرات روسيا العسكرية، هو الذى دفع حكام ألمانيا عام ١٩١٤ إلى خوض الحرب ضدها قبل أن يفوت الأوان. كذلك فإن الأرجح أن تكون السياسة السوفيتية القائمة على رأسمالية الدولة واتخاذ السياسيين لكافة القرارات الحيوية فى مجالات الإنتاج، كانت المسؤولة عن عرقلة النمو الاقتصادى فى الاتحاد السوفيتى، والحيولة بينه وبين أن يصبح أكبر قوة اقتصادية فى العالم.

وتعتبر التجربة اليابانية أصدق مثال لما يمكن إنجازه متى ترك السياسيون الاقتصاد وشأنه. كما أنه من المفيد أن نقارن معدل النمو البطيء فى إنتاج الدول الإشتراكية بذلك النجاح الباهر الذى حققته كل من سنغافورة وتايوان وهونج كونج حيث ينتحى السياسيون جانباً تاركين للرأسمالية مهمة حل مشاكلها بنفسها، وهو ما يأتى صنعه ساسة أفريقيا وآسيا ممن يفرضون قراراتهم السياسية على الاقتصاد، فإذا التقدم فيها يتباطأ، والإنتاج يضمحل، والانهيارات الاقتصادية تعظم وتتفاقم.

عالم الغد ومستقبل السياسة فيه

لقد كانت السياسة دائماً، ومنذ قديم الزمان، شديدة الارتباط بالحياة فى المدن. وقد كان العالم قبل بزوغ فجر الثورة الصناعية (وفجر الحياة السياسية الحديثة) عالماً زراعياً فى المقام الأول. ثم أدت الثورة الصناعية إلى شروع السكان فى التركز فى المدن، وإلى ظهور طبقة البروليتاريا التى أمكن للسياسيين تنظيمها وتوجيهها واستغلالها فى تحقيق مراميهم. وفى أواخر القرن التاسع عشر أضحت الوحدات الصناعية بالغة الضخامة، وأصبح للمدن الدور الأول فى توجيه الحياة الاجتماعية بالدول المتقدمة، وبات بالإمكان تشكيل أحزاب عمالية كبيرة يديرها سياسيون محترفون لا يرون فى العمال غير أصوات انتخابية وأنوات للضغط على معارضتهم. ولا أدل على أن التصنيع قد قوى من يد السياسيين من أن عمال المصانع

(وهم أناس عاديون) كانوا دعامة الانقلاب الذى دبره لينين فى أكتوبر ١٩١٧، ودعامة حركة موسوليني فى إيطاليا (القمصان السوداء)، وحركة هتلر فى ألمانيا (القمصان البنية).

غير أننا اليوم نشهد تغيراً راديكالياً فى الأوضاع. فمند أكثر من ثلاثين عاماً وعدد العاملين فى الصناعة يقل تدريجياً وباطراد، بحيث يمكن القول إن طبقة البروليتاريا هى الآن فى انحسار. (مثال ذلك أن نسبة القوة العاملة فى التصنيع ببريطانيا إلى مجموع سكانها بلغت فى أوائل الخمسينيات أربعين فى المائة ثم أصبحت فى عام ١٩٩٠ لا تزيد كثيراً عن الخمس). ولاشك فى أن هذا الانحسار سيضعف من سلطان السياسيين. بيد أن الثورة الحقيقية التى ستدمر السياسة كما نفهمها، وكما فهمها أجدادنا، والتى بدأت بالفعل تحدث تغييرات جذرية لا تقل فى ضخامتها عن ضخامة آثار الثورة الصناعية، فتمثل فى تكنولوجيا المعلومات والأدمغة الإلكترونية التى سيكون لها الشأن الأول فى مجال التنظيم، فتؤثر بالتالى فى مستقبل السياسة.

ذلك أنه إن كانت الثورة الصناعية قد مالت إلى تركيز أعداد ضخمة من العمال فى وحدات صناعية كبيرة جداً فمكنت بذلك من نشوء السياسة الحديثة، فإن ثورة تكنولوجيا المعلومات ستؤدى (وتؤدى بالفعل) إلى تفريق العمال وتشتيتهم. وقد أضحت الشركات والمصانع المعتمدة على التكنولوجيا الرفيعة إما صغيرة الحجم أو متوسطة، وباتت تختار مواقع لها لا فى المراكز الصناعية الكبرى التقليدية حيث يزدحم السكان، وإنما فى ضواحي المدن، أو فى القرى والريف. وهى ليست بالوحدات الصغيرة نسبياً فحسب، وإنما نلمس فيها كذلك اتجاهها إلى السماح للعاملين فيها بأداء جانب من أعمالهم فى منازلهم ولا مناص من أن يؤدى ذلك إلى انهيار مفهوم «أصوات العمال الصناعيين»، وإضعاف الأحزاب الجماهيرية القائمة عليها. كما أنه ليس من المستبعد أن يتقلص قريباً - ونتيجة لذلك - مجال استخدام تعبير «السياسة»، وأن يكون عصر السياسة قد اقترب من نهايته، بعد أن ثبت فشلها فى تحقيق الإنجازات، ولم يتمكن السياسيون من الوفاء بوعودهم.

فإن صدقت توقعاتنا هذه، فما الذى عساه أن يحلّ محلّ السياسة؟

لاشك فى أن العمال فى الدول المتقدمة سيكونون على درجة عالية جداً من التدريب والمهارة بحيث يصبح كل منهم مسئولاً عن إدارة وتوجيه الأجهزة الإلكترونية وأجهزة الروبوت (الإنسان الآلى) التى ستؤدى أعمالاً يؤدّيها الأدميون فى الوقت الراهن. وقد ذكرنا أن هؤلاء العمال سيوزعون على وحدات صغيرة، وأن الكثيرين منهم سيؤدون جانباً من أعمالهم

(والبعض كلّ أعمالهم) فى بيوتهم. فالراجع إذن أن يصبح البيت محطة عمل ذات اتصال بمكتب رئيسى. وإن يكون هذا الاتصال قاصراً على ربط العمال برؤسائهم فى العمل، بل سيتعداه إلى ربطهم بعضهم ببعض، وبالكثير من المهام المتصلة بالحكم وإدارة الدولة، بحيث يغدو هؤلاء المواطنون المتعلمون المهرة شديدي الشبه بتلك الطبقة المتميزة فى أثننا القرن الخامس قبل الميلاد التى كان أفرادها يساهمون مساهمة مباشرة وشخصية فى عملية اتخاذ القرارات.

الغالب إذن أن يحل العامل الماهر المستنير فى القرن الحادى والعشرين محل السياسى التقليدى، وأن يحل عملُ الإلكترونيات الحديثة محلّ خرافات الطوباويين ودجل السياسيين، وأن يدير العمال شؤون الدولة بأنفسهم، لا أن يتركوها فى أيدي من يزعم أنه يتصرف أو يتحدّث نيابة عنهم.

خواطر حول مفهوم الشرف

لم أشاهد إلا منذ بضعة أيام فيلم إيناس الدغدي «عفواً أيها القانون»، وهو فيلم يسجل احتجاجاً قوياً على الاختلاف الشاسع في تقييم المجتمع والقانون وإدانتها للخيانة الزوجية من جانب المرأة ومن جانب الرجل، وتشددتهما في الحالة الأولى بالمقارنة إلى تسامحهما النسبي في الحالة الثانية.

وقد انصب تفكيري عقب مشاهدة الفيلم على ما عساه أن يكون السبب في هذا الاختلاف الواضح في الحكم، وخطر في ذهني تفسير أعرضه فيما يلي:

لأسباب عدة لا داعي للخوض فيها في هذا المقال (قد يكون أبرزها ما استقر من أن الرجل أكثر احتمالاً للأعمال الشاقة والمجهود العضلي)، استقرت الأوضاع في الغالبية العظمى من المجتمعات على أن يتفرغ الرجل لمهمة كسب العيش والصيد والحرب والحكم إلى آخره، وأن تتفرغ المرأة للأعمال المنزلية ورعاية الطفل وبعض الأعمال الخفيفة التي تعاون بها الرجل في ميدان الزراعة والحرف اليدوية وغيرها. وقد كان من نتائج هذا التقسيم في العمل الذي يعرفه الطير والحيوان (ولكن فقط في مرحلة الحمل ورعاية الصغير، ولا تعرفه في غيرها)، أن أصبحت إناث البشر تعتمد اعتماداً شبه مطلق على الذكور في توفير كافة احتياجاتهن المتنوعة، وإشباع رغباتهن المتعددة، في حين كان المطلب الأساسي للرجل من الأنثى هو الجنس، سواء لإشباع الغريزة أو الإنجاب. وقد استقر بناء على ذلك ترتيب اجتماعي مقتضاه أن ينال الرجل مطلبه هذا من المرأة شريطة أن يتولى هو إشباع الاحتياجات والرغبات المتعددة للمرأة ولأولاده منها. ويتضح من هذا أن حاجة الأنثى إلى الذكر كانت في الأصل - ولقرون وقرون - أوسع مدى وأشد إلحاحاً من حاجة الذكر إلى الأنثى، وأن خيرها وصالحها ورغد عيشها كانت تتوقف على هذا الترتيب.

غير أن هذا الترتيب كان دائماً محفوقاً بالمخاطر التي دفعت النساء من أجل الحفاظ

عليه إلى نوع من التحالف والتضامن فيما بينهم، حتى يواجهن جنس الرجال بأسره باعتباره العدو المشترك الذى يملك بفضل قوته العضلية وانفراده بكسب العيش وبالحكم كل أطايب الحياة.. لقد أصبح لزاماً على المرأة حتى تشارك فى الاستمتاع بهذه الأطايب أن تروض الرجل وأن تجعل من زواجه بها ضرورة لا مفر منها. ولكى يصبح هذا الزواج أمراً لا مفر منه بالنسبة للرجل، بات من اللازم أن تكون المرأة حازمة متشددة بحيث لا تسمح للرجل بأن ينال غرضه منها إلا بالاستسلام وقبول الزواج، فإن تبنّت هذا الموقف الحازم النساء أجمعين، أمكن للغالبية العظمى منهن الاستفادة من هذا الترتيب وإشباع حاجاتهن. بيد أن هذه الغاية لا يمكن الوصول إليها على هذا النحو الشامل الفعّال وواسع النطاق إلا متى احترمت كل النساء ذلك الواجب الذى ذكرناه (وهو ألا يُنلّن الرجل غرضه)، وبالتالي أصبح من المهم للغاية أن تضمن النساء عدم شنوء بعضهن وعصيانهن لهذا الواجب، وهو ما لن يتأتى إلا بالتضامن الكامل فيما بينهم.

ومن هنا جاء اعتبار أى فتاة تسلم نفسها لرجل دون زواج، خائنة لجنس النساء كله، بالنظر إلى أنه لو شاع مثل هذا السلوك لنشأ خطر يهدد مصلحة المرأة بصفة عامة حين لا يجد الرجال ضرورة ملحة للزواج. ولهذا بات من الضروري إخافة مثل هؤلاء الفتيات من أجل ردعهن عن خرق التضامن النسوى، وسبيل هذه الإخافة هو وضمهن بالعار، ومقاطعتهن، والتعبير عن الاحتقار لهن، والقول بأنهن قد فقدن شرفهن. وقد امتدت هذه الإدانة بطبيعة الحال من الفتاة غير المتزوجة إلى المرأة المتزوجة التى تخون زوجها، حيث أن النتيجة واحدة، وعلى اعتبار أنها لم تلتزم بحيال زوجها بشرط الاتفاق الذى تزوجها على أساسه، وكذا لأن مثل هذا السلوك من شأنه أن يخيف الرجال من الزواج فيعزفوا عنه، وهو ما يمثل كارثة بالنسبة لجنس النساء كله. بل أصبحت خيانة المرأة لزوجها جريمة أبشع من جريمة استسلام الفتاة غير المتزوجة للرجل. ففى الحالة الثانية يمكن للرجل أن يردّ إلى الفتاة شرفها بتصحيح غلطته والزواج منها. أما المرأة المتزوجة الساقطة فإن جريمتها غير قابلة للإصلاح بزواجها من العشيق بعد طلاقها.

إذن فالأفكار الشائعة عن شرف المرأة أفكار سليمة وضرورية للمجتمع. غير أنها أيضاً قد بنيت على مصالح محسوبة. وبالتالي فهى قيم - مع صحتها - نسبية وليست مطلقة. أعنى أنها قيم لا يمكن للفكر المجرد أن يصل إليها، ولا أن يتبنّاها إلا على ضوء ظروف اجتماعية واقتصادية معينة. وعلى هذا الأساس يمكن القول بأن قتل الوالد أو الأخ للإبنة أو الأخت

المنحرفة، أو انتحار الفتاة التى تحمل من علاقة غير مشروعة، هو من قبيل المبالغة والتطرف ونسيان الغاية التى كانت فكرة «شرف المرأة» مجرد وسيلة لها.

فى مقابل هذا التضامن بين النساء، ثمة تضامن بين الرجال يفرض على كل رجل متزوج أن يحرص كل الحرص على عدم إتاحة الفرصة للزوجة للإخلال بالتزامها الجنسى، وتوقيع أصرم عقاب على هذا الإخلال إن حدث، حتى لا يحدث ثغرة فى الترتيب الاجتماعى الذى ذكرناه متى تهاون أو تسامح مع خيانة زوجته رغم علمه بها. مثل هذا الزوج المتهاون محتقر من مجتمع الرجال كله، وإن كان ضياع شرفه ليس فى نظر المجتمع بفضاعة ضياع شرف المرأة، حيث أن العلاقة الجنسية ليست عنده بالدرجة الأولى من الأهمية - كما عند المرأة - وقد يفوقها لديه فى الأهمية طموحاته فى شتى الميادين.

ولعل أصل حرص الرجال على شرف نسائهم هو أنه مع نشوء نظام الملكية الخاصة، سواء فى الأرض أو الحيوان أو النقود أو غير ذلك، بدأ الحرص من جانب صاحب الثروة - وهو فى أغلب الأحيان من الرجال - على تنميتها، وعلى التأكد من أنه سيورثها لأولاده هو.. كذلك فإنه مع ظهور نظام القبائل بزغ الاعتقاد لدى كل قبيلة قوية بأن قوتها مرتبطة بنقاء سلالتها. وهما سببان أديا إلى الرغبة فى التأكد من نسبة الأولاد إلى آبائهم، وبالتالي إلى ظهور المفاهيم التى ألحنا إليها عن السلوك المطلوب من الأنثى قبل الزواج وبعده، وتأكيد أهمية البكارة وقت الزفاف، وتفضيل الإسراع بتزويج الفتاة بعد بلوغها مباشرة، أو حتى قبل بلوغها، وفرض الحجاب عليها، وإخضاع تحركاتها ونشاطها منذ وقت مبكر لرقابة الأب والأم والإخوة أو الأعمام، إلى حين انتقالها إلى سلطة الزوج ورقابته.

وكما هو الحال مع الكثير من القيم التى ترى طبقة أو عدة طبقات من صالحها أن تسود المجتمع الذى تعيش فيه، ارتبطت هذه القيم بالدين، واعتبرت هذه التقاليد والأحكام السلوكية من أحكام الدين التى لا سبيل إلى تغييرها أبداً.

غير أن القيم والمفاهيم هى لاشك عرضة للتغير على مرّ الحقب بتغير الظروف الاجتماعية والاقتصادية، خاصة فى المجتمعات التى لم يعد الدين يلعب فيها دوراً كبيراً كالمجتمعات الغربية، أو متى لم ترتبط تقاليد معينة بالدين. من أمثلة ذلك أنه قد كان من السهل نسبياً على اليابانيات التخلّى عن عادة لبس الأحذية الحديدية الضيقة من أجل تصغير حجم القدم، بسبب عدم نص الدين على هذا التقليد، فى حين كان من الصعب نسبياً على المسلمات أن يتخلّين عن الحجاب الذى يرين أن القرآن قد أمرهن والزمن به إلى يوم الحساب.

فإن كان مفهوم شرف الفتاة قبل الزواج هو فى طريقه إلى الزوال فى المجتمعات الغربية فإنما يرجع ذلك فى رأينا إلى الأسباب التالية:

* أن التطورات الاجتماعية وأساليب التكنولوجيا الحديثة قد جعلت سبل كسب العيش - فى غالب الحالات - فى غير حاجة كبيرة إلى مجهود عضلى وعمل شاق لا يستطيع النهوض به غير الرجل. وبالتالي فقد خرجت غالبية النساء الغريبات إلى العمل إلى جانب الرجال، ويات باستطاعتهم بفضل عملهن أن يوفرن احتياجاتهن المادية المتنوعة، وإشباع رغباتهن المتعددة، ولم تعد حاجتهن كبيرة، كما كانت فى الماضى، إلى الرجال من أجل توفيرها، وبالتالي لم يعد الزواج شرطاً لها، ولم يعد يعينهن بالدرجة الأولى نصب الشباك لرجال يتزوجن منهم.

* أنه بالرغم من أن الأعمال المنزلية ورعاية الأطفال لاتزال من شأن المرأة، فإن التكنولوجيا الحديثة سهلت من هذه المهام، وقصّرت من الزمن اللازم لأدائها، وأقيمت المؤسسات التى ترعى الأطفال أثناء غياب المرأة فى عملها، ومنحت القوانين المرأة الحق فى إجازة للولادة ورعاية الطفل، بحيث لم تعد هذه المهام تستنفد ما كانت تستنفده فى الماضى من وقت المرأة وجهدها، وأمكن لها القيام بأعمال أخرى غيرها. وبالتالي فقد اختفى أو تقلص إلى حد كبير تقسيم العمل على أساس الجنس.

* أن العلم قد أثبت أن الفكرة القديمة القائلة بأن حاجة الأنثى إلى الإشباع الجنسي أقل من حاجة الرجل فكرة غير صحيحة على الإطلاق، وأصبح من رأى الأطباء أيضاً أن عدم الإشباع الجنسي لدى غير المتزوجات له انعكاساته على الصحة البدنية والنفسية. وحيث أن المرأة فى المجتمعات الغربية لم تعد فى حاجة إلى الزواج من أجل سد احتياجاتها المادية، فقد باتت تميل إلى الاعتقاد بأن من حقها الإشباع الجنسي مع العشيق دون التقيد بالقيود الثقيلة التى يفرضها الزواج، خاصة أن وسائل منع الحمل التى توفرت فى عصرنا هذا قد قللت من خطر إنجاب أطفال غير مرغوب فيهم، ويمثلون عبئاً مادياً على المرأة.

ويتزايد عدد الفتيات الغريبات اللواتى لا يلتزمن بالعفة قبل الزواج، انهار التضامن النسوى الذى كان يستهدف حصار الرجل وإجباره على التزوج. وكما أنه من شأن الثغرة فى جسر مقام على مجرى مائى أن تتسع تدريجياً حتى ينهار الجسر كله، فقد كان من شأن تزايد عدد هؤلاء الفتيات أن أقلت الزمام لدى الجميع، وأضحت الفتاة البكر فى المجتمع الغربى فى شبه عزلة، ورأها غيرها محرومة بأشدة، تعذب نفسها دون جدوى.

أما بالنسبة للزوجة الخائنة، فإن الاستنكار لفعليتها لا يزال قائماً في ذلك المجتمع، وكثيراً ما تؤدي الخيانة إلى الطلاق، ربما بتأثير استمرار حرص الرجل على التأكد من أبوته للأولاد ومن أنه سيورث ثروته لأولاده لا لأولاد غيره، ولأن الخيانة من شأنها إضعاف الرابطة الزوجية، وأن تُفقد الحياة العائلية بهجتها القائمة على الثقة والحب المتبادلين. غير أن هذه النقطة الأخيرة ضيّقت من تلك الهوة الكبيرة في تقييم الخيانة الزوجية من جانب المرأة ومن جانب الرجل، إذ أن الخيانة من أي من الطرفين - وعلى سواء - كفيلة بأن تزعزع من أسس المودة والالفة والتفاهم والثقة التي لا غنى عنها في أية زيجة سعيدة.

هذا عن الوضع في الغرب. أما في الشرق فإن المجتمع والقانون لا يزالان يريان أن خيانة الزوج أقل خطراً بكثير من خيانة الزوجة، حيث أن الأولى هي عادة عابرة وغير ذات تأثير مدمر في الحياة العائلية، وبالنظر إلى أن الجنس ليست له الأهمية العليا لدى الرجل (عكس الحال مع المرأة)، وإلى أن الزوج لا يمكنه - بعلاقاته غير المشروعة - أن يقحم على زوجته أطفالاً ليسوا أطفالها هي.

* * *

هذه بعض الأفكار التي خطرت بذهني بعد مشاهدة فيلم «عفواً أيها القانون»، ربما وجد القراء في بعضها جانباً من الصحة.

«وَأَسْمَعَتْ كَلِمَاتِي مَنْ بِهِ صَمَمٌ»

(١)

لى صديق مصرى، واسع الثقافة، شديد الذكاء، قد شغف منذ حدثته بقراءة الأدب، غير أنه بعد أن قرأ قدرًا بسيطاً من الكتب العربية، تحول وهو فى نحو السادسة عشرة إلى الآداب الغربية، واقتصر عليها منذ ذلك الحين. بعد زمن أحسَّ بالرغبة فى الكتابة والإنتاج والتعبير عن مشاعره، وقد لمس فى نفسه قدرة على الخلق الفنى. بيد أنه ما أن تبلورت فى رأسه فكرة، وجلس أو استعدَّ للتعبير عنها، حتى واجهته مشكلة جدَّ غريبة: أنه لا يملك لغة يصوغ فيها أفكاره!

هذا الصديق المثقف الذى لم يترك كتاباً من روائع الآداب العالمية إلا قرأه وأعاد قراءته مرات، والذى لم يكن ليجلس فى ندوة أدبية إلا أذهل الحاضرين بجمال منطقته، وقوة أحكامه، كان إذا تهيأً لكتابة خطاب قصير بالعربية، تصبَّب العرق منه وأرتج عليه، ثم إذا بخطابه وقد فرغ من تحريره لا يفضل كثيراً فى لغته خطابات البوابين والخدم، يحرر سطرًا منه بالعربية الفصحى وآخر بالعامية الدارجة، إن أراد كتابة «يضطهد» كتبها «يتَّهض»، والأخطاء النحوية لا تكاد تخلو منها جملة مهما قصرت، وعبرة مهما بسطت.

زرت هذا الصديق فى إحدى الأمسيات، فذكر لى أنه قد بدأ يتلقى دروساً فى اللغة الألمانية حتى يتمكن من قراءة أشعار جوته وهابنى فى الأصل، وأخبرنى أنه اشترى مجموعة أسطوانات لينجوافون الألمانية، قد خصص لها ساعتين من وقته كل يوم.. وفى أثناء جلستنا، سألتنى عما إذا كنت أحب أن أستمع إلى بحث كتبه فى نقد الأعمال الروائية لإيفان تورجينييف.. سألته: «بأى لغة؟». أجاب ضاحكاً: «بالعربية على ما أعتقد». ثم بدأ يقرأه. فإذا بالأخطاء النحوية تنزل على مسامعى نزول اللكمات: الجمل غامضة شواء، والمعانى لا تفهمها

إلا بعد أن تستوقف المؤلف ليشرحها لك بالعامية، الألفاظ فى غير مواقعها، والصفات قد استخدم العام منها حيث يتطلب الدقيق الخاص، هذا عدا ما اعترف لى به الكاتب بعد الفراغ من التلاوة من أنه أغفل سرد بعض المعانى لعجزه عن التعبير عنها.. وكان الصديق قد ترك فى بحثه مساحات فارغة لكلمات قصد أن يسألنى عن مرادفاتهما فى العربية الفصحى، واستخدم أحياناً كلمات إنجليزية مثل Pleasant و Colourful و Illuminating ريثما يبحث عن معانيها العربية فى معجم «المورد» أو «المغنى».

سألنى بعد انتهائه من القراءة: «ما رأيك؟». وإذ خمن ما أنا فى سبيل قوله أسرع معترضاً: «لا تلق بالآ إلى اللفة.. المهم هو المعانى. فاللفة يمكن أن أعيد صياغتها فيما بعد، أو أن يصوغها لى من يجيد العربية».

ورفضت من جانبى فى عناد أن أناقش المقال إلا على أساس اللفة: «كيف تنتظر منى أن أستمع بمقال صبيغ فى هذه الصورة المزرية؟ أو كيف تتوقع أن أطرب لمعانٍ عبّرت عنها بألفاظ تجرح السمع وكأنها وخز الإبر؟».

قال فى يأس: «ولكن ماذا عسائ أن أصنع وتلك حصيلتى من العربية؟».

أجبت: «لتلق بهذه الأسطوانات الألمانية إذن من النافذة، ولتجلس ساعتين أو ثلاث ساعات كل يوم إلى كتاب عربى فى النحو، وكتاب أدب رصين.. ألا تدرك أنك وغالبية شباب العالم العربى اليوم قد بتم كالإنسان الأول والقبائل الهمجية وما عدتم تملكون ناصية لغة تعبرون بها عن خواطركم؟ إن أمرنا لعجيب حقاً! نطلق على أنفسنا وصف الأدباء أو المتأدبين المثقفين ونحن لا نملك لغة! ألم تلاحظ أن أى طالب مجتهد مثابر فى مدارسنا الثانوية أحسن أسلوباً وأرفع لغة من أسلوب أدبائنا الشبان ولغتهم؟ فهل يمكنك أن تتصور طالباً فرنسياً أفضل أسلوباً ولغة من موريك وأندرية جيد؟ أبوسعك أن تتصور فولتير أو فلوبيير أو أناةول فرانس يدفع بكتاباتة إلى مصحح لغوى قبل أن يبدأ الطبع؟ أباستطاعتك أن تتخيل تورجينييف أو تولستوى ضعيف الأسلوب، يرجو مجيداً للغة الروسية أن يعيد له صياغة رواياته؟ ماذا دهانا إذن حتى بتنا نفصل اللغة عن الأدب؟».

قاطعنى وهو فى مثل هياجى:

«فلتسمع إذن! كلامك هذا كلام صائب. ولكن قل لى بالله عليك: ماذا أقرأ من الكتب العربية حتى أتمكن من اللغة دون أن يكون نظرى فيها مضیعة للوقت؟ لقد كان أمام فلوبيير

هذا الذى نتحدث عنه وهو صبرى كنوز من الروائع فى الأدب الفرنسى. كانت أمامه مؤلفات راسين وكورنى وفولتير وروسو وبلزاك وستندال وهيجو وعشرات غيرهم ممن كان يمكنه أن يقرأ لهم فيستمع بالمعاني ويستفيد من الأفكار فى نفس الوقت الذى يستفيد فيه من اللغة.. ثم انظر إلى: أتحيبني أقبلي الآن وقد قرأت مؤلفات دوستوفسكى وبوشكين، ومونتني ومونتيسكيو، وبايرون وهاينى، أن أضيع وقتي فى قراءة الصفدى والنويرى، أو حتى الجاحظ وأبى حيان التوحيدي والمتنبي، مجرد أن أتقن رفع الفاعل ونصب المفعول؟ أظننى أرضى بأن أترك أشعار كيتس وشيللى إلى شعر عربى ريعه فى مدح الولاة، وريعه فى الهجاء، وريعه فى الفخر بالنفس، وريعه الباقي فى رثاء لا يمس القلب، أو وصف لا هو بالمقنع ولا بالمتع، وتغن بالناقة لا أتجاوب معه؟

«لا تحسب أنى لم أحاول فى مستهل شبابى. فماذا وجدت؟ وجدت قول الفرزدق لجريز (وهو ما كان علينا أن نحفظه فى مدارسنا):

يا ابن المراغة أين خالك، إننى خالى حُبَيْش ذو الفَعَالِ الأفضَلُ
إنّا لنضرب رأس كل قبيلة وأبوك خلف أتانه يتَقَمَّلُ
ورأيت طرفة بن العبد يقول فى معلقته:

أَحَلَّتْ عَلَيْهَا بِالْقَطِيعِ فَأَجْذَمَتْ وَقَدْ خَبُّ أَلْ الْأَمْعَزِ الْمُتَوَقِّدِ
فَذَالَتْ كَمَا ذَالَتْ وَلَيْدَةُ مَعْشَرٍ تُرَى رِيْهَا أَذْيَالُ سَحْلِ مَعْدَدِ
وَتَقْصِيرِ يَوْمِ الدُّجْنِ وَالدُّجْنِ مُعْجَبٌ بِيَكْهَنَةِ تَحْتَ الْخَبَاءِ الْمَعْمَدِ
كَأَنَّ الْبُرَيْنَ وَالْدَّمَالِيحَ عَلَّقَتْ عَلَى عَشْرِ أَوْ خِرْوَعٍ لَمْ يُخْضَدِ
وَكَرَّى إِذَا نَادَى الْمُضَافُ مُجْتَبَأً كَسِيدِ الْغُضَا ذِي السُّورَةِ الْمُتَوَرَّدِ

وهو ما لم أتعرف منه على أكثر من «تحت» و«على» و«كأن» و«أو» و«لم» و«إذا»! أترانى أستطيع اليوم أن أرى فلسفة فى قول الشاعر:

حياة ثم موت ثم بعثٌ حديث خرافة يا أم عمرو

أو حكمة فى قول زهير:

رَأَيْتُ الْمَنَايَا خَبَطَ عَشَوَاءَ، مَنْ تُصِيبُ ثَمَّتْ، وَمَنْ تَخْطِئُ يَعْمَرُ فِيهِمْ

أى مثقف يمكنه أن يفعل اليوم إذ يقرأ قصيدة حافظ إبراهيم فى رثاء تولستوى:

قضيت حياة ملؤها البرّ والتقى فأنت بأجر المتقين جديرٌ
وسمّوك فيهم فيلسوفاً وأمسكوا وما أنت إلا محسن ومُجيرٌ

لقد كان حافظ هذا يستبيح لنفسه أن يقول الشعر في كتاب لقاسم أمين دون أن يقرأ
منه سطرًا.. فإن سطر طه حسين نقداً لديوان جاء نقده على النحو التالي:

«وأنت تطوف في هذه الحديقة فتري فيها ما شاء الله أن ترى من شجر باسق في
السماء، وزهر نضر يملأ النفس بهجة ورضى.. وأشهد أني قد قرأت الديوان مرات فلم أشعر
بأنى قد قرأت شيئاً كنت قد قرأته من قبل.. وما أشك في أنى سأقرؤه إن شاء الله وأقرؤه،
وأستمع بقراءته كلها، كما استمتعت بقراءته من قبل».

أهذا نقد؟ إنى لاكاد أشهد أن طه حسين لم يقرأ من ذلك الديوان بيتاً واحداً!

أنا معك في أن وضعنا مشين، وأن لغتي وغيرى من الأدباء الشبان مزرية. غير أنى
أريد المعرفة والنور قبل النحو والصرف.. فإن كان فلوبيير قد أخذها جميعاً من قراءته لتراث
بلاده الأدبى، فمن سوء طالعنا أن يختلف وضعنا وأن يكون تراثنا الأدبى تراث لغة
فحسب...».

(٢)

مرّ أسبوعان على ذلك اللقاء. ثم إذا بصديقى يأتى لزيارتي على غير موعد، حاملاً معه
كتاباً من مجلدين ضخمين، وضعهما على المنضدة أمامه فى حجرة الجلوس، قبل أن يشرع
فيقول:

– لابدّ من أن أعترف بأن توبيخك لى قد ترك أثره العميق فى نفسى.. وقد قررت فى
اليوم التالى للقائنا أن أعود فأتحقّق بنفسى من هذا الأمر، أن أشكّل لجنة تحقيق فى التهمة
التي رميتنى بها.. فكان أن اشتريت ديوان المتنبى هذا لأبدأ به.. وقد فرغت اليوم من قراءته
كله.

– وخيراً فعلت!

– نعم.. فننظر الآن معاً فى أمر هذا المتنبى الذى «جاء فملاً الدنيا وشغل الناس».

والذى قال عن نفسه إن الأزمان لا تسع علمه بأمرها، وأن الأيام لا تحسن تكتب ما يملى. يشتمل ديوانه على ثلاثمائة من القصائد والمقطوعات، تقع فى ٥٤٢٩ بيتاً. مائة وخمسون من هذه القصائد والمقطوعات (أى النصف بالضبط) فى باب المدح. والمدح فيها على المنوال التالى:

يمدح أبا الحسن محمد بن عبيد الله العلوى:

له إبادٍ إلى سابعة	أعدّ منها ولا أعدّها
يعطى، فلا مطله يكدرها	بها ولا منه ينكدها
خير قریش أبا وأجدّها	أكثرها نائلاً وأجودها
أفرسها فارساً، وأطولها	باعاً، ومغوارها وسيدها

ويمدح أبا منتصر شجاع بن محمد الأزدي:

أُمريد مثل محمدٍ فى عصرنا؟ لا تُبلّنا بطلاب مالا يُلحقُ
 لم يخلق الرحمن مثل محمد أحد، وظننى أنه لا يخلُقُ
 كذب ابن فاعلة يقول بجهله «مات الكرام» وأنت حى يُرزقُ
 ويمدح علياً بن أحمد الخراسانى:

ولا ثوبٌ مجدٍ غير ثوب ابن أحمد	على أحدٍ إلا بلقوم مرقع
أليس عجيباً أن وصفك معجز	وأن ظفونى فى معاليك تظلع
ألا كل سَمْعٍ غيرك اليوم باطل	وكل مديح فى سواك مضيع

ويمدح شجاع بن عبد العزيز:

إلى سيّد لو بشر الله أمةً بغير نبيّ بشرتتنا به الرُّسلُ

ويمدح عبيد الله بن يحيى:

فكن كما أنت يا من لا شبيه له أو كيف شئت فما خلّق يدانك

ويمدح عبد الرحمن بن المبارك:

إنما الناسُ حيث أنت وما الناسُ بناسٍ فى موضع منك خالٍ

ويمدح بدر بن عمار:

فأنت وحيدُ بنى آدمٍ ولستَ لفقدِ النظيرِ وحيداً

وفيه أيضاً:

مثلك يا بدر لا يكون ولا تصلح إلا بمثلك الدولُ

وإن أظيل عليك فأمّلك، رغم أنى لم أصل بعد إلى مدائحه فى سيف الدولة، وكافور، وفاتك، وابن العميد، وعضد الدولة.. كل واحد منهم خير من تحت السماء، أطلعن الناس بالقناة، وأضربها بالسيف، وأندى العالمين بطون راح، لا تصلح الدول إلا بمثله، وكل مديح فى سواء مُضَيِّع!

فإن قرأت مدحه لكافور (وله فى مدحه عشر قصائد)، ثم هجاء له (وله فى هجائه تسع قصائد) تملك نفسك العجب من خلق هذا الشاعر.. إن دخل على كافور أنشد:

قواصدُ كافورٍ تواركُ غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا

وإن خرج من عنده أنشد:

ومثلك يؤتى من بلادٍ بعيدة ليضحك رياتِ الحداد البواكيا

ثم يدخل فينشد:

وكيف أكفر يا كافور نعمتها وقد بلغنك بى يا كلّ مطلوبى

أنت الحبيب ولكنى أعوذ به من أن أكون محباً غير محبوب

ويخرج فينشد:

لا ينجز الميعاد فى يومه ولا يعى ما قال فى أمسه

فلا ترجُ الخيرَ عند امرئٍ مرّت يد النخّاس فى رأسه

ويذكر لونه الأسود أمامه فيقول:

إنما الجلد ملّسٌ وبيضاض النفس خيرٌ من ابيضاض القباءِ

مَنْ لبيض الملوك أن تبدل اللون بلون الأستاذ والسحناء

ثم يذكره بعد أيام فيقول:

وأسودُ مشقَرُهُ نصفُهُ يقال له أنت بدرُ الدُّجى!

ثم لكانما يخشى أن يقال له إنه من بين الذين وصفوا كافور ببدر الدجى، فيضيف:

وشعرٌ مدحتُ به الكركدنُ بين القريض وبين الرُقَى

فما كان ذلك مدحاً له ولكنه كان هجواً الورى!

إننا لنبحث في هذا الديوان الضخم حتى يُعيينا البحث لنعثر به على قيم أخلاقية رفيعة، فلا نجد، فالشاعر نفسه منافق، كذاب، شحاذ، لا ميادىء له ولا خلق.. فإن كان مدحنا لأخلاق شخص يوضِّح قيمنا نحن الأخلاقية، فلنحاول أن نستشف من مدح المتنبي قيمه.. بم يصف ممدوحيه؟ بأن والد الممدوح خير الآباء، وأخاه خير الإخوة، (وكفاه فخراً أنه من قحطان)، وأنه أطعن الناس بالسيف، وأكثرهم تقتيلاً للناس، أنه سخى كالسحاب (ونحن نعلم جيداً علة هذا المدح بالسخاء)، وأنه جميل الوجه (من واجبه أن يلبس برقعاً حتى لا تموت النساء عشقاً):

خَفِ الله واسترْ ذا الجمال ببرقع فإن لُحِتْ ذابت في الخدور العواتقُ

اقرأ واعجب إذ يمدح سيف الدولة الحمدانى فيقول:

ومن شرف الإقدام أنك فيهم على القتل موموق كائنك شاكدُ

نهبتُ من الأعمار ما لو حَوَيْتُهُ لهتُّت الدنيا بآنك خالداً

هى صورة لمجرم إلا أنه ممدوح.

فإن لم يكن في المدح ما يدلنا على قيم أخلاقية ممتازة لدى الشاعر، فلننظر إلى الممدوح، إلى سيف الدولة الذى «عادته الطعن فى العدى». يصفه أحمد أمين فى كتابه «ظهر الإسلام» فيقول:

«... كان ينهب كثيراً ويهب كثيراً. فیهب المال الكثير للمتنبى لأنه يمدحه، ويخل على ابن عمه أبى فراس بفدائه من الأسر.. وهذا قاضيه يجمع له مال الرعية ظلماً وعدواناً، والمتنبى يمدحه حتى تظن سيف الدولة ملكاً كريماً، وعادلاً رحيماً، عكس تاريخه.. يُجرى على الفارابى أربعة دراهم فى كل يوم لأنه فيلسوف، ويمنح المتنبى الآلاف.. قد سهل له قاضيه كل مظلمة، حتى قال القاضى يوماً: من هلك، فلسيف الدولة ما ملك! فهو وهاب نهاب، يصادر الناس فى أموالهم ليمنحها لمن يصوغون له قلائد المدح. وينطبق عليه الحديث: «ليتها ما زنت ولا تصدقت».

يا من يُقتل من أراد بسيفه أصبحت من قتلاك بالإحسان

أكثر من نصف ديوان المتنبي مدح من هذا القبيل.. فكيف موضوعات النصف الآخر؟
فخر:

أىُّ محلّ ارتقى	أىُّ عظيم أتقى
وكل ما قد خلق الله	وما لم يخلق
محقرٌ فسى همّتى	كشعرة فى مفرقى

هجاء:

وما عليك من العار	أن أمّك قحبة
وما يشقّ على الكلب	أن يكون ابن كلبة
يا أخبت الناس أصلاً	فى أخبت الأرض تربة
وأرخص الناس أمّا	تبيع ألفاً بحبة
إن أوحشتك المعالى	فإنها دار غريبة
أو أنستك المخازى	فإنها لك نسبة

وهى القصيدة التى قُتل المتنبي بسببها .
غزل:

نفورٌ عسرتها نفرة فتجاذبت	سوالفها والخلّى والخصرُ والرْدَفُ
ومَن كلما جردتها من ثيابها	كساها ثياباً غيرها الشّعْرُ الوحْفُ

أو:

أقول لها: اكشفى ضُرّى وقولى	بأكثَر من تدلّها خضوعاً
أخفّت الله من إحياء نفسٍ	متى عصى الإله بأن أطيعاً؟

رثاء:

أتاما كتابى بعد يأسٍ وترحةٍ	فماتت سرورا بى، فمت بها غمّا
ولو لم تكونى بنت أكرم والدٍ	لكان أباك الضخم كوكب لى أمّا
لئن لَدَّ يومُ الشامتين بيومها	لقد ولدت منى لأنفهم رَغماً!

وفيما عدا ذلك قصائد تهنئة بعيد الأضحى، ووصف بطيخة عليها قلادة لؤلؤ، واستبطاء لعطاء ممدوح، ووصف لكب صيد أرسل على غزال وليس معه صقر، ووصف لسلاح كان بين يدي سيف الدولة، وتهنئة للأمير لشفائه من دمل، وتهنئة لكافور بانتقاله إلى مسكن جديد، ووصف لمجلس نُثر فيه الورد بين يدي عضد الدولة.

ما أحسبني متجنياً. وبونك الديوان فلترجع إليه. وأقسم أنى قد أقبلتُ عليه ونفسي مفتوحة له، وبى رغبة قوية فى أن أجد فيه ما يصرفنى عن سالف رأى. فإذا بى أمام ما حدثك عنه.

وكم رجال بلا أرضٍ لكثرتهم تركتَ جمعهم أرضاً بلا رجل
كنت قد جلست إلى الديوان وفى يدي قلم أرسم به علامة قبالة الأبيات التى تستهوينى وتلائم نوق القارئ الحديث. فإذا بى من بين ٥٤٢٩ بيتاً لم أجد غير ستة وتسعين بيتاً يمكن لنا أن نستسيغها اليوم. أى بمعدل بيت واحد من بين كل أربعة وخمسين بيتاً. بمعنى أنه على قارئ الديوان أن يتحمل ثلاثة وخمسين بيتاً من مثل:

يسابق سيفى منايا العباد إليهم كأنهما فى رهان
حتى يقرأ ما يمكن أن يتقبله ويُعجب به مثل:

فالموت آت، والنفوس نفائس والمستغراً بما لديه الأحق

بيت واحد تقرأ للمتعة، وثلاثة وخمسون لتتقن رفع الفاعل ونصب المفعول! أفليس هذا مصداقاً لما كنت أعنيه بإضاعة الوقت؟

ويقودنا هذا البيت الأخير إلى شعر الحكمة عند المتنبى، وهى الحكمة التى دفعته لأن يقول إن الأزمان لا تسع علمه بأمرها. ولز ما إذا كانت هذه «الحكمة» تصلح لأن تكون مرشداً لنا فى الحياة، أو هادياً لأخلاقياتنا، أو نوراً يضيء لنا ما كان خافياً علينا.

المعنى الأساسى الحكيم عند المتنبى الذى يكرره فى كثير من قصائده هو أن الموت آت لا محالة، إلى الملوك والرعية، إلى العالم والجاهل، وأن الشباب زائل، والمستغراً بما لديه هو الأحق.. أما أن يتبع المتنبى هذه المقدمة بنتيجة خاصة بالسلوك الذى يجب أن نؤسسه على حقيقة الموت، فما لا تجد له أثراً.. بمعنى أن حكمة المتنبى يمكن تلخيصها فى الجملة الشائعة لدى العامة: «الدنيا فانية»:

نبكى على الدنيا وما من معشر جمعتهم الدنيا فلم يتفرقوا
أين الأكاسرة الجبابرة الألى كنزوا الكنوز فما بقين ولا بقوا؟

أو:

كثير حياة المرء مثل قليلها يزول وباقى عيشه مثلُ ذاهبٍ

أو:

نُعدُّ المشرفية والعوالى وتقتلنا المنون بلا قتال
يدقن بعضنا بعضاً ويمشى أواخرنا على هام الأوالى

أو:

وقد فارق الناس الأحبة قبلنا وأعياء نواء الموت كل طبيب

وعشرات وعشرات من الأبيات فى نفس المعنى.. تكرار ممل، ومعان لا أدل على تكلفها واصطناعها من المناسبات التى قيلت فيها. فهى ما كانت ترد عادة إلا فى تعزية سيف الدولة فى أمه أو أخته الصغرى أو أخته الكبرى أو عبده يماك، أو فى رثاء عمه عضد الدولة. وكيف يريدنا المتنبى أن نتصرف إزاء هذه الدنيا الفانية ما دامت غاية المفرط فى السلم كغاية المفرط فى الحرب، وما دام الفارق بين راعى الضأن وجالينوس هو فى صالح الأول؟
يجيب المتنبى:

لا تُلِقْ دهرَكَ إلا غير مكترث ما دام يصحب فيه روحك البدنُ
فما يديم سرورُ ما سررت به ولا يردُّ عليك الفأثُ الحزنُ

وهذه هى فلسفة المتنبى الأخلاقية.

ولكن ماذا عن المتنبى المحيط بالطبيعة الإنسانية وأخلاق البشر، وهو القائل:

إذا ما الناس جريهم لييبُ فإننى قد أكلتهم وذاقا
يذهب المتنبى إلى أن الناس كلهم أوغاد، ما عداه هو والمدحوح.. أى مدحوح؟
المدحوح الذى أنشدت القصيدة فى حضرته:

أدُمَّ إلى هذا الزمان أهيلُهُ فأعلمهم فدمُ، وأحزمهم وغدُ
وأكرمهم كلب، وأبصرهم عر وأشهدهم فهدُ، وأشجعهم قرْدُ

أو:

وصرتُ أشك فيمن أصطفيه لعلمى أنه بعضُ الأنام

ثم نسمعه يتسائل فيما يشبه البراءة:

أما فى هذه الدنيا كريم؟ تزول به عن القلب الهموم؟

أما فى هذه الدنيا مكان يُسرُّ بأمله الجارُ المقيم؟

ولكن، ما موقفه إذا عثر على هذا الكريم الذى يبحث عنه؟ ما موقفه من الصفات الحميدة إن تبيّنها فى الناس؟ إسمعه يجيب:

والظلم من شيم النفوس، فإن تجد ذا عَفّة فلعلّة لا يظلمُ

ملخص معرفته بالطبيعة البشرية إذن أنه لا ينبغي على المرء أن يثق بالناس، إلا بطبيعة الحال: سيف الدولة، وعضد الدولة، ومحمد بن عبيد الله العلوى!

ولماذا كل هذه الكراهية للناس وعدم الثقة بهم؟ لأن المتشاعرين غروا بذمه، ولأن كافور لم يمنحه الولاية التى كان قد وعده بها، ولأن الحاسدين قطعوا عيشه عند سيف الدولة. فماذا يبقى لنا إذن من شعره؟ أبيات متفرقة هنا وهناك، نقرأها فى خمس دقائق أو عشر، ثم ننتهى من المتنبي إلى الأبد.. أبيات مثل:

يخفى العداوة وهى غير خفية نظر العدو بما أسرَّ يبوح

أو:

ومن يك ذا فم مرّ مريض يجد مرّاً به الماء الزلالا

أو:

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر، فالذى فعل الفقر

أو:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرادها الأجسام

صفحتان أو ثلاث من مئات صفحات المجلدين، وتخرج بعد قراءة الديوان تتسائل عن القيم الإنسانية عند المتنبي، فإذا بها:

* تفرقة عنصرية:

لا تشتتر العبد إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاس مناكيدُ

من علّم الاسود المخصى مكربة أقوم به البيض؟ أم أبأؤه الصيّد؟

وذاك أن فحول البيض عاجزة عن الجميل، فكيف الخصية السود؟!

* احتقار للمرأة:

إذا غدرت حسناء أوفت بعهدها ومن عهدها ألا يدوم لها عهدُ
كذلك أخلاق النساء وريما يضلّ بها الهادي ويخفى بها الرشدُ
* كراهية للناس وحذّر على عدم الثقة بهم:

خليك أنت لا من قلت خلّى وإن كثرتجمل والكلام
* دعوة إلى الانحلال:

إنعم وأدّ فللمود أواخرُ أبدا إذا كانت لهن أوائل
مادمت من أرب الحسان، فإنما روق الشباب عليك ظل زائل
* دعوة إلى القتل والحرب وسفك الدماء:

ولو غير الأمير غزا كلابا ثناء عن شمسهم ضبابُ
ولكن ربّهم أسرى إليهم فما نفع الوقوف ولا الذهاب
فمسأهم وبسطهم حرير وصبحهم وبسطهم تراب

* روح استعمارية:

وتملك أنفس الثقلين طراً فكيف تحوز أنفسها كلاباً؟

إن سارتر يخبرنا في كتابه «ما هو الأدب» أنه لا يمكن أن يكون لأدب قيمة إذا كان أساسه معانٍ متنافية للإنسانية.. فأين إذن قيمة أدب المتنبي وهذه معانيه؟ غير أنه يقول:

أنا الذي نظرت الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صممُ
أنام ملء جفوني عن شواردها ويسهر الخلق جرأها ويختصم
كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم؟ ويكره الله ما تاتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفي أنا الثرياً وذان الشيب والهزم

فإن كانت هذه هي حال الثريا، فكيف الشيب والهزم؟

أحمد أمين

قد أفردتُ كتاباً مستقلاً لأحمد أمين الوالد. فكيف يسعنى فى بضعة صفحات الإحاطة بأحمد أمين الإنسان، والمربى، والقاضى، والعالم، والأديب، والصحفى، والإذاعى، والمؤرخ للحضارة الإسلامية، والأستاذ الجامعى، وعميد كلية الآداب، وعضو مجمع اللغة العربية، ومؤسس الجامعة الشعبية، ورئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر، ومصاحب مجلة «الثقافة»، ومدير الإدارة الثقافية فى وزارة المعارف، ومدير الإدارة الثقافية بالجامعة العربية، ومحقق كتب التراث العربى القديم، ما لم أوجز العرض لبعض مساهماته الجليلة المتنوعة الباقية على مر الزمن، ثم أتهم بعد ذلك - وعن حق - بالتقصير والإيجاز المُخل؟

الإنسان

كان ناجحاً فى حياته العلمية والعملية معاً. وكان نجاحه فيهما نجاحاً للجِدِّ وانتصاراً للفضيلة، لأنه لم يعتمد فى شهرته العلمية على الإعلان والتهويل، ولا فى مناصبه الحكومية على الاستخذاء والمُلُق. وإنما كان يجرى فى عمله على الإخلاص، وفى معاملاته على الحق، وفى علاقاته على الشرف. وما كانت حياته الحافلة العريضة إلا مثلاً للحياة العاملة فى غير ضجيج، الناصبة فى غير ملل، المثمرة فى غير غرور ولا دعوى.. فمن الناس من يحدثون ضجيجاً هائلاً حين يصلون إلى فكرة جديدة أو يكتشفون معنى جديداً. وكم وصل أحمد أمين إلى فكر ومعان، بل لقد أثار عوالم كاملة من حياة العرب العقلية فى عصورهم المختلفة، ومع ذلك لم يهول على الناس، ولم يحدث جلبه ولا قرعة، بل كان مثال العالم الحق الذى ينكر نفسه، ويترك للناس أن يكتشفوه ويعرفوه.

كتب إلى عام ١٩٥٠ وأنا غائب في لندن رسالة جاء فيها:

«رأيتُ أن قول الحق والتزامه، وتحرّي العدل وعمله، يكسب الإنسان من المزايا ما لا يقدر.. قد احتملتُ في سبيل ذلك بعض الآلام، وأغضبتُ بعض الأنام، وضاعت على من أجله بعض المصالح. ولكني برغم ذلك كله قد استفدت منه أكثر مما خسرت: استفدت منه راحة الضمير، وثقة الناس بما أقول وأعمل، وحسن ظنهم بما يصدر عني ولو لم يفهموا سببه. وقد استفدت منه أيضاً مادياً أكثر مما استفاد غيري ممن لم يلتزموا الحق ولم يراعوا الصدق والعدل. لقد عشت في أوساط كثيرة، وعاشرت زملاء يُرضون رؤسائهم أكثر مما يرضون ضمائرهم، ويقولون ما يعجب الناس لا ما يعتقدون أنه الحق، ويرتكبون الظلم طلباً للجاء أو للعلو في المنصب. ومع هذا فقد ربحت قليلاً وخسرت كثيراً.. خسروا الفضيلة والضمير، وقازوا بقليل من الحظ العاجل تبعه كثير من الفشل الآجل. فلو حسبت بالدقة ما كسبت وما خسرت، وما كسب هؤلاء وما خسروا، لوجدتني أسعد حالاً وأوفر حظاً. فإذا أردت أن تنتفع بتجربتي فالتزم الحق والصدق والعدل في جميع أعمالك مهما تكن النتيجة.

«نعم رأيتُ من زملائي من تمسكوا بهذه الفضيلة فخسروا كثيراً وفشلوا فشلاً ذريعاً. ولكن لم يكن عيبهم أنهم التزموا الحق والصدق والعدل، بل عيبهم أنهم التزموا هذه الصفات في سماجة فقالوا الحق في غير أدب، والتزموا الصدق في غير لياقة، وتحرّوا العدل في غير لباقة. فلم يكن الذنب ذنب الحق ولكن الذنب ذنب السماجة.. فتعلّم من هذا أن تقول الحق في أدب، وتحرّي العدل والصدق في لباقة ولياقة. فمن غضب بعد ذلك كان الذنب ذنبه، ولا ذنب عليك.. ولا تتعجلن النتيجة فقد تمسّ من الحق ناراً، وبهبّ عليك من العدل لفحة جسيم. ولكن ذلك أشبه ما يكون بالامتحان، إن صبرت له انقلبت النار جنة، واللفحة الحارة نسيماً عالياً...».

المربي

لم تكن التربية في رأيه مجرد درس يُلقَى ومعلومات تُشرح. بل حرص الحرص كله على أن تكون تفتيحاً للذهن، وإيقاظاً للانتباه والملاحظة، وتعهّداً للسلوك وتقويماً للأخلاق. وهو ما كان أبداً يتعبّد الآراء التي يصل إليها؛ بل كان يمرّن طلبته ومريديه على خلافه، وأن يروا

الرأى مناقضاً لرأيه، يريد بذلك أن تكون لهم أصالتهم فى الفهم والحكم، لا مجرد الجدل والمناقشة فى غير طائل. وكان يسعى جاهداً إلى رفع الحواجز بين الطلبة الجامعيين وأساتذتهم، وألا يكتفوا بما يدون فى المحاضرات، بل يتحولوا إلى الأروقة وحجر البحث والمكتبة، يتجادلون ويتحاورون، لا فرق بين كبير وصغير، ولا شيخ ولا شاب إلا مقدار التجربة والسبق إلى معرفة الحقيقة.

كانت تربيته فكرية وروحية، لا لأولاده ولطيفته فحسب، وإنما أراد بها أن تشمل الشعب بأسره، وتغذى المجتمع كله، وقد قصد إليها عن طريق مجالسه فى الأندية، وأحاديثه الأسبوعية فى الإذاعة، ومقالاته الكثيرة فى مجلات «الهلال» و«الثقافة» و«الرسالة» و«الاثنين» وغيرها، ومحاضراته فى كل مكان: يحلّ التقاليد والعادات، ويناقش الذوق والعرف، ويعرض للمشاكل الحاضرة، ويقارن بين الشرق والغرب، ويوازن بين الحاضر والماضى، ويرمى إلى وضع دعائم تربية اجتماعية استقلالية. ورغم أنه كان يفضل الخلوة إلى نفسه، ولذا له التأمل الهادئ وتفكير المتوحّد، فقد كان يحرص من أجل أداء رسالته فى التربية على الاتصال بالناس، فكان بيتنا مفتوحاً لتلاميذه وأصدقائه، وكانت جلسات لجنة التأليف والترجمة والنشر فى أيام الخميس مقدسة لديه، لم يتخلّف عنها إلا فى القليل النادر طوال الأعوام الأربعين التى رأس اللجنة خلالها.

وهو يدرك مع ذلك حتمية اختلاف كل جيل عما سبقه.. كتب إلى يقول:

«أى بنى: إنى لأعلم أنك قد خلقتَ لزمان غير زمنى، وربيّتَ تربية غير تربيتى، ونشأتَ فى بيئة غير بيئتى.. لقد كنتُ فى زمنى عبد التقاليد والأوضاع، وأنت فى زمن يكسر التقاليد والأوضاع.. وكنتُ فى زمن شعاره الطاعة لأبى ولأولياء أمرى، وأنت فى زمن شعاره التمرد، التمرد على سلطة الآباء وعلى المعلمين وعلى أولى الأمر.. وتعلّمتُ أول أمرى فى كُتّاب حقيق نجلس فيه على الحصير، ويعلمنا مدرس جبار، يضرب على الهفوة وعدم الهفوة، ويعاقب على الخطأ والصواب، ويمرّن يده والعصا فينا كما تمرّنون أيديكم على الألعاب الرياضية، وأنت تعلمتُ فى روضة الأطفال حيث كانت تشرف عليك أنسة رقيقة مهذّبة، وتقدم لك تعليم القراءة والكتابة فى إطار من الصور والرسوم والأغاني وما إلى ذلك.. وكنت أعيش فى كُتابى على الفول النابت والفول المدّمس، وأنت تعيش فى روضتك على اللبن والشاي والبسكويت وما إلى ذلك أيضاً، ثم لما صبوتَ تعلمتُ فى مدارس نقلت إليك أساليب المدنية الغربية.. وتربيّتُ أنا فى وسط كله دين: دين فى الكتب ودين فى الحياة الاجتماعية ودين فى أوساطى كلها، وتربيّت أنت

فى مدارس أو جامعات لا يذكر فيها الدين إلا بمناسبات. وكان يُذكر الدين فى وسطنا دائماً ليحترم، وكثيراً ما يُذكر الدين فى وسطك ليهاجم.. ونشأت فى وسط لا تُذكر فيه السياسة إلا لئاماً، ونشأت فى وسط كله سياسة وإضراب وأكثر من الإضراب.. ونشأت فى وسط لا يعرف المرأة إلا محجّبة، ولا يعرف الشاب فتاة إلا أن تكون قريبة، ونشأت أنت فى وسط تجالسك الفتاة فى جامعتك وتشاهدها فى أوساطك وقد أخذت من الحرية مثل ما أخذت..

«ولو عددت لك الفرق بينى وبينك فى زمنى وزمنك، وتعليمى وتعليمك، وبيئتى وبيئتك، لطال الأمر. ومع ذلك فإنه الفروق مهما كانت فروق جزئية، ولا يزال بينى وبينك وجوه شبه أعمق من هذه المظاهر. فالاختلافات بين الناس مهما اختلفت الأزمنة والأمكنة اختلافات سطحية، وأمور عرضية، أما الإنسان فى جوهره والجمعيات البشرية فى نزعاتها الأصلية فترجع إلى أصول واحدة. ومن أجل هذا كانت تجارب السلف مفيدة دائماً للخلف. فلاقص عليك شيئاً من تجاربى التى أعتقد أنها قد تفيدك مهما اختلفت بيئاتنا ومدارسنا وثقافتنا.....».

العالم والفكر

كان متضلعاً من علوم الدين واللغة كأكثر النابغين من المتخرجين فى الأزهر. ولكنه كان من الأزهريين القلائل الذين أوتوا دقة النظر، وحرية الفكر، وسعة الأفق، فكان فى الدين صاحب اجتهاد، وكان فى اللغة صاحب رأى.. كان يرى أن الدين دستور الدنيا، فلا بد أن يتطور مع العلم، وأن يتقدم مع الحضارة، وأن يسهم فى توفير الحلول للمشكلات المستجدة. وكان يرى أن اللغة أداة للفهم، فلا بد أن تطوّر لالسنة الناس، وأن تبسط قواعدها، وأن تجدد على طول الزمن، وإلا فإنها لا تليق أن تموت أو تتخلف، فتتحط إلى العامية، أو تضيع بين ألسنة الاميين والجهلة.. وقد ساء أن يسدّ الأوائل باب الاجتهاد فى اللغة كما سدّوه فى الدين والشرعية، وكتب يقول:

«نحن بين اثنين: إما أن نقدّس ما قاله العرب ونقف عنده ولا نسمح لأنفسنا بوضع جديد؛ وحينئذ يجب أن تكون اللغة العربية أثرية كاللاتينية، وإما أن تكون لغة حية، وحينئذ يجب أن تخضع لقوانين الحياة فتتجدد وتتغير وتتساير حياة الناس لتلائم الزمن، وهذا الأخير هو الذى ينبغى أن يكون».

وقد اجتمعت لأحمد أمين خصال إذا اجتمعت في شخص كان حكيماً على الحقيقة، هي: حرية الفكر، والبعد عن الدجماطيقية، والترحيب بالنقد، والجلاء والوضوح، والعناية بالكل دون الأجزاء، والبحث عن العلل.

كان حرّ الفكر إلى أبعد حدود الحرية، لا يقول إلا ما يعتقد، ولا يحفل إلا بالحق وحده، لا يهتم مصانعة نوى السلطان، أو تملّق الجماهير، أو مشايعة الأهواء السائدة، وتبدو هذه الحرية في الجهر باعتقاداته الدينية على الرغم من مصادمتها لمشاعر الجمهور، ومخالفتها للمألوف من التقاليد الطويلة الأمد.. جاهر بالانتصار لمذهب المعتزلة الذين اعتقد أنهم أهل العقل في الإسلام، ونادى بالرجوع إليه، وتفسير الدين بالعقل، مع أن المسلمين عارضوا ذلك المذهب منذ القرن الرابع الهجري، وحكموا على أصحابه بالكفر، وحرقوا كتبهم، ومنعوا تدريس تعاليمهم في مدارسهم، وجاهر برأيه في الشيعة ومعتقداتهم حتى كاد يصيبه من جرأ ذلك محنة عظيمة حين كان ببغداد بعد أن أصدر «فجر الإسلام». ومع ذلك فقد حاول المهادنة بين الشيعة والسنة حتى تتحد كلمة المسلمين، وخصوصاً أن موضوعات الخلاف بينهما أصبحت في ذمة التاريخ البعيد، كذلك فقد نادى بفتح باب الاجتهاد حتى لا نظل عبيداً لأبي حنيفة والشافعي ومالك وابن حنبل، وقد كانوا ملانمين لزمانهم، أما اليوم فقد تغيرت الأحوال واختلّفت المشكلات والتحديات. وقد ثار علماء الدين على رأيه هذا، كما ثار علماء اللغة على دعوته إلى تبسيطها والإطاحة بالكثير من قواعدها، «حتى تكون لنا لغة شعبية، ننقيها من «جرافيش» الكلمات، على حدّ تعبير ابن خلدون، ونلتزم في أواخر الكلمات الوقوف من غير إعراب، وتكون هي لغة التليم ولغة المخاطبات ولغة الكتابة للجمهور، ولا تكون اللغة الفصحى إلا لغة المثقفين ثقافة عالية ممن يريدون أن يطلعوا على الأدب القديم».

كذلك فقد أثار ثائرة المناصرين للعروبة حين كتب في «فجر الإسلام» يقول:

«لسنا نعتقد تقديس العرب، ولا نعبأ بمثل هذا القول الذي يمجّدهم ويصنّفهم بكل كمال وينزّهمهم عن كل نقص، لأن هذا الخط من القول ليس نمط البحث العلمي. وإنما نعتقد أن العرب شعب ككل الشعوب، له ميزاته وفيه عيوبه، وهو خاضع لكل نقد علمي في عقلية ونفسية وأدابه وتاريخه، ككل أمة أخرى...». وقد ردّ عليه خصومه يعتبرون عليه الكتابة عن العرب كباحث بعيد عنهم، ويذكّرونه بآية (كنتم خير أمة أخرجت للناس) التي تكفي للإعلان عن القيمة الأصلية للعنصر العربي بين الأمم، ويقولون: إن رائده في هذا الحكم هو ابن خلدون الذي لم يكن يرى للعرب فضيلة ولا فضلاً.

الأديب

كان همه من الكتاب أن يقرّر ويقنع، لا أن يؤثر ويمتع. ولعل منشأ ذلك فيه أن عقله كان أخصب من خياله، وأن علمه كان أكبر من فنه، وأن حبه للحرية والصراحة كان يحبب إليه إرسال النفس على سجيّتها من غير تقييدها بأسلوب معين، وعرض الفكرة على حقيقتها من غير تمويهها بوشى خاص. ومع ذلك كان لأسلوب طابعه المميز وجاذبيته القوية بحيث وصفه أغلب النقاد بالسهل الممتنع. تقرأه فلا تروّع منه الصور البيانية الآخّاذة، ولا الأصوات الموسيقية الخلّابة، وإنما تروّع منه المعانى المبتكرة الطريفة، والآراء الصريحة الجريئة، والشخصية القوية المهيمنة.. فأنت منه بإزاء عالم يبحث لينتج، أو مصلح يصف ليعالج، لا بإزاء مصوّر يلوّّن ليعجب، أو موسيقى يلحن ليضطرب.

فالجلاء والوضوح هما سمة كتاباته كلها، خاصة مقالاته التى جمعها فى كتاب من عشرة مجلدات، هو «فيض الخاطر»، الذى يضم كافة آرائه السياسية والاجتماعية والأدبية واللغوية.. وقد جاء هذا الجلاء والوضوح من أمرين: الأول وضوح الرأى فى ذهنه، والثانى حرصه المتعمد على تجنب التزويق فى اللغة.. كان يوسع أن يتقعر، وأن يسجع، وأن يجرى على أساليب الجاحظ وغيره من المتقدمين. ولكنه أثر جلال المعنى على جمال اللفظ، وذين الفكرة على جرس العبارة. ودرج على التعبير البسيط الذى يضرب فى المعنى إلى الصميم دون برقشة أو زركشة، حتى يضرب للناس مثلاً فى العناية بالأفكار، والابتعاد عن الصنعة التقليدية التى قتلت الفكر والأدب العربيين، وأثقلتهما بهذه الزينة اللفظية. وكان يوجّه النقد والتهكم لمن التزموا النمط التقليدى فى تأليفهم أو تعبيرهم، ويعدّ هذا فيهم من أسباب السطحية والفقر فى الحياة العقلية للعرب.. كتب فى وصف أحدهم يقول:

«أديب اللفظ، فارغ الرأس، قليل العلم، قريب الغور، قد ستر كل هذا بزخرفة القول كما تستر الشّواء عيبها بالاصباغ».

المؤرخ الإسلامى

على أنه ربما كان أخطر إنجازاته الفكرية على الإطلاق، وأبقاها على الأيام، هى كتبه «فجر الإسلام» و«ضحى الإسلام» و«ظهر الإسلام»، التى عرض فيها بالتحليل للحياة العقلية

للعرب والمسلمين تحليلاً لم يتهياً مثله لأحد من قبله. وقد وصف المستشرق البريطاني سير هاميلتون جيب هذه الكتب فى «دائرة المعارف الإسلامية» بأنها «أول محاولة شاملة لإدخال منهج النقد فى التأريخ الإسلامى العربى الحديث». وستظل هذه الكتب الخالدة شاهدة على الجهد الذى لم يكلّ، والعقل الذى لم يضلّ.. حاول فيها أن يلتمس العلل البعيدة التى غذّت العقلية الإسلامية ونمتها وصقلتها وشكّلتها فى شتى الصور على مرّ العصور.. وقد اقتضى منه هذا التحليل أن يرجع إلى العوامل الدينية المستمدة من الإسلام، وإلى العناصر الدخيلة على المسلمين من الحضارتين الفارسية والهندية ومن الفلسفة اليونانية، وكيف تفاعلت هذه العوامل كلها فى بوتقة الحضارة الإسلامية. وفعل أكثر من ذلك إذ نظر إلى العقل الإسلامى فشرّحه تشريحاً، فى حرية شديدة، وجرأة غير معهودة، وانتقل من التحليل إلى الأفكار التركيبية التى انتهت إليها العقلية حتى تحققت فى الحياة، واستوت فى مظاهر السلوك، وبرزت فى الأقوال المسطرة، والكتب المدونة، والعلوم المنتشرة.

وقد ارتفع فى هذه الكتب إلى النظرة الكلية الشاملة، وبسط الحياة العقلية فى الإسلام بنظره الناقد، وأحال ما فيها من اضطراب إلى وحدة، فلم يعد القارئ العربى يحس بإزاء تاريخه أنه فى متاهة لا يعرف كيف يدخل إليها، وكيف السبيل إلى الخروج منها.

فقد درج العرب على تأريخ حوادثهم فى حوليات، كما نرى فى الطبرى وابن الأثير وغيرهما، فيذكرون الأحداث من شتى نواحيها، يختلط فيها التاريخ المحض السياسى بالأدب والعلم والدين. ولم يعرف أحد من المتقدمين طريقة الكتابة التاريخية الحديثة، اللهم إلا ابن خلدون الذى صور فى مقدمته كيف ينبغى أن يكتب التاريخ، حتى إذا شرع فى تدوين تاريخه سار على نهج القدماء.

أما تاريخ الحضارة بمعنى الكلمة فلم يعرفوا عنه شيئاً. فإذا أراد باحث اليوم أن ينهض لتصوير الحضارة الإسلامية فى مختلف عصورها، مع بيان العناصر المكوّنة لها، والظروف التى أدّت إلى ظهورها، كالعوامل الجغرافية والسياسية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية، فلن يجد إلا القليل من ذلك واضحاً فى الكتب القديمة. لذلك كانت مهمة مؤرخ الحضارة الإسلامية مهمة شاقة عسيرة، تحتاج إلى إحاطة شاملة بكثير من العلوم، من تفسير وحديث وفقه وتاريخ وأدب واجتماع واقتصاد وفلسفة وعلم كلام وتصوّف، ثم يحتاج بعد هذا كله إلى تنظيم جديد لهذه المادة الواسعة التى جمعها، تتجلى فيها أصالة الفكر، ورجاحة العقل.

وقد كانت هذه هى المهمة التى أخذها أحمد أمين على عاتقه.. كتب فى مقدمة الجزء الأول من «ضحى الإسلام» يقول:

«لعل أصعب ما يواجهه الباحث فى تاريخ أمة هو تاريخ عقلها فى نشوئها وارتقائها، وتاريخ دينها وما دخله من آراء ومذاهب. ذلك أن مدار البحث فى المسائل المادية وما يشبهها واضح محدود، وما يطرأ عليها من تغير ظاهر جلى، أما الفكرة فإنك إن حاولت أن تعرف كيف نبتت، وكيف نمت، وما العوامل فى إيجادها، وما العناصر التى غذتها، وما الطوارئ التى طرأت عليها فعدلتها أو صقلتتها، أعياك ذلك، وبلغ منك فى استخراجها الجهد».

غير أن الرجل لم ييخل بجهد، ووفق بفضل ثقافته العريضة ونظرته الثاقبة إلى أن يقدم - على حدّ تعبير طه حسين - «عرضاً دقيقاً صحيحاً صادقاً لتطور الحياة العقلية للمسلمين ملائماً للعقل الحديث.. وكذلك استطاع ذلك الشيخ القديم الذى لم يجد نفسه فى الأزهر، ولا فى مدرسة القضاء، ولا فى الأعمال المختلفة التى تقلّب فيها، والذى كان شيخاً ضائعاً بين شيوخ ضائعين، أن يفرض نفسه على الحياة العلمية فرضاً، وأن يظفر بإعجاب المواطنين والأجانب من العلماء، وأن يصبح ثقة فى تاريخ الثقافة الإسلامية، لا بالقياس إلى تلاميذه وزملائه فى مصر والعالم العربى، بل بالقياس إلى كل من يعنون بهذا النحو من أنحاء العلم فى أقطار الأرض كلها».

«أَدَمُ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ أَهْيَلُهُ..»

لو أنى سئلتُ عن أبرز خصائص أناس هذا الزمان لأجبتُ بأنه التعجّل ونفاد الصبر وضيق العَطَن.

فما من أحد عاد يطيق «إضاعة» الوقت في النمو. وقد أضحت كلمة «الغد»، وتعبير «في الوقت المناسب» مرفوضين من الكافة تقريباً، كما تحوّل «الأمل» في بلوغ أمرٍ أو نوال شيء في نهاية المطاف، إلى مجرد رغبة جامحة في باوغيه أو نيله في التوّ والساعة. فإن لَوّحت لهم بكلمة «المستقبل»، أعرضوا وازوروا بوجوههم، وأجابوك بأن المستقبل هو الآن.

أضحت الدول المتخلّفة - وقد أحاطتها وسائل الإعلام المختلفة علماً بأساليب الحياة الرغدة في الدول المتقدمة - عازفة كل العزوف عن تبنيّ التدرّج والأناة في نموّها، وتأبى أن تتبّع كافة الخطوات التي قطعتها الدول المتحضرة في سبيل بلوغ ما بلغته، وإنما تريد الطفرة وانتهاج أقصر وأسرع السبل إلى بلوغ الحضارة والرفاهية، وثمارهما التي ترى غيرها يستمتع بها، والتي يسيل لها لعابها.. فهي لا ترى ضرورة للسير خطوة خطوة. وبالتالي فإن كافتها تحاول القفز دون السير حتى تُلحق اليوم بالمستقبل، تارة عن طريق تبنيّ الماركسية باعتبارها أقصر الطرق إلى الغاية المنشودة، حتى إذا ما انهار مشروعها الاشتراكي تحوّلت إلى انتهاج نهج «النموّ الستة» من بلدان جنوب شرقى آسيا (كوريا الجنوبية وتايوان وهونج كونج وسنغافورة وماليزيا وتايلاند)، باعتبار تجاربها أنجح التجارب المعاصرة الكفيلة بضمان اللحاق بصفوف «العالم الأول».

ولا يقتصر هذا التعجّل ونفاد الصبر على الدّول، وإنما يتعدّيانها - وبصورة أوضح وأقبح - إلى الأفراد من أهل هذا الزمان ممّن يرفضون انتظار الغد أو ترقّب ما يخبئه لهم المستقبل، وإنما يبقرون بطن هذا المستقبل ويجرون عملية قيصريّة له حتى يُخرجوا منه الجنين قبل تمام نموّه وحلول الألوان الطبيعي لولادته. والنبات ما أن ينبت من بذرته وتلوح أوراقه

الصغيرة الغضة للأعين، حتى يتطلع فاقد الصبر إلى أن يصبح شجرة باسقة، وإلى أن يزهر وينتج ثمرأ، حتى لو اضطر إلى الاستعاضة عن الأزهار والثمار الطبيعية بأخرى صناعية.

لننظر إلى شباب هذا الزمان، إلى الجادّين منهم وغير الجادّين على سواء:

فأما الجادّون الملتزمون فلم يعوبوا يصبرون على فكرة قضاء السنوات الطويلة في تحصيل ثقافة عريضة أصيلة تنمو على مرّ الأيام، أو إعمال الفكر وبذل قصارى الجهد من أجل الوصول إلى آراء سديدة تتمتع بكبر قسط ممكن من الموضوعية، وإنما نجدهم يقفزون قفزأ إلى اعتناق أية عقيدة توهمهم بأنهم باتوا يفكرون لأنفسهم وينتقون، وتجعلهم يتخيّلون أنهم - بفضلها - قد صار بوسعهم تفسير كل شيء، والحكم على كل شيء.

وأما غير الجادّين فينظرون إلى سنوات التحصيل والدراسة باعتبارها مضيعة للوقت، وعينأ لا مبرر له، وعقبة تعسّفية تعوق الشروع فورأ في الانخراط في الحياة «الحقيقية». وهم لا يؤمنون بما يليق به عليهم أساتذتهم من دروس، فإن ذاكروا هذه الدروس فإنما يذاكرونها كي يتقيأوها بعد ذلك في ورقة الإجابة، ثم يحون ما تعلّموه من ذاكرتهم إلى الأبد كأنه لم يعلق بعقولهم قط. وبالتالي فهم لا يرون بأسأ في اللجوء إلى الغش وقت الامتحانات، بل ولم يعد الكثيرون من أبائهم يرون بأسأ في هذا الغش، حيث أن الهدف لم يعد تحصيل العلم، وإنما نيل الشهادة وبدء «الحياة الحقيقية» بعد كل تلك السنوات التي ضاعت «فيما لا جدوى فيه».

وخريج الجامعة متى نال غرضه وحصل على شهادته، لا يفكر في الالتحاق بالعمل الكفيل بتحقيق ذاته، أو خدمة وطنه وبني قومه، أو الذي يتفق مع ميوله وتكوينه واستعداداته الذهنية، وإنما يبحث عن العمل الذي يدرّ عليه أعلى دخل متاح لأمثاله في السوق، كوظيفة في بنك، أو في هيئة أجنبية، أو شركة من شركات التصدير والاستيراد، أو خارج وطنه في دولة منتجة للنفط.. فإن هو أقدم على الزواج حرص هو وزوجته على أن تتوافر في مسكنهما كافة الكماليات والأجهزة الكهربائية المنزلية دفعة واحدة، رافضين في سخريّة فكرة «بناء طوبة طوبة في عُش حبنا». فالكل يريد الثروة الفورية والرفاهية الكاملة، وتمكّنت من عقله فكرة أن من لا يمتلك الاثنتين منذ البداية فلن يمتلكهما أبداً، ومن قبل في مستهل حياته العملية مركزأ صغيرأ فسيظل فيه على الدوام. وهو ما قد يفسر لنا قبول بعض المنحرفين الانخراط - ولو مرة واحدة- في نشاط غير مشروع كتهريب المخدرات، تمكّته حصيلته منه من وضع أساس للحياة الرغدة التي لا يقبل عوضأ عنها. كما يفسر لنا انتشار ظاهرة الزواج عن غير حب، بل وشيوع الاستخفاف بعاطفة الحب ذاتها، متى سنحت فرصة الاقتران بزوج ثرى أو زوجة ثرية.

وظاهرة افتقار التجار والوسطاء ومقاولى البناء، بل والكثيرين من الأطباء والمحامين وغيرهم من المشتغلين بالمهن الحرة، إلى أدنى مستويات الذمة والأمانة.

فإن نحن نظرنا فى مجال الفنون والثقافة، نجد أن ممثلة من الجيل الماضى - كجريتا جاريو مثلاً - كانت تحرص فى مستهل حياتها الفنية على الالتحاق بمعهد أو أكاديمية للتمثيل، تقضى به أو بها السنوات الطوال فى دراسة منتظمة شاقة، تنتقل بعدها إلى قبول أنوار مسرحية أو سينمائية صغيرة، وتظل هذه الأدوار تتزايد فى أهميتها حتى يسند إليها دور البطولة، ثم حتى تصبح نجمة لامعة. أما اليوم - ربما منذ اكتشاف المخرج إيليا كازان لجيمس دين عام ١٩٥٥ وهو فى الرابعة والعشرين من العمر، واكتشاف المخرج ستانلى كرامر لصوفيا لوردين عام ١٩٥٧ وهى فى الثالثة والعشرين - فإن أى شاب يتطلع إلى احتراف التمثيل، بات يحده الأمل فى أن يكتشفه مخرج مرموق فيجعل منه نجماً بين عشية وضحاها. ولذا فقد قيل «إن الممثلة كانت فى الماضى تحاول جاهدة أن تصبح نجمة، أما اليوم فليس ثمة غير نجمة تحاول أن تصبح ممثلة»!

لقد بات ثمة الآن ما قد نسميه بالشهرة الفورية، أسوة بالاطعمة الفورية Instant Food أو القهوة الفورية Instant Coffee مما تقدمه لعملائها محلات مكدونالد، وهى إحدى السمات الرئيسية للعصر الحديث الذى لا يطيق ابناؤه الانتظار. وقد أدرك المؤلفون الشباب فى زمننا هذا - وهم المتعطشون إلى الشهرة الفورية - أن هذا النوع من الشهرة لا يتوقف على ما تعرفه، وإنما على من تعرفه (أعنى من النقاد ورؤساء التحرير وأصحاب دور النشر والقائمين على جهازى الإذاعة والتلفزيون). وهم يفضلون كتابة المقالات للصحف والمجلات واسعة الانتشار على قضاء السنوات الشاقة فى تأليف كتاب تطبع منه ثلاثة أو خمسة آلاف نسخة لا تنفذ إلا بعد انصرام أعوام. فإن طُبعت لهم كتب فكثيراً ما تكون من صنف الكتب مضمونة الرّواج، كالكتب الجنسية الفاحشة، أو الفكاهية الرائقة، أو البوليسية الشائقة، أو العاطفية الرومانسية التى تستهوى قلوب المراهقين والمراهقات، أو شديدة التعاطف مع تيار سياسى أو دينى له شعبية كبيرة مؤقتة.

حينئذ يلمع اسم الكاتب، وتزيد دور النشر من نسبة مكافأته، وتستجلبه الإذاعة للحديث فيها، والتلفزيون لكتابة التمثيليات المسلسلة له، وتستكتبه الجرائد والمجلات، ويدعى للاشتراك فى ندوات، وإلى إلقاء المحاضرات، وتُجرى معه المقابلات الصحفية، وتُسند إليه كتابة عمود يومية أو مقال أسبوعى، ويؤخذ رأيه عند وقوع حدث، ويُطرّ بالأسئلة عن نمط حياته وأسلوب

معيشته، وعن ألوان الطعام التي يهواها، والأغاني التي يفضلها، وعلّة غرامه بالقطط، وسبب كراهته لارتداء رباط العنق.

وهو إذ يُقبل على كل هذا في نشاط وهمّة، إنما يحفر قبره بنفسه.. فالساعات التي كان يقضيها في الاطلاع والقراءة تتناقص فتتضاؤل فتتدثر.. والمال الذي بات يُغدق عليه قد نقله من الريف أو مدن الأقاليم إلى العاصمة، أو من وسط شعبي يفيض حياة وكان مصدر إلهام كتاباته الأولى إلى صالونات الأغنياء والأدباء من أمثاله. وقد تعرّف بسبب نجاحه بعدد كبير من النقاد والكتّاب، وأنشأ معهم علاقات شخصية، فباتوا مضطرين اضطراراً إلى امتداح كل إنتاج جديد له، أو الإحجام، على الأقل، عن بيان نقائصه وعيوبه، فيزيده مديحهم الذي يحسبه مخلصاً غروراً واطمئناناً إلى استمرار موهبته. وإذا أن المجلات والصحف وور النشر وسائر وسائل الإعلام يهيمها شهرة الكاتب قبل جودة ما يكتبه، فإنها تظل على إلحافها في طلب المقالات والتمثيلات والكتب إلحافاً يوهمه بأنه لا سبب وراءه غير عبقريته.. وعموده اليومي في الصحيفة يُملا، ومقاله الأسبوعي في المجلة يكتب، وإن لم يكن قد بقي في عقله أفكار جديدة، والبئر لا بدّ من استخراج الماء منها ولو كانت فارغة. وأصحاب الصالونات من الأغنياء يتهافتون على دعوته لإصفاء البريق على سهراتهم، فيتبدّد وقته وتتشتت طاقته الذهنية والروحية بالتردد عليها لسماع الثناء على آخر ما كتّب، وأحدث ما نُشر.. وثمة نساء وفتيات قاصرات العقل يرأسلنه أو يستشرنه أو يتزاحمن عليه، ويرين فخراً أن ينشئن معه علاقة جنسية... كل هذا وغيره أمور من شأنها أن تقتل الموهبة الصادقة بله الموهبة الزائفة، فإذا كل إنتاج جديد له هو أضعف مما سبقه، وأتفه من سلفه، حتى إذا ما صار كقشرة الليمونة قد اعتُصر منها كل ما في جوفها، تعجّب وتأنّف، وتألّم وتذمّر، إذ يرى الجمهور وقد تحوّل عنه فجأة إلى كاتب صاعد ونجم جديد، وإذا مكانه في صفيحة القمامة وهو الذي كان قد أوشك أن يصبح على ثقة من أنه في زُمرة الخالدين.

إنه ما من شيء ذي قيمة حقيقية إلا استغرق نموه زمناً طويلاً. أو كما قال ابن حزم: «أسرع الأشياء نمواً أسرعها فناً، وأبطؤها حدوثاً أبطؤها نفاداً، وما دخل عسيراً لم يخرج يسيراً». ولا شك في أن هذا هو ما كان وراء قوله الروائي الإنجليزي أنتوني ترولوب الشهيرة إن النجاح هو بمثابة السمّ الذي ليس من المصلحة تناوله إلا في أواخر العمر؛ وحتى في أواخر العمر فإنه لا ينبغي تناوله إلا في جرعات صغيرة. فالكهل والشيخ أبصر من الشباب بالأمور على حقيقتها، وأصعب انبهاراً بالمتقلب الفاني، وأقلّ تعرّضاً للإصابة بالزهو والخيلاء أو بالإفراط في تقييم متاع الغرور.

أضف إلى ذلك أن تأخر الشهرة والنجاح سبب في ألا يتعجل الكاتب الإنجاز، إذ ليس هناك ما يستحثه ويدفعه إلى أن يمسك بالقلم ما لم تجل بخاطره فكرة جديدة ذات قيمة. وهو في العادة إنما يكتب لإرضاء حافز داخلي قوي يحفزه إلى التعبير عن ذاته، لا لإرضاء جمهور قرائه. لذلك فهو حريص كل الحرص على كمال الأداء، وإتقان الصنعة؛ ليس ثمة أمامه عمود يوميّ عليه أن يملأ سطره بأيّ كلام، ولا وراءه رئيس تحرير مجلة يستحثه الإنجاز حتى يلحق بالعدد الأسبوعي، أو مدير إذاعة يستعجل حلقات التمثيلية قبل ظهور هلال رمضان... وقد قضى جوته في كتابة «فاوست» اثنين وستين عاماً، ولو أنه كان ينشرها في حلقات في مجلة، أو استعجله مدير الإذاعة لتسجيل المسلسل، لكان من المؤكد أن يُحرم الأدب العالمي من إحدى روائعه!

أبناء الدبلوماسيين..

محظوظون أم مغبونون؟

أجدنى، بعد خمسة وثلاثين عاماً من العمل فى السلك الدبلوماسى، أسائل نفسى عما إذا كانت مهنتى وإقامتى الطويلة خارج الوطن قد أفادتنا بناتى الثلاث أم أضرت بهن، ثم بوجه عام، عما إذا كان أولاد الدبلوماسيين وبناتهم من المحظوظين المنعمين، أم من المتضررين المحرومين.

إن سألت بناتى أنفسهن أَجَبْنَ جميعاً فى سرعة وفى ثقة وفى نفس واحد بأن مهنتى أضرت بهن أفدح الضرر، وهما سرعة وثقة توحيان بأنهن قد سبق لهن التفكير طويلاً، وفى تعمق، فى هذا الأمر ووصلن إلى رأى قاطع، ثم إنه لَمِمَّا يقطع بإخلاص إجابتهن أنه ما من واحدة منهن قبلت بعد تخرجها من الجامعة الالتحاق بالسلك الدبلوماسى، أو قبلت الزواج من أحد شباب الدبلوماسيين وإن راقها، خشية أن تجنى على أولادها مثلما جنيت أنا عليها!

وحجتهن الرئيسية التى لا مفر من الإقرار بوجاهتها هى أنهن عشن طفولتهن وصباهن وشبابهن الأول هائمات شريدات، لا تستقر بهن أرض، ولا يعرفن لأنفسهن مسكناً بعينه، ولا دامت صداقة لهن أكثر من ثلاث سنوات أو أربع، ولا اتصلت دراستهن فى ظل نظام واحد أو فى مدرسة واحدة ومع نفس المدرسين، ولا كان لهن يد فى إطالة إقامتهن فى بلد أحيبته، أو فى قطع إقامتهن فى بلد كرهته، كل ما يذكرنه من حياتهن معى هو إعداد الحقائق وإفراغ الحقائق، واستقبال فى المطار وتوديع فى المطار، وبحث عن مساكن وهجر لمساكن، وعقد صداقات ونقض صداقات، ودراسة مضطربة أينما حللن، والإقدام على تعلم لغة أجنبية بعد لغة أجنبية يعلم الله وحده ما إذا كن سيستخدمنها بعد مغادرتهن للبلد الذى يتكلم بها، وتنقل لا ينقطع بين قارات مختلفة، وأنظمة سياسية واجتماعية واقتصادية مختلفة، ومستويات حضارية

متفاوتة، وعادات وتقاليدها متباينة، وديانات متصارعة. حتى إذا ما عدنا إلى وطنهم لقضاء عام أو عامين فيه وجدنا أصدقاءهم الحميمين القدامى وقد بات لهم أصدقاء حميمون جدد، وصادقون السخرية من الكافة من عجمة في السنتهن متى تكلمن العربية، وقابلن الصعوبات في محاولة التكيف، وتعجب الناس من مسلكهن وزيهن ونطقهن وعاداتهن ومفاهيمهن عن الحياة. فإذا هن غريبات حتى في وطنهن، أجنبيات حتى بين بنى جلدتهن وأقربائهن.

وكلها أقوال لا أستطيع لها دفعا، ولا أملك إلا أن أشعر إزاءها بالأسف والألم وتأنيب الضمير.. غير أنى - وهو أمر طبيعي - أحاول جاهدا أن أجد للصورة وجهاً آخر، وجانباً مضيئاً يخفف من ذلك الألم بل ويحيله إلى إحساس بالرضا والأطمئنان. ولكم أراحنى وأغبطنى أن أقرأ الجملة التالية في كتاب المستشرق البريطاني برنارد لويس عن تاريخ تركيا الحديث:

«إن الغالبية العظمى من كبار رجال الدولة وشاغلي المناصب العليا في الدولة العثمانية في القرن التاسع عشر، كانت من أبناء الدبلوماسيين الأتراك».

فما عساه أن يكون سبب هذه الظاهرة إن لم يكن في حياة أبناء الدبلوماسيين بصفة عامة وفي تعليمهم ما يجعلهم من المتميزين المتفوقين على أقرانهم؟

إنه لكثيراً ما يخيّل إلى - رغم كل ما أسلفت ذكره عن المتاعب التي يتعرض لها أبناء المشتغلين بمهنتي - أن بناتي إنما ولدن وفي أفواههن ملاعق فضة! كل منهن قد صارت تملك ناصية خمس لغات أجنبية أو ست، تتحدث بآنيها حديث أهل هذه اللغة. قد زارت قبل بلوغها العشرين أكثر من ثلاثين دولة، وأقامت السنوات في سبع منها: في غرب أفريقيا وشمالها، وشرق أوروبا وغربها، وشمال أمريكا وجنوبها. قد عرفت عن كُتب مجتمعات شيوعية ورأسمالية، متقدمة ومتخلفة، بيضاء وسمراء وسوداء، مسيحية وإسلامية وملحدة، بل وكان لها صديقات وثنيات هن بنات جيراننا النيجيريين من قبائل الأيو، وتعلمت احترام ديانات الكافة وتقاليدهم والجوانب الإيجابية في معتقداتهم وعاداتهم. قد عاشت في ظل أنظمة ديكتاتورية ثقيلة الوطأة، لا تعبر عن الرأي إلا خلسة، ولا تنبس بالكلمة إلا همساً، وفي ظل ديموقراطية تسمع فيها أكثر ما تسمع من أبنائها عبارة «نحن في بلد حرا». قد شهدت صرامة الألمان ونظامهم وجدهم في العمل، وشهدت مرح البرازيليين ولهوهم على الشاطئ واحتفالهم بكرة القدم والكرنفالات أكثر من احتفالهم بأي شيء آخر من أمور الحياة. راقبت مظاهر التفرقة العنصرية في الولايات المتحدة، ومشاكل الجنسيات المتعددة في الاتحاد السوفييتي، وتأثير

الاستعمار الفرنسي فى لغة الجزائريين وعاداتهم وطيائهم، والانحسار التدريجى فى اعتزاز البريطانيين القديم ببريطانيتهم.

فكم يا ترى من المصريين قد أتيح لهم ما أتيح لهم من فرصة للاطلاع على ما أطلعن عليه، ولاكتساب ما اكتسبته من لغات وخبرات؟ يقول المثل العربى القديم: «من لم يعرف غير لغته لم يعرف لغته، ومن لم يعرف غير وطنه لم يعرف وطنه، ومن لم يعرف غير دينه لم يعرف دينه»!

وما من شك فى أن أبناء الدبلوماسيين قد عرفوا أكثر من غالبية بنى جلدتهم لغات غيرهم وأوطان غيرهم وديانات غيرهم. وهم بالتالى مؤهلون أكثر من غيرهم للحكم على مختلف جوانب الحياة فى مجتمعهم، وأحد نظرة إلى هذه الجوانب، حتى إن بدوا غرباء فى بلادهم، ومع الصعوبة التى يعانونها فى التكيف مع واقع الأحوال فيها، وعلى حد قول الشاعر:

إن الكريم غريب حيثما كانا!

كل هذا صحيح أيضاً وكفى! بأن يدخل إلى قلبى العزاء، وأن يخفف فى قلوب بناتى مشاعر النقمة على قدرهن! وعلى أى الأحوال، فهل ثمة مهنة لا يعرف الناس لها مثالب وسلبات لصيقة بها وتابعة من طبيعتها؟ ألا يشكر أبناء العسكريين من فرط النظام وصرامته فى البيت؟ وأبناء الأطباء والصحافيين من انشغال آبائهم عنهم وقلة ما يقضون من وقت معهم؟ وأبناء المعلمين والمحامين من إفراط آبائهم فى الكلام وضعف قدرتهم على الاستماع إلى الغير؟ فحديثك إذن عن سلبات المهنة ممكن ومشروع كحديثك عن مخاطر المهنة.

أمر واحد جلل لا أملك معه دفاعاً فيما يتصل بآثار الحياة الدبلوماسية فى الأبناء: وأعنى به اضطراب الأبناء فى طفولتهم إلى هجر كل ما هو مألوف من وطن وسكن ووجوه ومعالم إلى آخره، والانتقال فجأة إلى وسط جديد كل ما فيه غير مألوف. فقد أكد علماء النفس جميعاً دون استثناء أن انتقال الطفل على هذا النحو من المألوف الذى بدأ يستشعر إزاءه بالدفع والاطمئنان، إلى الجديد غير المألوف الذى سيستشعر إزاءه بالحيرة والخوف، من المؤكد أن ينجم عنه إحساس بالافتقار إلى الأمن قد يستمر معه طيلة الحياة، وأن يؤثر فى مواقفه مما حوله ومن حوله، وخبراته فى المستقبل، وهم لذلك ينصحون الآباء بأن يضمنوا أن يحاط الطفل قدر المستطاع بما هو ثابت متكرر، وبأن يتجنبوا - حتى يبلغ الطفل سن السابعة أو الثامنة - تغيير المسكن أو الأثاث أو العادات أو الوجوه المحيطة أو المدرسة إلى آخره حتى ترسخ دعائم أسس متينة يمكن بعدها التنقل والتغيير دون عواقب وخيمة.

هذا إذن هو أخطر آثار المهنة على أبناء الدبلوماسيين، وعلى المقبلين على اختيارها من

الآباء والأمهات أن يوازنوا قبل اتخاذ قرار بشأنها بين هذا الاحتمال شبه المؤكد أن يفقد أولادهم الإحساس بالأمن، وبين الاحتمال شبه المؤكد هو أيضاً أن يكتسب أولادهم من التميز العقلي، ومن سعة الأفق، ما هو كفيلاً بأن يجعلهم من صفوة أفراد مجتمعهم، ومن قادته في مختلف الميادين.

مجرد وقاحة

- يا وقح يا قليل الأدب!

هكذا صاحت السيدة وسط الزحام المتدفق الخارج من قاعة السينما، فى وجه الرجل خلفها.

- يا ستى أنا ذنبى إيه؟ موش شايفة اللى ورايا بيذقونى ازاي؟ أعمل إيه أنا؟

- قليل الأدب!

هكذا كرّرت السيدة. غير أن نظرة واحدة منها إلى الراء على جموع الهمج المتدافعة كانت كافية لإقناعها بأن الرجل مظلوم.. ومع ذلك فإنها لم تعتذر. واكتفت بالتمتمة بعبارات سخط غير واضحة.

كنتُ على بعد بضع خطوات منهما، أعانى ما يعانيان. غير أنه كان بى - لحسن الحظ - فضل طاقة - جعلنى أفكر:

- ألا ينطبق هذا الذى يحدث هنا على شكوى المرأة مما تعانيه من قهر الرجل لها فى مجتمعاتنا الإسلامية؟ المسكين يعانى فى كل يوم وفى كل ساعة من قهر سياسى واجتماعى واقتصادى، ولا يجد مجالاً للتنفيس عن همّه إلا فى محيط أسرته. وكما يفعل به يفعل بالآخرين... ما يفعله به أعداؤه يفعله بأقرب الناس إليه... ثم أليس من الشائق حقاً أن نلاحظ أنه فى حين تمكّنت الحكومات والمجالس التشريعية فى الدول الإسلامية بسهولة بالغة - ودون أدنى حاجة إلى تبرير وإيضاح - من سنّ التشريعات والقوانين المدنية والتجارية والجنائية التى لا صلة لها بما نصّ القرآن عليه فى هذه المجالات، كان كل تعديل مهما هان شأنه فى قانون الأحوال الشخصية، يستهدف التخفيف من قيود المرأة المسلمة الأسيرة فى قبضة الرجل، يلقى معارضة ضارية وغضباً عارماً من الرجال كثيراً ما أفلحوا فى تعطيله أو إلغائه؟

لقد وجدت معظم الطبقات فى تطوير التشريعات المدنية والتجارية ما يخدم مصالحها، وفى تطوير الأحكام الجنائية ما لا يمس مصالحها من بعيد أو قريب، فدفعها ذلك إلى تجاهل مناقضتها للأحكام القرآنية. أما التخلّى عن المفاهيم والقوانين التى تجعل المرأة فى حكم الأمة للرجل، فمعناه تخلّى الرجل فى مجتمعنا عن المجال الوحيد المتبقى له للتنفيس عما يشعر به من قهر، وبالتالي فقد رآه الرجال وثيق الصلة بالإسلام، واعتبروا مقاومته واجباً مقدساً يحتمه الدين.

* * *

وأعود إلى دارى فأبادر بالاتصال تليفونياً بصديق حميم لم أره طوال السنوات الخمس التى غيبتها عن مصر. وإذ تروعنى نغمة اكتاب عميق فى صوته لم أعهد لها منه، وأسأله عن مصدرها، إذا به يصيح فجأة:

«سيادة السفيرا هل تفهم شيئاً مما يدور اليوم فى منطقتنا؟ أرجوك أن تشرح لى إن كانت لديك نظرية بشأن ما يجرى.. هل كان صدام حسين يدرك ما يفعله؟ هل هو مأجور؟ عميل إسرائيلى؟ أحقق ينفذ دون وعى منه مخططاً أمريكياً؟ وما هو هذا المخطط إن وجد؟ البعض يقول إن جورج بوش نفسه لم يكن يدرك منه إلا قشرة رفيعة مما سمح له الصانعون الحقيقيون للسياسة الاميريكية بأن يطلع عليه. فما بالك بأمثالى ممن يستقون معلوماتهم، لا من تقارير وكالة المخابرات الاميريكية والبرقيات الرمزية للسفراء، وإنما من الصحف المصرية؟».

واستطرد قائلاً فى لهجة تزداد مرارة وحنقاً:

«صديقنا ك.م. يقسم لى أن لديه أرقام الشيكات التى كانت السفارة العراقية بالقاهرة تصرفها للصحافيين المصريين الذين يدافعون عن صدام».

وصديقنا ح.ق. يؤكد لى أن فلاناً وفلاناً قد حفرتهما أموال سفارة الولايات المتحدة للدفاع فى الصحف عن التواجد الأمريكى فى المنطقة.. غير أنى أريد أن أسألك، وبالله عليك، ماذا عساه أن يكون موقف الصحف والمجلات القومية التى تهاجم النظام العراقى اليوم بكل حدة وبشراسة لو أن الرئيس حسنى مبارك اختار منذ البداية أن يؤيد العراق بون الكويت؟ لقد ظلت هذه الصحف القومية صامته عن أية إدانة، ومحجمة عن اتخاذ أى موقف، طوال الايام الثلاثة الاولى التالية لغزو الكويت فى انتظار قرار الرئيس. فما اتخذ قراره بالانتصار للكويت

ضد العراق حتى بدأت الحملة الضارية فيها جميعاً ضد صدام حسين... وأقسم لك أنه لو كان القرار غير ذلك لانبثرت الأقلام كافة تمتدح صداماً وفعلته، وتؤكد تمسك مصر بالتزامها الذي تفرضه عليها اتفاقية مجلس التعاون العربي بالوقوف في صف العراق الشقيق.. أتعلم أن رئيس تحرير إحدى الصحف القومية كتب خلال تلك الأيام الثلاثة السابقة على قرار الرئيس مقالين افتتاحيين لصحيفته، أولهما يهاجم العراق، وثانيهما يناصره ويدافع عنه، واحتفظ بهما عنده في درج مكتبه حتى أنته الإشارة، فدفع بالمقال الأول إلى المطبعة ومزق الثاني!!

«هم اليوم يتناقسون فيما بينهم على نشر ملفات التاريخ الأسود لعهد صدام، ولجرائمه منذ استلامه الحكم بل وقبل استلامه الحكم (منذ طفولته في واقع الأمراء)، والمذابح التي دبرها، والمؤامرات التي حاكها، والاعتقالات التي أمر بها.. فهل كانت كل هذه الملفات مجهولة لديهم وقت أن كانوا يشيدون به، ويهللون لإبرام اتفاقية التعاون العربي معه، ويلبّون دعوته لحضور احتفالات تحرير الفار، وتبتهجهم السيارات والعطايا والجوائز والمنح التي كان يكيلها لهم كيلاً؟ هل ظهرت لهم هذه الملفات فجأة ولأول مرة بعد قرار الرئيس بإدانة غزوه للكويت؟ وهل ستظهر يا ترى في يوم ما ملفات مماثلة عن عهدي الملك فهد والرئيس حافظ الأسد إن حدثت وفسدت العلاقات بهما؟

«ماذا تراهم يفعلون بنا ويعقولنا يا صاح؟ وكيف يمكن لإنسان منا يحترم نفسه أن يسمح لهذه الصحافة المصرية بأن تسهم في تكييف أفكاره، أو تساعد في تكوين رأي؟.. أتريد الحق؟ إنها مجرد وقاحة وقلة أدب!

* * *

«وقاحة وقلة أدب».. المرة الثانية التي أسمع فيها هذه العبارة في أقل من ساعة واحد..
أيمكن أن يكون السبب واحداً؟

تفكير ربع ساعة كان كافياً لأن يدفعني إلى أن أهتف بصوت عال:
- نعم!

* * *

حين عبر قيصر الروبيكون في ١٠ يناير من عام ٤٩ ق.م قالت الخاصة والعامة في روما إنه يهدف إلى القضاء على الجمهورية فيها، وأنه من بين الدوافع وراء تصرفه هذا علمه بالمؤامرات التي تحاك ضده، واتجاه البعض، مثل كاتو، إلى طلب محاكمته ونفيه، ولأن مدة

حكمه فى بلاد الفال كانت قد أشرفت على الانتهاء فيفقد بانتهاها الحصانة التى يسبغها عليه مركزه.

وحين عبر بونابرت الحدود الفرنسية إلى إيطاليا عام ١٧٩٦، قالت الخاصة والعامة فى أوروبا إن الجيش الفرنسى كان يؤمن بأن لفرنسا رسالة هى تعميم الحرية فى أرجاء العالم، وأنه استغل فرصة ضعف النمسا وتطلع الإيطاليين إلى خلع نير استعمارها، لنشر مبادئ الثورة الفرنسية فى أوروبا، وتقليص نفوذ البابا الذى كان يشجع ويحرض القوى المضادة لتلك الثورة.

وحين اجتاحت الولايات المتحدة تكساس عام ١٨٤٥ واغتصبتها من دولة المكسيك، ذهب رأى العام العالمى إلى أن غنى هذه البقاع، ورغبة الولايات الشمالية الأمريكية فى تسويق سلعها الصناعية فى تكساس والحصول على قطنها بثمن بخس، ورغبة الكثيرين من سكان الولايات الجنوبية فى الهجرة إلى موطن جديد، وخشية الجميع من نية انجلترا تحويل تكساس إلى محمية بريطانية، هى الدوافع إلى هذا الاغتصاب.

وقد أقرت كتب التاريخ حكم العامة والخاصة فى هذه الأحداث، ووافقت على ما ذهب إليه رأى العام العالمى.

أما حين اجتاحت الجيش العراقى الكويت فى ٢ أغسطس ١٩٩٠، وبادرت الولايات المتحدة ودول كثيرة غيرها بإرسال الحشود العسكرية الضخمة إلى المملكة السعودية، فقد وقع الناس، خاصتهم وعامتهم، فى حيص بيص، وتعددت التفسيرات وتناقضت الآراء، بل إن حيرة الخاصة وتخبُّطها كانا بدون شك أعظم وأدهى من حيرة رجل الشارع.

ذلك أنه ما من أحد فى عالم اليوم هو من السذاجة بحيث يقبل على علَّتها تصريحات الساسة وتفسيرات الرسميين، أو يأخذ البواعث المعلنة على محمل الجد... قد كان ثمة دائماً كذب وخداع من الساسة واستخفاف منهم بعقول البشر، منذ فجر التاريخ إلى يومنا هذا، من زمن حصان طروادة إلى تحريف برقية إيمز عام ١٨٧٠ إلى المبررات السوفييتية لغزو أفغانستان.. غير أن حالنا اليوم هو أبعد ما يكون عن حال الناس حين كانوا بين مصدق ومكذب لنية أوليس، أو نية بسمارك، أو نية بريجنيف. والأقرب إلى الواقع هو القول بأنه فيما عدا المعروفين بالسذاجة المفرطة، والمشهود لهم بالغفلة، والصحافيين، أضحى الناس يأبون تفسير الأمور على ضوء ما يبدو من ظاهرها، وغلب عليهم الميل إلى البحث عن المبررات

الخفية، والنوايا البعيدة، والخطط الشيطانية، والاتفاقات السرية، مما يكمن وراء هذا الحدث أو ذاك.

هناك اتفاق بين معظم المثقفين على أن أزمة الخليج هي الضوء الأخضر للشروع في إعادة ترتيب البيت العربي ومنطقة الشرق الأوسط بحقول نفطها، أسوة بإعادة ترتيب البيت الأوروبي الذي بدأ عام ١٩٨٩. بل وقد يتفقون على أن إرسال القوات الأمريكية وغيرها إلى المنطقة لم يكن من أجل التصديّ لعدوانية العراق، وإنما كانت عدوانية العراق - باتفاق صريح أو بغير اتفاق صريح مع صدام حسين - تستهدف أصلاً أن يتلها إرسال القوات الأمريكية إلى المنطقة لإعادة ترتيب أوضاعها.

غير أنهم يختلفون بعد ذلك اختلافاً شديداً حين يحاولون تخمين معالم هذا الترتيب الجديد المعترزم.. أمن بينها الهيمنة الغربية الدائمة على منابع النفط؟ تسوية النزاع العربي الإسرائيلي؟ نفس الاتحادات واتفاقيات التعاون داخل العالم العربي، وخلق فرقة وانقسام دائمين فيه؟ ضم الدويلات الخليجية والسعودية في تنظيم واحد له بنية سياسية واجتماعية واقتصادية شديدة الاختلاف عن البنية الراهنة، وتلعب فيها الديمقراطية دوراً أبرز؟ وضع أسس جديدة لاستفادة أقطار المنطقة طراً، غنيهاً وفقيرها، من أموال النفط؟

كل هذا وعشرات من الأسئلة الأخرى التي باتت تهيمن هيمنة كاملة على تفكير المثقفين، لا يعينني منها في مقالى هذا غير حقيقة واحدة: هي أن هؤلاء المثقفين - أو جلهم - قد استقر لديهم الإيمان بأن هناك إرادة عليا، في مكان ما، لا رادّ لها، تنوى فرض أمر أو أمور على منطقتنا بعد أن فرضت أمراً أو أموراً على البيت الأوروبي من قبل، وأن المثقفين وسائر أبناء منطقتنا، بل وغيرها من المناطق، لا يملكون إلا تخمين كنه هذه الإرادة، وحزر رغباتها، وتشمّم اتجاهاتها، عن طريق التقاط هذا الخيط أو ذاك، والإشارة إلى هذه الأدلة أو تلك، وتجميع القطع الصغيرة المتناثرة في شكل صورة مفهومة. أما أن يقفوا في وجه هذه الإرادة إن اختلفوا معها، وأن يفرضوا إرادتهم هم، والأوضاع المثلى في رأيهم هم، «فأمرٌ لَعَمْرُكَ ما إليه سبيل».

وهذا هو الجديد في الموقف.. الجديد في عالم اليوم: الإحساس بوجود إرادة عليا، غامضة، لا تقهر، ولا يملك المثقفون إزامها إلا الحدس والتخمين، ولا الشعوب حيالها إلا الإذعان والاستسلام.

والطريف حقاً فى هذا الموقف شبه الدينى، أن التعابير التى يستخدمها المؤمنون فى عباداتهم، قد بتّ ألحظ ما يطابقها أو يماثلها فى أحاديث المفكرين والمثقفين من معارفى، حتى الملحدّين منهم: وما تشاعون إلا أن يشاء الله رب العالمين.. تقدرون وتضحك الأقدار.. العبد فى تفكير والرب فى تدبير.. لله فى خلقه شؤون.. وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.. حكمة ربنا.. هذه مشيئة الله.. وإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

تعابير إن أوحى بشيء فإنما توحى بأن الهيمنة الدولية تبدو وكأنما قد أحلّها الناس فى زمننا هذا محل الإرادة الإلهية.

وهذا بالضبط هو سرّ ما انتاب مثقفينا فى الآونة الأخيرة - ومن بينهم صديقى الذى تحدثت عنه - من اكتئاب.. هو ليس حزناً على ما حدث فى الخليج، ولا على المنظر المخزى الذى يبدو عليه العرب، ولا الفرقة فى الصف العربى، ولا هو الذعر من الوجود العسكرى الأجنبى فى منطقتنا، ولا الخشية من عواقب تردى الأوضاع، ولا هو أسف على مصالح خاصة قد أضرّبت، وإنما هو إحساس شبيه بإحساس المرأة فى المجتمع الإسلامى، الإحساس بالقهر، الإحساس بأنهم قد باتوا مغلوبين على أمرهم، بأنه لم يعد فى وسعهم التأثير فى الأحداث، وبأنهم لا يشاعون إلا أن تشاء القوة الوقحة المهيمنة على مجريات الأمور، وأن كل ما بقى فى مقدورهم محاولته هو تخمين اتجاه هذه المشيئة.

قد عشنا فى ظل أنظمة دكتاتورية غاشمة عانينا منها كل ضروب القمع والقهر والاستبداد، غير أن مشاعرنا وقتها ليست كمشاعرنا اليوم. كنا وقتها نلمح فى آخر السرداب الطويل المظلم بصيصاً من الضوء، بريقاً من الأمل، وكنا على ثقة من أن المقاومة العنيدة المثابرة من قبل الثوريين المتكاتفين كفيلة بأن توصلنا فى النهاية إلى هذا النور.. أما اليوم فقد «أناخ الدهرُ علينا بكلّكهِ»، و«لا حول ولا قوة إلا بالله»، و«إنّا لله وإنّا إليه راجعون».

شعورنا اليوم هو نفس الشعور الذى تخرج به من قراءة شوينهاور وتوماس هاردى: أن ثمة قوة رهيبة عمياء تحكم عالم الظواهر، لا تتزحزح ولا يمكن التأثير فيها أو الفرار بمصائرنا منها، وأقصى ما يمكن للمتفائل أن يقوله بصدها هو: «حكمة ربنا»، أو «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم».

وأسرد أفكارى هذه على صديق أديب لى، فيشرّد ذهنه لحظات ثم إذا هو يقول:

«كلامك هذا يعيد إلى ذهني ذكرى يوم مشهود من أيام حياتي في لندن..

«كنت وقتها أعمل مع دار نشر بريطانية متخصصة في قضايا العالم الثالث، عظيم السعادة بما يتاح لي من فرص التردد على المسارح والمتاحف والمعارض، والتزوّد من الحياة الثقافية في أوروبا، والإطلاع على أحدث ثمارها الفكرية والفنية.. ثم إذا بي في أحد أيام سنة ١٩٥٦ ألتقى نبأ الهجوم الإسرائيلي على مصر.. أصارحك القول بأنني لم أر فيه شيئاً غير عادي، ولا توقعت أن تترتب عليه عواقب غير عادية. فعشرات هي المرات التي قرأت فيها أخباراً عن اشتباكات بين مصر وإسرائيل، أو بين إسرائيل والأردن، فلم يتمخض عنها سوى تقديم الشكاوى وإحالة النزاع إلى لجان الهدنة المشتركة، ثم ينتهي الأمر. وما كان هناك في الاعتداء الجديد ما يدل على أن مصيره سيكون مختلفاً.

«قضيت نهار اليوم التالي في دار النشر، ثم عدت إلى مسكني أنتظر مجيء صديقتي بولين... وأدركت المذيع في السادسة مساءً لسماع الأخبار، متوقفاً أن أسمع إما أن القوات المصرية قد صدّت الإسرائيليين، أو أن القوات الإسرائيلية قد انسحبت من تلقاء نفسها بعد أن دمّرت بعض مراكز الفدائيين، غير أن الذي سمعته لم يكن هذا أو ذاك، وإنما هو إنذار من بريطانيا وفرنسا بأن قواتهما ستدخل مصر لحماية الملاحة في قناة السويس إن لم تسحب إسرائيل ومصر قواتهما لمسافة معينة عند ضفتي القناة.. وقد كان شعوري عند سماع الخبر غريباً، وجددتني أقفز من كرسي وأخطب جبهتي بكفى عدة مرات وأنا أصيح: يا ولاد الكلب! يا ولاد الكلب! من غير أن أدرك أيّ جهة أسبّها. وأحسست بأن من واجبي أن أفعل شيئاً.. شيئاً ما... وفوراً.. لا أن أعود لتوى إلى مصر (فقرار العودة لم أخذه إلا بعد أيام)، وإنما هو شيء آخر.. شيء أدفع به هذا الظلم الفادح.. هذا القهر كله.. هذه الإرادة الملعونة..

«كنت - كما ذكرت لك - سعيداً كل السعادة بحياتي في إنجلترا، كالسمكة في الماء، وكان المسرح حبى الأعظم في ذلك الوقت، أتردد عليه ثلاث مرات أو أربعاً كل أسبوع، وأتطلع بكل كياني إلى أن أصبح كاتباً مسرحياً.. وكنت مدّلاً بحب بولين.. وكنت أقوم في إجازاتي برحلات ممتعة واسعة النطاق في القارة الأوروبية، أو في سكتلندا وأيرلندا، أزور متاحفها ومعالمها، وأحضر مهرجاناتها السينمائية والمسرحية.

«وها أنا ذا اليوم أواجه فجأة ودفعة واحدة بمسألة الخيار بين بديلين: التنكر لبلدي والبقاء بين ظهراني أعدائه، أو العودة إليه واحتمال حياة ثقافية ضحلة لا تغنى ولا تسمن من جوع... والمسئول عن مواجهتي بهذا الخيار المصيري المرّ رجل لا يعرفني ولا أعرفه.. أنتوني

إيدن.. حكومة المحافظين.. لم أخطر له أو لها ببال.. أفليس هذا هو ما يعنونه بالقهر؟ أم هي مجرد وقاحة وقلة أدب؟

«فى السابعة وصلت بولين، ووجهها متهلل باسم كالعادة.. لم تكن قد سمعت الخبر بعد. وكانت تكره الحديث فى السياسة كراهة التحريم. فإن حادثتها فيها سكنت صابرة وهى تدعو الله فى سرها ألا تعكر انشغالاتى السياسية هذه صفو مضاجعتى إياها. ويبدو أن أول ما دار بخلدنا حين سمعت منى خبر الإنذار البريطانى الفرنسى أنه لا أمل فى أن أضاجعها ذلك اليوم. فاستسلمت للأمر الواقع، وخلعت معطفها، وجلست تستمع إلى دلالات ما حدث، وهى تعجب كيف يمكن لشخص أن يصفّر وجهه، وترتعش يده، وأن يتأثر كل هذا التأثير لخبر سياسى خارج عن إرادته... ثم سرعان ما شرعت تفكر فى مواعيد قطارات العودة إلى دارها. وإذا بشيء غير متوقع البتة يحدث.. كنت أنا أيضاً واثقاً من أنى لن أجامعها ذلك المساء. غير أنى ما سمعتها تتمم: «يا إلهى كم أكره هذه السياسة»، حتى غمرنى شعور غريب.. قلت لنفسى صائحاً بالعربية: «فليكن»، وأشرت إليها أن تاتى لتجلس فى حجرى بجانب المدفأة، ثم انتقلنا بعدها إلى الفراش. وجامعتها تلك الليلة كما لم أجامع امرأة من قبل أو من بعد.. جماع إنسان الغابة لأنثاه.. كنت محض حيوان.. وزاد من حيوانيتى كونها تنتمى إلى البلد المعتدى على بلدى.. وكانت هى تصرخ وتضحك فى آن واحد، وتعض ذقنى حتى سال الدم منها. أما عنى فكنت طوال الوقت أفكر: لعنة الله على السياسة وعلى صانعيها وعلى من شغل باله بها.. أهذه طريقة يعاملوننا بها؟ ألسنا بشراً نوى قلوب وأحاسيس حتى يتصرفوا فى مقدراتنا على هذا النحو، وعلى ما يحلو لهم؟ هم لا يحترمونا ولا يحترمون أراغنا ومشاعرنا، أليس كذلك؟ فليكن.. فليدعونا إذن نحى كالحوانات، ونستمع بملذات الحيوان، تاركين لهم السياسة بأسرها.. وملعون ديز من أكثرث بعد اليوم بما يصنعون.

«كان هذا الإحساس بطبيعة الحال مؤقتاً لم يتجاوز انقضاء تلك الليلة. غير أنى لم أنس تلك الليلة من حياتى قط، ولا ما دار فى «هنى وقلبي خلالهما من أفكار ومشاعر».

* * *

وهى نفس الأفكار والمشاعر التى تتهدد مثقفينا الآن إذ تتضاعل فى نفوسهم الثقة، مع كل يوم يمر، فى قدرة الشعوب على اختيار مصائرهم وتكييفها.. وقد أضحي الخيار أمامهم بين واحد من ثلاثة:

بهيمية كيهيمية صاحبى مع صديقته بولين..

أو الأخذ بنصيحة فولتير فى ختام روايته «كانديد» فيحصر كل منا اهتمامه فى تعهد حديقته الخاصة..

أو القيام بجهد جماعى انتحارى كجهد المكابيين الذين اختاروا فى القرنين الثانى والأول قبل الميلاد أن يقاوموا حتى الموت التهديد الحضارى الهيلينى لتراث اليهود وتقاليدهم..
قد كان جهدهم - كما ذكرت - جهداً انتحارياً لم يحقق طائلاً.. غير أنه جهد لا يزال التاريخ يذكره فى إجلال.

انطباعات عائد إلى أرض الوطن

أعود إلى مصر بعد غيبة سنوات، فإذا بى أكاد أنكر كل ما حولى ومن حولى...

(١)

سَرَّحَ الطُّرْفَ أينما شئت: زحام وحشود.

المدن مكتظة بسكانها، والمنازل مكتظة بقاطنيها، والفنادق مكتظة بنزلائها، والمقاهى والنوادرى مكتظة بزوَّادها، والقطارات وسائر وسائل المواصلات مكتظة بالركاب، والمستشفيات وعيادات الأطباء مكتظة بالمرضى، والبقاع الاثرية مكتظة بالسياح، والمتاجر مكتظة بالزبائن، ودور السينما والمسارح مكتظة بالجمهور، والشوارع مكتظة بالمارة، والشواطىء مكتظة بالمصطافين... ومشكلة الإنسان منّا هى فى أن يجد لنفسه فى هذا الزمان ووسط هذا الزحام مكاناً.. مكاناً فى الشمس، هو فيه إنسان لا رقم.. فرد متميز، لا فرد من قطع.

ما كان الأمر هكذا فى الماضى، ولا أحسب تزايد عدد السكان سبباً رئيسياً فى هذه الظاهرة.. فالأفراد الذين بوسعهم التجمع فى حشود، كانوا دوماً بيننا، ولكن دون احتشاد. كانوا منتثرين، أو متفرقين فى جماعات صغيرة، هم دائماً فى خلفية الصورة.. أما اليوم فقد اجتمعوا واحتشدوا، وتقدّموا إلى دائرة الضوء على خشبة المسرح.. على خشبة المسرح فى دور رئيسى.

ولا الأمر بالخالى تماماً من الجوانب الإيجابية. إذ من ذا الذى لا يسره أن يرى العامة تخرج لأول مرة فى تاريخها إلى الشواطىء تستمتع بالبحر والشمس والهواء الطلق، وإلى دور السينما والمسارح للترفيه والتسلية، وإلى النوادرى للترىض، وأن يراها وقد عرفت الطريق إلى

عيادات الأطباء والمستشفيات، واتسعت مداركها بالتنقل والسفر، وقررت أن من حقها أن تعرف المتع التي كانت قاصرة فيما مضى على فئة محددة؟ نعم! غير أن المشكلة هي في أن جلّ ما ذكرناه من الأماكن التي باتت تغصّ بالجماهير لم يؤخذ في الاعتبار وقت إنشائها أو تدشينها أن تستخدمها كل هذه الجموع، أو هذه النوعية من الجموع. فإذا بأبعادها - مهما توسّعت - محدودة، ومساحاتها - مهما زيد فيها - ضيقة، ووحداتها أو مقاعدها أو مرافقها - مهما كثرت - غير كافية لاحتواء حشود تتزايد يوم بعد يوم. كذلك فقد كان لابدّ هنا لقانون جريشام من أن ينطبق فتطرد العملة الرديئة العملة الجيدة من السوق، خاصة وقد باتت إدارات هذه الأماكن، أو القائمون عليها، أكثر احتقلاً بإرضاء العامة ومراعاة أنواقها - مهما كانت هابطة - منها بخدمة أنواق الصفاة ومتطلّباتها.. فإذا الصفاة تتراجع وتنسحب تدريجياً، مُخْلِيةً مواقعها للعامة الزاحفة كثرتها على كل موقع.

(٢)

قد انتقل المال والثراء في السنوات الأخيرة إلى حثالة القوم. من أولئك الذين كانوا يرعون النهضة الثقافية والحضارية إلى من تمكنوا بفضل ثرائهم الجديد من فرض أنواقهم في كل مجال، وفرض مفهومهم عن الفن والثقافة (وهو مجرد الترفيه) على مجتمعنا بأكمله، بما في ذلك المشتغلين بالآداب والفنون ممن باتوا يراعون إرضاء هذه الطبقة الجديدة ذات القدرة المالية. وهو ما يجعل من السهل أن نفهم كيف انتقلنا من عصر التنوير، عصر طه حسين وسيد درويش ومحمود مختار، إلى عصر أحمد عدوية وسحر حمدي، وكيف بات المثقفون محاصرين من كل جانب، يرون حصناً بعد حصن في بقعتهم الضيقة يسقط في يد السوق، وفرداً بعد فرد من ثلثهم يسقط صريع القنوط أو الإغراء.

مرّ بنا زمان كان يقال فيه: «إن أنت لم تفهم كلمة صينية فليس معنى هذا أنها لا تعبر عن معنى». وكان الجمهور إذا وجد صعوبة في شيء، في فهم عمل فني أو غيره، قال إنه صعب ومضى. أما اليوم فلا شيء صعب! هو إما سوقى أو هراء. إما سهل أو دجل. إما عامى أو جريمة.. قد جئنا هنا نتسلّى والويل لمن لا يخلق لنا التسلية.

كان جمهورنا قبل سنوات يتجنب الأعمال الفنية التي قصد بها المثقفون. فإن قاداته

قدماه إليها خطأً أو على سبيل التجربة، خرج منها فى صمت وتواضع، عارفاً قدر نفسه، معترفاً راضياً مبتسماً بأنه لم يفهم لجهله بهذه الأمر.. غير أن الوضع الآن قد تغير. فانتهاج سياسة تملق الجماهير ساهم فى تضخيم إحساس هذه الجماهير بنفسها، وتقديرها لذاتها، وشعورها بأن كل ما يتم وينتج - حتى الإنتاج الفنى - ينبغي أن يكون له وفى مستواه. فإن أقلت من هذا الحصار عمل ممتاز، شعر الجمهور بالتحدى الذى يواجهه، والخطر الذى يرى أنه يهدد حقوقه، والمهانة إذ يجد هذا العمل الممتاز يصرخ فى وجه متوسط الذكاء أنه متوسط الذكاء. وهنا تثور ثائرتة: كيف حدث هذا؟ مسرحية ليست له؟ فيلم لم يفهمه؟ موسيقى لم تطربه؟ كيف؟ فى هذا العصر؟ إسألوا الإدارة! حاكموا المسئول! اسئلكوا المؤلف! سلخوا المخرج! إلينا! المسرح والسينما والإذاعة والتلفزيون والصحافة لنا لا لمن يسمون بالصفوة.. كل شيء لنا لا لمن يسمون بالثقفين. كذا قيل لنا، وكذا سيكون الأمر.

(٣)

استترق السمع إلى من شئت وستجد حديثه عن المال.

حديث الكافة وشغلهم الشاغل قد انحصرا فى وسائل الكسب، الكادحون يلهثون وراء القرش، ومن توقّر له القرش أراد قرشين.. وقد انمحت الفوارق فى هذا الشأن بين الطبقات: فكما يجلس الآن ربّ الدار وخادمه يتابعان معاً مسلسلاً تلفزيونياً غثاً واحداً، استغرقت فكر الأغنياء والفقراء على سواء سبل تحصيل المال، فالجميع فقراء بالمعنى اللغوى لكلمة الفقر؛ وهو الحاجة. والجميع مرهق يلهث، ساخط يتأفف.

قد كان ثمة فى مجتمع صباى وشبابى تجار. غير أن الناس كانوا وقتها فريقين: تجاراً وغير تجار. وقد أضحت الكافة الآن - وبدون استثناء تقريباً - تجاراً، لا فارق بين بائع الشاورمة على قارعة الطريق وبين أستاذ الجامعة أو المدرس أو الصحافى أو الدبلوماسى أو الطبيب أو من شئت.. الكل قد بات القرش إلهه، والثراء غايته. وربما كان بائع الشاورمة أعفهم يداً وأقلهم طمعاً. وقد بلغ انزعاجى منتهاه حين جلستُ إلى طائفة من المثقفين الأثرياء، متوقفاً أن أسمع نغمة مختلفة من الحديث، فإذا كلامهم لا يخرج عن الشكوى من التضخم وارتفاع الأسعار، أو عن مناقشة مشروعات لديهم كفيّلة بأن تحقق الثراء السريع: منحل، مفرخة، سوپر ماركت، ملهى ليلى، متجر أزياء، أو ما شئت.

فإن نحن نظرنا إلى من اعتزل دنيانا وتدرّوش، فإنما ننظر إلى الوجه الآخر من نفس العملة: أناس عجزوا عن المدافعة والمزاحمة، وكانوا أضعف من أن يطلّوا غيرهم تحت أقدامهم، فاختاروا إدانة المجتمع بأسره على أساس من الدين، حتى لا يفقدوا احترامهم لأنفسهم.

فكيف يمكن في مثل هذا المناخ أن تنتعش حياة ثقافية، أو يكون هناك فكر أو فن، اللهم إلا أن كان فكراً تجارياً، وفناً تجارياً؟ فإن كان الأساتذة الجامعيون قد أضحوا يتاجرون بالعلم، وملائكة الرحمة بالرحمة، فما يحول بين الأديب أو الصحافي أو الفنان وبين أن يبيع قلمه أو فنه لمن بيده سلطة إغداق الأموال أو التعيين في المناصب؟

(٤)

لا بأس من فقدان الإيمان بالأيديولوجيات. فهذه سمة من سمات عصرنا في كل مكان. غير أن فقدان الثقة في كل القيم والمثل العليا، في الأخلاقيات، في إمكانية الإصلاح وجدوى محاولته، في كل ما من شأنه أن يجعل من الشباب شباباً، فأمر محزن حقاً. كئيب حقاً... وشباب اليوم إلى حدّ كبير معزور.. قد جرّبت أنظمة الحكم المتتالية فيه مختلف الحلول والمذاهب كما يجرب العلماء في خنازير غينيا والأرانب في معاملهم. جرّبت الليبرالية والحكم العسكري، والديموقراطية والفاشية، وتعدّد الأحزاب ونظام الحزب الواحد، والرأسمالية والاشتراكية والانفتاح الاقتصادي، والسير في ركاب الغرب والسير في ركاب الشرق، والقومية المصرية والوحدة العربية والانتماء الإفريقي. وناديننا بكافة الشعارات. وتلوّنت أجهزة إعلامنا بألف لون، وقلب الكتّاب والصحافيون معاطفهم ألف مرة، ورقّعوها بألف رقعة. وتغنينا بمدح الحكام ثم بهجائهم. وأقمنا لهم التماثيل ثم حطّمناها بعد وفاتهم. وسمينا الشوارع والميادين بأسمائهم ثم غيرناها. وحاربنا إسرائيل ثم صالحنها. وأبرمنا معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفييتي ثم مرّقناها. وقارمنا النفوذ الأمريكي ثم استسلمنا له. وهللنا للقذافي ثم لعناه ثم صافيناه. ودخلنا مع العراق في مجلس تعاون عربي ثم هاجمناه...

فما الذي بقي لنا مما لم نجربه بعد؟ ما الذي تبنيناه ولم ينجم عنه حين طبّقناه سوى شيوع الفساد والدمار الاقتصادي، وانهيار القيم والأخلاق، وقمع الديمقراطية والحريات، وتفاقم المشكلات الاجتماعية؟

وحكامنا؟ الحاكم الذى وعدنا بالنصر الاكيد القريب توفى على أثر نوبة قلبية قبل أن يتحقق النصر. ومعلش وحقك على. والحاكم الذى وعدنا بالرخاء العظيم والخير العميم سنة كذا، حدث للأسف الشديد أن اغتيل قبل حلول تلك السنة. ومعلش وحقك على. وبقي الشعب بعد هذا أو ذاك على قيد الحياة، يتسأل مشدوها حائراً وقد ففر قاه: كيف جاز لهذا أن تفاجئه نوبة قلبية؟ بأى حق يموت ذاك قبل عام الرخاء؟ ومن عسانا نحاسبه الآن على الوعد التى كانت تكال لنا كيلاً؟ الحاكم الجديد؟ إنه لم يدل بتلك الوعد، ولا هو بالذى تربطه بأسلافه صلة قرابة. بالعكس. لقد جاء ليعترف لشعبه بأن الوضع الاقتصادى مؤلم حقاً. قد تكون سياسة سلفه هى السبب، ولكن، من يجيء لنا الآن بسلفه؟

ومجتمعنا؟ عشرون عاماً من الانفتاح الداعر على الغرب. وتهديد للقيم الإسلامية، وللتقاليد المصرية، ولكل خيط ولو رفيع فى نسيج الأمة. وانفتاح اقتصادى كان معظم من أفاد منه ممن لا خلاق له ولا مبدأ. وتضخم ضاعت معه طبقة الموظفين والبورجوازية الصغيرة. وسلع فى متناول القلة، ودون تملك غيرها لها أهوال وفساد فى الخلق وبيع أعراض. وشهادات دراسية صرنا نرى الآباء ينصحون أبناءهم بالغش من أجل الحصول عليها. وشرفاء يعيرونهم الناس، بل وأبناؤهم وأزواجهم، إذ كان شرفهم عائقاً لدون تكوينهم الثروات. وعمارات سكنية تبنى من تراب. ومواد غذائية تُستورد فاسدة. ومهنيون بسطاء يكسبون أضعاف أضعاف ما يأتى أفراد الطبقة البورجوازية والمتقنين من دخل، حتى داخل أصحاب العلم وذوى الثقافة الرفيعة الشك فى قيمة ما حصلوه. وتجار مخدرات لهم الهيمنة والنفوذ والسلطة، تقف سياراتهم ومستخدموهم قرب النوادى والمدارس لبيع سمومهم للشباب والطلبة.

قد فقد شبابنا الثقة. ثقته بنا وبأنظمتنا وقيمنا وأخلاقيتنا، وراح وملؤه المرارة والغضب، والشك والسخرية، يشق لنفسه طرقاً أخرى: الهجرة، فتح المطاعم لبيع البيتزا أو الهمبرجر، الحصول على توكيل استيراد سلعة، الخدمة فى فنادق الشيراتون والهيلتون، الاتجار فى العملات الصعبة، بيع العرض، أو البحث عن السلوى فى المخدرات.. شباب خيرهم مجتمعهم صراحة بين الانحراف والاندثار.

(٥)

أثرية تغشى كل شىء: الشوارع، والأشجار، والمنازل، والبشر، والعقول والأفئدة. وأكوام القمامة فى كل مكان. والهواء فى أى بقعة قصدت تمتزج به رائحة البول وعادم السيارات.

وسحابات التلوث قد أنستنا كيف كانت زرقاء السماء... وتتفرّس في وجوه المارة حولك فإذا هي وجوه تنطق باليأس، أو القلق، أو الحيرة، أو بالكراهية، أو بمجرد الإحساس بالقهر.. ويدعشك ويفزعك من أن لآخر أن تلمح بينهم أطفالاً.. ماذا؟ أطفال في زمننا هذا؟ في مجتمعنا هذا؟ من ذا الذي فكر في إنجابهم؟ أو بالأحرى، من ذا الذي لم يفكر عند إنجابهم؟ من ذا الذي لا تزال لديه رغبة في إنجاب الأطفال في الوقت الذي بات الناس فيه لا تقلقهم فكرة الموت المبكر، بل وقد يرتاحون إليها ويطمئنون باعتبارها الملاذ الأوحى مما يعانون.

(٦)

في مسرحية «الأشباح» لإيسن، يقول أوزوالد لأمه بعد عودته من باريس:
- تسألينني عن بهجة الحياة يا أماء؟ ذلك أمر لا تعرفون عنه الكثير في هذه البقعة من العالم، ولا خبرته هنا قط، ولا بهجة العمل التي هي الوجه الآخر لنفس العملة.. لقد نشأ الناس هنا على فكرة أن العمل لعنة وعقوبة على خطيئة، وأن الحياة شرّ نتمنى لو انتهى اليوم قبل الغد.. أما في البلاد التي قدمت منها فلا مكان لمثل هذه الأفكار، وما عاد أحد يصدقها.. هناك تشعرين بالسعادة والنشوة لجرد استنشاق الهواء.. ألم تلاحظي يا أماء كيف أن كل اللوحات التي رسمتها هناك كانت تصوّر الفرح بالحياة؟ دائماً، دائماً الفرح بالحياة؟ النور.. ضوء الشمس.. الهواء المنعش.. والوجوه التي تنضج بالسعادة.. لهذا فإنني أخشى البقاء هنا في هذا البلد. أخشى البقاء هنا حتى لا يغلف القبح كل غرائزي ومشاعري.... قد أحيى هنا نفس النمط من الحياة الذي أحياء هناك، غير أنها لن تكون نفس الحياة.

(٧)

بيد أن أفزع ما لمستته خلال أيام قليلة تلت عودتي، هو غياب القانون عن ساحة الحياة مصر. لم يعد ثمة من يعبأ به أو يقيم له وزناً وحساباً.. فإن كان باكونين وكروبوتكين ستوى وغيرهم قد كتبوا في تفضيل الأناركية على الحكومة والقوانين، فإنني لا أشك في أن ظرة واحدة منهم إلى حال مصر اليوم - وقد تحقق فيها حلمهم - كفيلا بأن تبدد وهمهم...

ما من شيء يتحقق الآن إلا بقوة الذراع، أو قوة الجني، إما بما يسمونه الفهولة، أو بالرشوة، أو بالعنف الجسدى. أما اللجوء إلى المحاكم أو إلى أقسام الشرطة ورجال الأمن، فخير لك أن تنساه. وقد يكفى أن تنظر إلى وجه الشرطى اليأس المتعب فى الطريق العام لتدرك أنه، وهو المكلف بالحراسة، ما عاد يعبأ بحماية أنظمة أو قوانين لن يؤدى أى قدر من العبث بها إلى تدهور نوعية حياته أو تهديد رغد عيشه. وقد يكفى أن تلجأ فى نزاع إلى محكمة، أو بالشكوى إلى قسم من أقسام البوليس، حتى تقتنع بأن الزمن قد يأتى قريباً حين يضطر الناس، كما فى العصور الوسطى، إلى السير فى الشوارع حاملين الخناجر أو السياف لاستخدامها فى حماية أنفسهم، وفرض نزاعاتهم وحل قضاياهم. وقد يكفى أن تنظر إلى ما بلغته فوضى المرور فى مصر لتفهم ما أعنى، وترى إلى أى حد من التحلل قد بلغته الأخلاق وبلغه النوق العام فى مصر.

أجلس للعشاء فى نادى السيارات مع ثلاثة من الأصدقاء الحميمين القدامى.. ثلاثتهم أساتذة جامعيون. واثنان منهم عرفتهما فى الأيام الخوالى لا يكفان طوال جلساتنا عن المزاح والتندر والضحك.. أما اليوم فقد كانت هيتتنا جميعاً هيئة من يساق إلى الذبح، وكان حديثنا من أول اللقاء إلى نهايته سلسلة متصلة من الشكوى والتبرم بالأوضاع.. هذا يكلمنا عن الشقة المقابلة لشقته، وكيف حولها صاحبها إلى ماخور للدعارة تتردد عليه الموسسات وأثرياء العرب، دون أدنى اعتبار لمشاعر سكان العمارة وبناتهم، أو أدنى خوف من رجال الشرطة. ويسهب الثانى فى سرده أنباء جارتة - وهى سيدة محترمة المظهر، واسعة الثراء، وكيف جندت وتجنّدت فتيات جميلات دون العشرين، يخرجن فى الصباح الباكر من منازلهن بكتبهن لإيهام الآباء بأنهن فى طريقهن إلى الجامعة، ثم تصحبهن السيدة إلى المطار لتنقلهن طائرات الأمراء العرب إلى ممالكهم وإماراتهم، ثم يُعدنهم - أو يُعدن ما بقى منهن - إلى القاهرة فى ختام اليوم «الدراسى»، وكيف ألقى القبض فى يوم ما على هذه السيدة، ثم أفرج عنها بعد ساعات قلائل لسبب غير معلوم.

أما الثالث فكان حديثه عما يعانى من مكبر الصوت فى المسجد المواجه لمنزله؛ ما تعانى منه دراساته وبحوثه، ويعانى سمعه وأعصابه، ويعانى أولاده الصغار، وما أدّت إليه إذاعته للأذان وخطبة الجمعة والدروس الدينية والتواشيح وحملات جمع التبرعات من كفر هؤلاء الصغار بالدين بأسره، وكيف خاب مسعاه وباعته جهوده بالقفل حين حاول اللجوء إلى القائمين على أمر المسجد، أو قسم الشرطة، أو المحافظ أو وزارة الداخلية، من أجل تطبيق اللوائح الخاصة بمكافحة الضوضاء.

وأ تأمل الأصدقاء البائسين الثلاثة فتقفز إلى ذهنى قصة كانت جدّتى ترويها لنا فى طفولتنا، عن الحمار الأعرج البائس الذى استغنى عنه صاحبه حين كسرت ساقه، والكلب العجوز البائس الذى طرده سيده حين تقدمت به السن، والقطة النحيلة البائسة التى هربت من سوء معاملة أهل الدار لها، والديك السمين البائس الذى سمع صاحبه يقول لزوجّه إنه ينوى ذبحه لوليمة يقيمها فى اليوم التالى لأصدقائه.. ويجمع البؤس بين هؤلاء الأربعة ويؤلف بينهم، فيخرجون ينشدون مكاناً يقيمون سوياً فيه. حتى إذا ما عثروا على دار مهجورة فى الصحراء خارج المدينة، وهموا بالدخول إليها، لمحو من النافذة عصابة من الأشرار فى إحدى الحجرات يقتسمون أموالاً وحلياً فيما بينهم. فاعتلى الديك ظهر القطة، والقطة ظهر الكلب، والكلب ظهر الحمار، وشرعوا عند النافذة يصرخون فى وقت واحد: نهيق ونباح، ومواء وصياح، فإذا الهلع يصيب أفراد العصابة وقد ظنوا أمرهم قد افترض، ويلوّنون بالفرار تاركين الدار بما فيها من حلى وأموال.

وأودّع أصدقائى مفكراً:

- فإن كنت وأصحابى ذلك الحمار والكلب والقطة والديك، فمن عساها تكون تلك العصابة من الأشرار؟

* * *

وأ تأمل على طول الطريق أثناء عودتى إلى البيت، إلى يمينى ويسارى، ملصقات مرشحي الحزب الوطنى الحاكم لانتخابات مجلس الشعب. كل مرشح منهم يعدنا باستمرار النعيم الذى نحى فيه منذ سنوات طويلة طويلة، لعدّة سنوات أخرى.

مجتمع الشحاذين

(١)

لم أكن قد قابلت صديقى فخرى لوقا منذ تعيينه سفيراً فى الفيليبين وتعيينى سفيراً فى الجزائر فافترقت بنا الطرق.. وحين التقينا ظهر اليوم مصادفة فى مطعم نادى وزارة الخارجية، وفرغنا من التصافح الحار والتعبير عن عميق الأشواق، ظل كل منا برهة يتفحص وجه الآخر فى صمت ليرى ما صنع به الدهر، وفعلت به الإقامة الطويلة خارج مصر.. ثم سألته عن زوجته الثانية التى اقترن بها قبيل رحيله إلى الفيليبين، فأخبرنى أنه رُزق منها منذ ستة أشهر بمولود ذكر، وأن الله وفّقهم بعد عودتهم من مانيلاً بأسبوع واحد إلى العثور له على مربية مصرية ممتازة، هى أعظم كفاءة من أية مربية من المربيات الفيليبينيات اللواتى يتشددّ مستخدموهن من المصريين بأمانتهن وإخلاصهن فى العمل:

- أدفع لها مرتباً معقولاً.. ثلاثمائة جنيه فى الشهر.. غير أنها تساوئ وزنها ذهباً.. يكفى أن تلاحظ مدى سعادتها بالطفل، وسعادة الطفل بها، وتعلّق كل منهما بالآخر.. وهى تؤمن بأهمية الهواء الطلق لصحته، فتخرج به بعد الغذاء كل يوم ساعتين أو ثلاثاً إلى حديقة عامة قرب منزلنا بمصر الجديدة، مما يتيح لى ولزوجتى فرصة الراحة أو الحديث بعض الوقت عقب الغذاء دون انشغال بالطفل... ولكن، ما أخبارك أنت؟ متى عدت من الجزائر؟ وهل لمست ما لمستُه أنا من تغيير رهيب فى نوعية الحياة فى مصر؟.. تعال ننتقل إلى الصالون لنشرب قهوتنا فيه.

وانتقلنا إلى الصالون نواصل الحديث.

(٢)

- قد مضى إذن على عودتك من الجزائر نحو عام. وهى فترة كافية لتقييم الوضع الجديد فى مصر.. فهل يمكنك إعطائى فكرة مختصرة عن النتائج التى توصلت إليها؟

قلت:

- فى اعتقادى أنه حين كانت حكومتنا فى طور مقاومة صندوق النقد الدولى وشروطه، لم تأخذ فى اعتبارها غير احتمال أن ينجم عن إلغاء الدعم ورفع الأسعار وارتفاع نسبة التضخم، اضطرابات شعبية واسعة النطاق، قد يستغلها الأصوليون المتطرفون فى محاولة للاستيلاء على مقاليد الحكم... غير أن الحكومة رضخت فى نهاية المطاف لضغوط الصندوق، ولتهديده بالامتناع عن تقديم المزيد من القروض.. فكان أن ارتفعت الأسعار بصورة جنونية، خاصة بعد فرض ضريبة المبيعات، فى حين عززت أجهزة الأمن من قدراتها على مواجهة أى شغب قد يحدثه هذا الشعب المطحون البائس، العاجز حتى من قبل الرضوخ لمطالب الصندوق، وقبل فرض ضريبة المبيعات، عن مواجهة أعباء الحياة وتكاليفها.

- هذا حق.

- وقد نجحت السلطات نجاحاً باهراً فى الإيحاء إلى الشعب بأن أى احتجاج وأى مظهر من مظاهر المقاومة مقضىٌ عليهما بالفشل إزاء قوة الجيش والشرطة والمباحث.. فإن كنا قد شهدنا فى زمن ما، (وهو زمن غير بعيد إلا إن نظرنا إليه على ضوء ما طرأ على طبيعتنا من تغير رهيب محزن)، احتجاجات دموية نتيجة رفع سعر الأرز أو السكر بمبلغ نصف قرش، (وهى احتجاجات سرعان ما دفعت الحكومة وقتئذٍ إلى إلغاء الزيادة، والاعتذار للشعب، وإلقاء المسؤولية على هذه الوزارة أو تلك)، فقد صرنا إلى زمن تتضاعف فيه أسعار السلع شهراً بعد شهر، دون أن يحرك الناس ساكناً، ودون أن تبدر منهم بادرة غضب جماعى.

- فى اعتقادك إذن أن إجراءات إلغاء الدعم ورفع الأسعار قد مرت بسلام؟

- لا يا سيدى.. غياب المقاومة والاحتجاج لا يعنى أن تلك الإجراءات مرت بسلام.. كل ما هناك هو أن ردّ الفعل إزاء هذه الكارثة جاء فى صورة مخالفة تماماً لكل ما كانت السلطات تتوقعه وتخشاها، وتعمل حساباً له بتعزيزها لقدرات أجهزة الأمن.. وفى ظنى أن الحكومة لو كانت قد خمنت قبل إذعانها لشروط الصندوق طبيعة ردّ الفعل الشعبى الذى حدث بالفعل، لدفعها هذا الإدراك إلى مزيد من التفكير، ومزيد من التردد، وإلى الشك فى حكمة الرضوخ لذلك الجهاز الأجنبى الذى لا يعنيه فى شىء صلاح أمر المصريين أو فسادهم، كما أنه فى اعتقادى أن ردّ الفعل الناجم عن هذا الغلاء الفاحش الذى بات الناس يحيون فى ظله، هو أسوأ عاقبة وأشدّ وبالاً على أمتنا، فى المدى القريب والمدى البعيد، من أية اضطرابات أو احتجاجات أو أعمال عنف...

- ماذا تعنى؟

- أعنى أن مجتمعنا المصرى قد تحولَ فى الفترة القصيرة الماضية إلى مجتمع شحّانين.

- لا فضّ الله فاك. وهذا بالضبط ما لاحظته ولما يمض على عودتى من الفيليبين غير شهر واحد.. ولكنى أريد الاستماع إلى أمثلة وتفاصيل.

(٣)

وضع الجارسون أمامنا فنجانين من القهوة ثم انصرف.

- الأمثلة تتكرّر كل خمس دقائق أو عشر، سواء خرجت إلى الطريق أو مكثت فى دارك... ساعى البريد لا يأتى إليك بخطاب ما لم تعطه فى كل مرة مبلغاً يفرّيه بالعودة إليك.. موظف شركة الغاز كلما حضر لقراءة العدّاد ادّعى أن له فضلاً عليك إذ نقل حسابك من شريحة إلى شريحة، منتظراً منك البقشيش مقابل تخفيضه للمبلغ المستحق عليك عن استهلاك الغاز... محصل فواتير الكهرباء يعرض عليك سرّاً مقابل مكافأة له أن يدسّ فى العدّاد سلكاً يقلّل من سرعة دورانه إلى النصف.. موظف قسم المخالفات بإدارة المرور يعرض إخفاء مخالفات سيارتك البالغ قدرها أكثر من مائة جنيه مقابل عشرة جنيهات لا غير يأخذها لنفسه:

بخمسين قرش يعفيك المفتش	من الغرامات، ويشطب لك قضيه
بخمسين قرش تتبدّل محاضر	بتهمة عليك وتتحوّل علىّ
بخمسين قرش شيخ حارتك يخلّى	ولادك يهربوا م العسكرية
بخمسين قرش ترفع ميكروفونك	لوش الفجر، وزيادة شوية
بخمسين قرش أكتب لك شهادة	بموت خالتك وخالتك لسة حية
بخمسين قرش أكتب لك مقالة	بأنك من رجال العبقرية

أما عن رجال الشرطة والمرور - رموز هيبة الدولة ونظامها وقوانينها - فحدث ولا حرج.. تقف بالسيارة عند إشارة مرور فإذا بشرطى المرور يضرب لك تعظيم سلام لمجرد أنك صاحب سيارة، متوقعاً منك الصدقة دون مناسبة.. ولقد رأيت بعينى رأسى بعض أصحاب السيارات يناول الشرطى رغيف خبز أو كعكة، فيقبّل الصدقة منه فى امتنان شديد، وبالدعاء

له... تستعدّ للنزول من السيارة بعد ركنها أمام النادى فيهرع إليك شرطى يقف للحراسة أمام بنك أو مؤسسة ليمسك باكراً باب السيارة حتى تنزل، ومؤيداً لك التحية العسكرية، على أمل أن تنفحه عشرة قروش... تدخل من باب النادى فإذا بالحارس يدعوك بسعادة الباشا، ويسألك كالمشتاق الولهان عن سرّ غيابك عن النادى مدة أسبوع، على أمل البقشيش عند خروجك.. بل إنك لتمرّ على قدميك فى النفق تحت ميدان التحرير فيحييك الشرطى فى إجلال وتوقير لمجرد أنك أنيق الهدام.. تقف بالسيارة عند مكتب بريد لتسجيل خطاب فإذا المنادى وقد ظهر فجأة وكأنما انشقت عنه الأرض يأتيك عدوّاً وهو يلهث ملوحاً بفوطته الصفراء ليخطر أنه سيحول أثناء غيابك بين تلاميذ المدرسة المجاورة عند خروجهم منها وبين إلحاق الأذى بالسيارة.. تقصد دار السينما فإذا الجالسة عند شبك التذاكر إما أن تدعى أنه ليس لديها فكّة فتستولى لنفسها على الباقي، أو أن تمتنع بكل بساطة عن ردّه دون تفسير... تناول البائع فى مكانه ورقة من فئة عشرين جنيتهاً فيناوك باقى عشرة جنيهات مقسماً بالطلاق أنك إنما أعطيته عشرة لا عشرين.. تشتترى من بستانى بعض نباتات الزينة، فإذا هو يدقّ باب دارك فى ساعة مبكرة من صباح كل يوم جمعة بحجة الرغبة فى الاطمئنان على الزرع، والسؤال عما إذا كان «سعادة الباشا» فى حاجة إلى خدمة أخرى.. فإن أجبتة بالنفى ظل واقفاً عند الباب لا يحيد يدعو لك بالسعادة وطول العمر.. تدخل باب الوزارة فيحمد بوابها الله على سلامتك دون أن يبيّن طبيعة الخطر الذى نجوت منه... تزود متحفاً تحوى صالاته من الذخائر والطلّى ما لا يقدر بثمن، فيتعمّد حارس الصالة الخروج منها تاركاً إياك وحدك فيها ليبيّن ثقته فيك، مقابل بقشيش عند خروجك..

والمصرى لو حبّ يتدفأ على استعداد

يخلّى متحف بحاله كوم حطب ورماد

وأن حبّ يقعد مفيش مانع يهدّ بيوت

علشان ياخذ له حجر يقعد عليه مبسوط

أتذكر إجابة برنارد شو أثناء زيارته لمصر فى العشرينيات على سؤال لأحد المصريين:

متى تتوقع أن تصبح مصر دولة متمدنة؟

أجابة شو بقوله:

- حين تتعلمون البصق فى مناديلكم.

إننى لا أزال أعتبر هذه الإجابة جوهر كل حديث عن مستقبل مصر.. وهى إجابة تخطر ببالي عشرات المرات فى كل يوم كلما صادفت المظاهر المفجعة المبكية للفردية والانانية اللتين أصبحتا من السمات المميزة للكثيرين من المصريين.. فإن كان عهد حسنى مبارك هو المسؤول عن تحويل شطر من أفراد الشعب المصرى إلى شحاذين، فقد كان عهد أنور السادات هوالمسئول عن تحويل شطر آخر إلى فاقدى ذمة.. من سبّك لا يصلح شيئاً فى حمام منزلك إلا خرب شيئاً آخر لتستدعيه من جديد، إلى ملاك لمحلات سوبر ماركت، أو شركات لتوظيف الأموال، أو مكاتب استيراد، إلى موظفين صغار فى الإدارات الحكومية، إلى مسئولين كبار فى الدولة.. لقد تسبّب العهدان فى تبيد الإحساس بالمواطنة، بضرورة مراعاة الصالح العام، بمشاعر الجيرة الطيبة، وفى خلق روح من اللامبالاة بكل شئ عدا الصالح الشخصى الضيق.. فكيف يرجى إزاء كل هذا إصلاح أو تقدم؟

إننى لأسير الآن فى الطريق فأرى على جانبيه المئات من محلات السلع الاستهلاكية الجديدة، ومكاتب شركات الانفتاح والخدمات السياحية والمكاتب الاستشارية، بل ولافتات المشتغلين بالمهن الحرة، فأكاد ألمح الأيدي الخفية تمتدّ منها لتتنشل حافظة نقودى وتنهش جسدى نهشاً.. كل يريد مالك، كل يريد امتصاص دمك، كل يدعوى تقديم الخدمات لك!

قد تكون حالتى حالة مرضية تستدعى العرض على طبيب نفسى.. غير أن هذا هو الوضع.. قد بتّ الآن أتردد طويلاً قبل الخروج من منزلى خشية أن أقع فريسة للشحاذين أو فاقدى الذمة... بتّ أخشى قراءة الصحف والمجلات خشية أن يقع عقلى فريسة لكُتّاب وصحفيين متسولين يشحنون من هذا النظام أو ذاك نون أدنى اعتبار أو احترام لى.. بتّ أجد صعوبة فى أن أكتم حنقى كلما لمحت مصريات يعرضن أجسادهن فى ردهات الفنادق على السياح العرب، ويتسللن خفية أو يتوجّهن جهراً إلى شققهم المفروشة، طلباً لدنانيرهم وريالاتهم... بتّ أعجب كيف لم يتنبّه السادات حين تبنّى سياسة الانفتاح، أو مبارك حين قبل شروط صندوق النقد الدولى، إلى الآثار بعيدة المدى التى كان لابد أن تحدثها تلك السياسة وذلك الرضوخ فى المجتمع المصرى: فى بنيته، وفى صورته، وفى أفراد من أحفاد الفراعنة... وأخيراً، بتّ أعجب كيف يمكن أن يستشعر الحاكم الرضا والتنعّم بكرسى الحكم وهذا هو حال الرعية، وأكاد أهتف به:

فاحكم، فانت على الاموات سلطانُ

وهذا هو تقييىمى الذى سألتنى إياه للوضع الجديد فى مصر.. فخبّرنى بالله عليك: أىّ مستقبل ذلك الذى ينتظر طفلك الرضيع وأطفالى إن استمر الحال على ما هو عليه؟

(٤)

دفعنا فاتورة الغداء وتهيّأنا للانصراف.

سألنى فخرى لوقا:

— أين تسكن الآن؟

— قبالة مسجد السلطان حسين بشارع الثورة.

— معك سيارة؟

— لا

— أوصلك بسيارتى إذن، ومسكنى غير بعيد منك.

وانطلقنا بالسيارة صوب مصر الجديدة.. فما دلّفنا من شارع العروبة إلى شارع الثورة مارّين بجامع السلطان حسين، حتى فرمل صديقى سيارته فرملة قوية كادت رأسى ترتطم بسببها بالزجاج الأمامى.

والتفت إلى السفير فى دهشة فإذا به يهتف وقد اتّسعت حدقتا عينيه:

— ما هذا؟ ما هذا؟ ما هذا؟

ثم اندفع خارجاً من السيارة متجهاً إلى باب المسجد الذى كانت تخرج وقتها منه حشود المصلّين بعد صلاة العصر.

وراقبته من نافذة السيارة... اتجه صوب امرأة فى نحو الثلاثين فى ثياب مهلهلة تقف عند باب الجامع وهى تحمل إلى صدرها طفلاً رضيعاً قد دثّرت به بشال مهلهل كثيابها، مادّة يدها إلى الخارجين من المسجد طالبة الصدقة، وهى تكرر بصوت ذليل باك:

— حسنة لليّتم الغلبان يا محسنين.. لله يا مسلمين.. حسنة صغيرة تمنع بلاوى كثيرة..
عشاننا عليك يا ربّ.. يا بخت من...

غير أنها لم تكمل.. ذلك أن نظرها وقع على السفير فخرى لوقا فبدأ عليها الرعب

الشديد، وحاولت أن تتسلل من مكانها هاربة.. غير أنه سرعان ما لحق بها، وأمسكها من
شعرها يشدها منه في اتجاه السيارة وهو يلكمها ويكيل لها أقذع السباب:
- مع ابني يا بنت الكلب!!

رحلة المليون

(١)

لا أدري من أين جاءتني هذه الموهبة الخارقة في شؤون المال.. ربما أكون قد ورثتها عن والدتي رحمة الله عليها... كانت إذاً تجمع لديها مبلغ لا بأس به، قل ما بين ثلاثين جنيهاً وخمسين، من مصروف البيت الذي تأخذه من أبي، فكرت من فورها في شراء منزل، وصار أول ما تقرأه في الصحف الصباحية هي الإعلانات المبوبة في القسم الخاص بالعقارات المعروضة للبيع، لترى ما إذا كان به إعلان عن منزل مناسب، ثم في حدود المعقول.

ولازلت إلى اليوم أذكر يوم استرعى انتباهها في صحيفة «الأهرام» (إبان الحرب العالمية الثانية) إعلان عن بيع منزل من طابقين على النيل في حيّ الجيزة، له حديقة واسعة، ويملكه ثرى إنجليزي ينوي الرحيل نهائياً عن مصر.. كان الثمن المذكور في الإعلان ألفي جنيه وأربعمائة.. وقد بادرت والدتي بعد الإفطار مباشرة إلى العنوان المذكور لمعاينة البيت، وعادت تعبر عن مدى إعجابها وسعادتها به، وقد عقدت العزم على شرائه مهما كانت الظروف.

فتحت صوانها وأخرجت من تحت قمصان النوم مظروفاً أبيض مهلهلاً تعد ما به من جنيهاً وفقرتها من مصروف البيت، فإذا المبلغ ثلاثة وأربعون جنيهاً... فكرت لحظة ثم رفعت رأسها تسألني:

— مرزوق! (كنت وقتها في التاسعة من عمري)، كم معك من النقود في حصّالتك؟
جئت بالحصالة وفتحتها أعد ما بها من قروش، فإذا المبلغ ثلاثة جنيهاً إلا قليلاً..
قالت والدتي:

— أعطني إيّاها وسيكون الكشك الخشبيّ الجميل في حديقة المنزل ملكاً لك، تجلس فيه وتذاكر دروسك أو تقرأ طيلة النهار إن أحببت، ومن حقه أن تمنع غيرك إن شئت من

استخدامه إلا بإذنك.. ناولنى الجنيات... معى الآن ستة وأربعون جنيها، والباقى ألفان وثلاثمائة وأربعة وخمسون... بسيطة!

قامت بعد الفداء لتزور صديقتها الحميمة (وقريبتها فى نفس الوقت) عزيزة هانم برهان، زوجة السياسى البارز عبد الحميد برهان باشا، وأخبرتها بأمر البيت الذى شاهدته فى الصباح، والذى أعجبها لدرجة أنها كانت تنوى - لو كان بمقدورها توفير ثمنه - أن تسميه «فيلاً راحتى»، غير أن المبلغ معها، للأسف الشديد، (وهنا اغرورقت عينها بالدموع) لا يكفى لشرائه.. لم تخبر صديقتها بقيمة المبلغ الذى معها، فكان من الطبيعى أن تتصور عزيزة هانم أن الباقى على إكمال الثمن هو ما بين سبعمائة جنيه وألف.. قالت عن طيب خاطر:

- معى الآن ثمانمائة جنيه، أعيرك إيّاها وتردينها متى توقّرت لك، دون أدنى حاجة إلى استعجال.. ما رأيك؟

قامت والدتى وعانقتها وقبلتها، وأرادت أن تكتب إيصالاً باستلام المبلغ، غير أن عزيزة برهان أثبت ذلك:

- عيب يا نفيسة، عيب.. يكون بينى وبينك إيصالات؟!

- أقصد أنه فى حالة وفاتى فجأة - على سبيل المثال - يكون ثمة ما يثبت للورثة أننى....

- عيب يا نفيسة! هل تتصورين أن حزنى على فقد المبلغ فى تلك الحالة سيكون أعظم من حزنى على فقدك؟

قالت والدتى وهى تتسلم المبلغ منها:

- سأخصّص لك فى البيت حجرة هى لاستخدامك وحدك إن حدث (لا قدر الله) أن غاضبت زوجك.

ومن بيت عزيزة هانم توجهت والدتى إلى بيت خالى فى حيّ العباسية، فحصلت منه على أربعمائة جنيه قرضاً ميسراً الدفع، ثم أجرت مكالمة تليفونية مع ابنة عم لها تسكن فى طنطا، فوعدها بإرسال مائتى جنيه مع زوجها فى الصباح الباكر..

ولما عادت إلينا فى المساء، قالت لوالدى:

- معى الآن أكثر من نصف ثمن البيت.

- أى بيت؟

- أه! نسيت أن أخبرك.. هو بيت قرأت إعلاناً عن بيعه فى «الأهرام» هذا الصباح.. ألفان وأربعمائة جنيه. معى منها الآن نحو ألف وخمسمائة.. ما رأيك فيما لو أقرضتني تسعمائة جنيه وتصبح ملكية البيت مناصفة بينى وبينك، فتكون قد ربحت بخبطة واحدة ثلاثمائة جنيه، دون أدنى مجهود؟ هه؟ ما رأيك؟

وكان أن فكر والدى ساعة أو ساعتين ثم وافق.. وكان أن اشترت والدتى البيت فى صباح اليوم التالى.. وقد سجّله باسمها وحدها بعد أن أقنعت والدى بأن هذا هو السبيل الأفضل لاعتبارات خاصة بالضرائب..

(٢)

وتمرّ الأيام والسنين.. ويموت أبى ثم أمى، وتصير إلى ملكية ذلك المنزل الجميل المطلّ على النيل.. وأعترف للقارئ هنا بأننى لم أشغل ذهنى قط بما إذا كانت والدتى قد سدّدت ديونها التى عقدتها من أجل شرائه، خاصة أنه ما من أحد من دائئها طالبنى بعد وفاتها بسداد أى مبلغ. فكان من السهل أن أفترض أنها سدّدت كل ما عليها.

وفى أحد أيام شهر يناير الماضى دق جرس التليفون فى مكتبى. وكان المتحدث مستشار السفارة الكندية فى القاهرة يقول إنه قرأ الإعلان الذى نشرته فى «الأهرام» عن رغبتى فى بيع بيت أملكه على النيل فى الجيزة، ويعرض على ثلاثة ملايين من الجنيهات ثمناً له ليكون مقراً لسكن السفير الكندى.

ورغم أن قلبى خفق فرحاً، فقد تظاهرت مدة بالتردد وعدم الرضا بالمبلغ، وإن لم أستطع فى النهاية رفعه إلى أربعة ملايين.. كل ما أمكننى تحقيقه هو إقناعه بدفع مليون دولار أمريكى بدلاً من الملايين الثلاثة من الجنيهات المصرية.. واتفقنا على موعد لتسجيل عقد البيع ودفع الثمن، واشترطت على المستشار أن يكون الدفع نقداً لا بشيك.

قصدت مبنى الشهر العقارى مزوداً بحزام من قماش، ذى جيوب عديدة واسعة، فالخروج من الشهر العقارى بحقيبة يد كثيراً ما يغرى أولاد الحرام (خاصة ممن شهد فى المبنى عملية تسليم النقود) بتتبّعك واغتنام الفرصة لخطف الحقيبة منك.. فما أنهيها التسجيل

وتسلّمت المبلغ، حتى قصّدت أقرب دورة مياه فى المبنى، وأوصدت الباب من الداخل، وخلعت سترتى وقميصى أربط الحزام حول صدرى بعد أن دسست المليون دولار فى جيوبه. ثم عدت إلى ارتداء القميص والسترة فوقه، وخرجت من دورة المياه وقد تضاعف وزنى منذ دخولى..... أخيراً بعد أن كنت قد أشرفت على الإفلاس، أجد نفسى مالكاً للمليون دولار!

(٣)

لم أشأ أن أعود بالمبلغ إلى البيت. فقررت أن أودعه فى أقرب بنك من الشهر العقارى. دخلت البنك، فإذا هو غاص بالعملاء. ومكثت نحو ربع ساعة أقرب الوضع من بعيد لا أدرى كيف إتصرّف أمام كل هؤلاء الناس. وأخيراً لاحظنى أحد الحراس المنتثرين فى الردهة فارتاب فىّ، وتقدّم منى يسأل:
- أى خدمة يا أستاذ؟

قلت: أريد التحدث إلى موظف بالبنك.
قال: وما يمنعك؟ كل هؤلاء موظفون بالبنك (وأشار بيده إلى الموظفين الجالسين إلى الشبايك يقبضون ويصرفون ويعدّون النقود). تفضّل وقِفْ فى أىّ طابور من هذه الطوابير. وقفت على مضض فى أحد الطوابير، حتى جاء دورى وصرت وجها لوجه مع الموظف الذى انتظر أن أبدأه بالكلام.

- نعم !

- أريد أن أحادثك فى غرفة خاصة.

فغر الرجل فاه إذ يسمع ما قلت: هه؟

- أريد أن أحادثك فى غرفة خاصة.

قال ساخراً: ولم؟

التفت حولى بمنة ويسرة وإلى الخلف، ثم انحنيت وقربت رأسى قدر الإمكان من فتحه الشباك الزجاجى، وقلت له هامساً:

- لا أستطيع أن أخلع سترتى وقميصى أمام كل هؤلاء الناس.

تأملنى بعض الوقت وقد خامره الشك فى قواى العقلية، ثم قال:

- وأيه ضرورة تدفعك إلى خلع السترة والقميص؟

أشرتُ بإصبعى إلى قميصى علّه يفهم، فلم يفهم.. دقت بكفى على صدرى، فلم يفهم.. واضطرتت فى النهاية مع هذا الغبى إلى مزيد من الإيضاح:

- أريد أن أودع مبلغاً فى بنكنكم.. والمبلغ تحت هذا القميص.

أخيراً فهم!

- كم؟

مرة أخرى التفت يميناً ويسرة قبل أن أهمس:

- مليون دولار.

- نعم؟

- مليون دولار... إما فى غرفة خاصة وإلا مضيتُ بها إلى بنك آخر.

هَبَّ الرجل من فورده واقفاً، وتناول من تحت مقعده لوحة كتب عليها «هذا الشباك مغلق»، وأشار إلى أن أتبعه، بينما تفرّق الواقفون فى الطابور ورائى إلى شبابيك أخرى وهم يتأففون ويلعنون.

وتبعت الرجل، فإذا هو يقودنى إلى مكتب مدير البنك فى الطابق الأعلى.. دخلنا عليه، واقترب الموظف منه منحنيّاً على أذنه ليهمس شيئاً وهو ينظر تجاهى.

هَبَّ المدير بدوره واقفاً، واقترب منى وعلى وجهه ابتسامة عريضة ليصافحنى:

- أهلاً وسهلاً.. أهلاً وسهلاً.. الأستاذ...؟

- مرزوق عبد العاطى.

- أهلاً مرزوق بك.. تريد إذن أن تودع مليون دولار فى بنكننا.. هذا شرف كبير.. تريدها وديعة لمدة شهر، أم ثلاثة أشهر، أم سنة؟ غيرنا من البنوك يعطى فائدة لا تزيد على أربعة فى المائة على مثل هذا المبلغ الكبير عن الوديعة لمدة سنة.. غير أننا سنعطيك خمسة فى المائة إكراماً لك.. ليس هذا فحسب، بل وسيزوّدك البنك من حين لآخر بقائمة بمجالات استثمار المبلغ كله أو بعضه متى قررت استثماره فى مشروع تجارى أو صناعى.

ثم التفت إلى الموظف يقول:

- إغلق الباب بالفتاح حتى يخلع مرزوق بك سترته وقميصه.

قلت:

- لحظة من فضلك.. أريد أولاً أن أسألكم عن الكفيل.

لم يفهم ما أعنى.

- الكفيل؟

- نعم.. الكفيل.. الضامن.

- ماذا تعنى؟

- سيادة المدير، أنا لست غيباً كما قد تتصورنى، ولا أنا بالجاهل بطبيعة المعاملات المصرفية.. لقد قصدت منذ عام أحد البنوك لأقترض منه مبلغاً حتى أبدأ به مشروعاً معيناً، فلم يقبلوا إقراضى ما لم أقدم ضامناً أو كفيلاً يضمن سداد المبلغ فى حالة عجزى.. فمن هو الضامن لسداد هذا المبلغ الذى سأودعه الآن فى بنككم؟

أجاب الرجل:

- ولكن البنوك غير مضطرة إلى تقديم ضامين للمودعين عندها.. كل ما عليك هو أن تترك المبلغ معنا وينتهى الأمر.
ضحكتُ ساخراً وقلت:

- أترك المبلغ معكم وينتهى الأمر! ولكنى أريد أن أراه ثانية يا سيادة المدير!
فغر الرجلان فاهيهما فى دهشة، ثم قال الموظف:

- ولكنك يا سيدى تستطيع سحبه فى أى وقت شئت.. وسنعطيك إيصالاً مختوماً باستلام المبلغ منك.

قلت:

- وهذا هو ما عرضته على البنك الذى أردت منذ عام الاقتراض منه.. أخبرتهم أننى سأعطيه إيصالاً باستلام المبلغ منهم، غير أنهم رفضوا ما لم أقدم كفيلاً.
قال المدير مبتسماً:

- يا أستاذ مرزوق.. لقد جرت العادة على أن تطلب البنوك ضامناً لمن يريد الاقتراض منها. غير أنها ليست ملزمة بتقديم ضامن لمن يريد إيداع مبلغ فيها.

- ولم لا؟

- لم تجر العادة على ذلك.

- ولم لم تجر العادة على ذلك رغم أن الوضعين متماثلان؟

- لأن المودع غير معروف لدينا.

- وهل سيادتك معروف لدى؟ هذه أول مرة أقابلك فيها.

- ولكننا مؤسسة! سيادتك لا تتعامل معى بصفتى الشخصية، وإنما باعتبارى مديراً لمؤسسة.. مديراً لبنك.

- لا أرى فارقاً بين الوضعين.. البنوك ترفض إقراضى مبلغاً دون كفيل، وأنا أرفض أن أعطيكم المليون دولار دون كفيل.

- هل كان لديك حساب فى البنك الذى طلبت قرضاً منه؟

- لا. ولكن بنككم أيضاً ليس لديه حساب عندى.. ومن العدل أن ينطبق على البنك ما ينطبق على.. كيف يمكننى - بكل بساطة - أن أودع لديكم كل ما أملك فى هذه الدنيا، وهو مبلغ تعبت والدتى رحمة الله عليها وكدحت طيلة حياتها حتى وفترته، مقابل مجرد إيصال منكم، ودون ضمان.

قال المدير فى صبر شديد:

- لا يبدو أن سيادتك قد فهمتنى.. سيادتك متى تركت المبلغ عندنا تستطيع إن احتجت إلى جزء منه فى أى وقت من الأوقات أن تأتى إلينا لسحبه.

- وما أدري البنك الذى رفض إقراضى المبلغ أنه لو كان احتاج إلى جزء منه فى أى وقت من الأوقات كنت سأرفض إعطائه إياه؟ ثم إننى أذكر جيداً أن والدتى رحمة الله عليها أخبرتنى أكثر من مرة وهى تتنهد أنها فى عام ١٩٢٨ أودعت فى بنك مصر خمسة عشر جنيهاً، فلما أفلس البنك فى أعقاب الأزمة العالمية فى أوائل الثلاثينيات لم يمكنها استردادها.

- نعم. فى حالة إفلاس البنوك يصبح من الصعب على العملاء استرداد ودائعهم فيها.

- هاهاها! وهذا هو ما أعنيه.. لم تستطع والدتى استرداد وديعتها رغم أن بنك مصر كان قد أعطاها وقت الإيداع إيصالاً مختوماً بالمبلغ! ولو أنها - رحمة الله عليها - كانت أصرت عند الإيداع على أن يكون هناك ضامن للبنك لما ضاع عليها الخمسة عشر جنيهاً حتى مع إفلاس البنك.

قال المدير عابساً:

- أسف يا سيدى. ولكننا لا نقدم ضامناً للمودعين فى بنكنا.

- وهو كذلك... وأنا أسف لإضاعة وقتكم... سأبحث عن بنك آخر.

(٤)

وتردّدتُ ذلك الصباح على أكثر من سبعة بنوك.. وكانت النتيجة فى كلها واحدة، مما جعلنى أعتقد فى النهاية أن توفير الضامن للوديعة ليس من التقاليد المصرفية.. ولم أشأ - كما سبق أن قلت - أن أعود إلى البيت بمثل هذا المبلغ الكبير فأعرّضه لسطو خادم أو لص أثناء نومى ويضيع تعب والدتى هباء.. وإذ كان موعد إغلاق البنوك لأبوابها قد اقترب، فقد دلفت إلى أول بنك صادفته فى طريقى، وأسرعت بإيداع المبلغ فيه.

وكان ذلك البنك هو بنك الاعتماد والتجارة.

وهو البنك الذى اضطرت بعد إعلان إفلاسه فى العام الماضى إلى بيع السيرة والقميمص اللذين كنت أخفى المبلغ تحتهما يوم دخولى إيّاه.

على الرصيف

فى مقال قصير لأحمد عبد المعطى حجازى نشرته صحيفة «الأهرام» مؤخراً، ذكر حجازى أنه كان يسير فى شارع بمصر الجديدة، شهد رجلاً يصعد بسيارته على الرصيف ليتركها هناك، مما سيضطر المارة السائرين على الرصيف إلى النزول منه عند السيارة، والسير بمحاذاته حتى يتجاوزوها فيصعدوا إليه من جديد.

«وقد اعترضته لأتنبهه بإنزال سيارته، فاندعش لسلوكى كانى قادم من المريح، أو كانى أدعى حقاً لا أملكه، فما دام الرصيف غير مملوك لى فهو من حقه.. ولم أكذب خبراً، طلبتُ قسم النزهة، ولم أكن أتوقع أن تصل النورية بهذه السرعة. عندئذ فقط لاذ البلطجى صاحب السيارة بالفرار.. ولو أن كل أقسام الشرطة فعلت كما فعل قسم النزهة لاسترد القانون هيئته فى البلاد!»

أعجبتنى فكرة المقال، خاصة أنى أكاد يومياً أصادف نفس هذا التعدي على الأرصفة أثناء تمشيىتى اليومية.. وكان أن قررت أن أسهم من جانبى فى المجهود القومى بتصريف من صنف تصريف حجازى، من أجل أن يسترد القانون هيئته.

واليوم خرجتُ صباحاً للتريض. ورغم أن السيارة التى لمحتها كانت على الرصيف المقابل للرصيف الذى كنت أمشى عليه، فقد تعمدتُ أن أقطع الشارع إلى الرصيف الآخر حتى تعترضنى السيارة المترعة عليه، فأضطر إلى النزول منه.

كتبتُ رقم لوحة السيارة فى ورقة صغيرة، وعدت أجري إلى منزلى للاتصال تليفونياً بقسم الشرطة.. كنت على وشك الاتصال بقسم النزهة نفسه الذى أشاد حجازى به. غير أنى تذكرت أن موقع السيارة لا يتبعه.. وإذ كنتُ على يقين من أن حجازى فى مكالمته التليفونية المشار إليها قد أخبر مأمور القسم بأنه صحفى فى «الأهرام»، (مما كان له أثره فى التعجيل بإرسال النورية إليه)، فقد وصفتُ نفسى فى البلاغ بأننى صحفى فى «الاهالى» رغم أن هذا

الوصف غير صحيح، وإن كنتُ أكتب مقالات في «الأهالي» بين الحين والحين. والمؤكد أن تأثير الانتماء إلى «الأهالي» غير تأثير الانتماء إلى «الأهرام»، (إيش جاب لجاب؟)، غير أن كلها صحافة على أى حال، وسلطة رابعة تعمل أجهزة الدولة حساباً لها، ومن المحتمل أن يكون مأمور القسم الذى أتبعه قد قرأ مقال حجازى، فيحدوه الأمل فى أن أشيد به فى «الأهالي» (واهى أحسن من مفيش).

أبلغته تليفونياً بواقعة شغل السيارة للرصيف العام، وأخبرته بموقعها ورقمها. ثم عدتُ أعود لاهثاً إلى ذلك الموقع فى انتظار الدورية... وصدّق أو لا تصدّق أنه ما إن مضت ثلاث ساعات حتى كان الشاويش قد وصل... صافحته وذكرت له أننى المبلغ عن الواقعة، وناولته سيجارة من علبتى وأشعلتها بنفسى له.. وقد ظهر لى على الفور أنه متعاطف مع قضيتى..

صاح بالبوابين الجالسين أمام العمارات على مقربة من مكاننا:

— عربية مين دى؟

رأى البوابون أن شيئاً غير عادى يجرى، فتركوا دككهم الخشبية، واتجهوا نحونا على أمل أن يتطور الوضع إلى خاتمة مثيرة، تصرف الملل عنهم، وتصلح لأن تكون موضوعاً لأحاديثهم فى المساء.

وكرر الشاويش سؤاله إليهم: عربية مين دى؟

التفت بعضهم إلى بعض فى صمت، ثم انبرى أحدهم يقول:

— اتهاى لى دى عربية موظف فى الشركة اللى فى العمارة هناك، بيركنها الصبح هنا، ويرجع الساعة أربعة يأخذها.

— حدّ يعرف شكله إيه ويبشتغل فى أنى دور؟

— لا.

قال الشاويش وهو يهز رأسه مستنكراً:

— دى قلة نوق إيه دى؟ فاكّر الرصيف ملكه ولأى ملك أبوه؟ مفيش بولة؟ مفيش حكومة؟

مفيش قانون؟ مفيش حدّ يوقفه عند حدّه؟ دى إيه الجليطة وقلة الأدب دى؟ حدّ منكم يطلع الشركة ويبلغها برقم العربية عشان صاحبها ينزل يشيلها.

عندئذٍ آتانا صوت قادم جديد، هو بواب عمارة بعيدة بعض الشيء عن موقعنا، رأى

تجمهراً فى الطريق فأسرع بالمجىء يستطلع الخبر.

- إيه الحكاية يا جماعة؟

- عربية مين دى؟

- دى ولا مؤاخذة عربية اللواء حسن عصمت اللى ساكن فى الفيلا قصداً الأجزخانة.

انتفض الشاويش وامتقع وجهه الأسمر، ثم تنحنح وقال:

- متأكد؟

- تقريباً كده.

- طيب وماله .. معلش.

ثم ألقى السيجارة من يده، والتفت صوبى يقول:

- وسيادتك يعنى صعب عليك قوى إنك تنزل من الرصيف المسافة الصغيرة دى اللى العربية شاغلها، وترجع تطلع عليه تانى؟ عجيب والله؟ إيه يعنى لما عربية موش لاقية مكان تركن فيه فى الشارع تركن على الرصيف؟ عملت جريمة؟ ارتكبت جناية؟ غلطت فى البخارى؟ يعمل إيه الرجل؟ فاكرك حضرتك إنك لما تبلغ قسم البوليس ونيجى نشيلها حانصلح الكون؟ ما بقاش فاضل فى البلد خلاص حاجة وحشة إلا العربية دى اللى راكنة على الرصيف؟ قال على رأى المثل: تيجى للهايفة وتتصدراً يايبه إحنا عندنا شغل وموش فاضيين للتفاهات دى.

وإذا بخادمة شابة تتقدم عندئذ من جَمْعنا وتقول:

- انتوا بتسألوا عن صاحب العربية دى؟ دى بتاعة طالب فى الجامعة أنا عارفاه، ساكن فى الدور الرابع من العمارة اللى هناك دى، مربى دقنه وعامل زى ما يكون من الجماعات الإرهابية إيّاها.

صاح الشاويش وقد امتقع وجهه من جديد:

- من إيه؟ بتقولى من الجماعات الإرهابية؟ الله يخرب بيوتهم وبيت أبوهم! والله ما ضيع البلد غيرهم ولاد الكلب دول.. وحضرته اللى فى الجامعة موش عارف إن شغل الرصيف العام مخالفة بيعاقب عليها القانون؟ ولأ فاكرك إن مقيش قانون؟ روى يا عروسة وحياة أبوكى اندهيه خليه ينزل يشيلها لانجيب الونش يشيلها له.

- إيه اللمة دى حوالين عربيتى؟

وانفرج جمع البوابين ليفسح الطريق أمام ضابط سمين فى نحو الخمسين، ذى قامه طويلة، وشارب أسود مهيب.

- إيه الحكاية بالضبط،

بلغ الشاويش ريقه يصعوبة، ثم قال متهتها:

- العربية دى عربية سيادتك؟

- أيوه عربيتى.. فيه إيه؟

- أصل الأفندى ده لقاهما قال سدّه طريقه وهو بيتمشى، حضرته ما هانش عليه إنه

ينزل فى الشارع يلف حواليتها، وراح مكلم قسم البوليس علشان يشيلوها... حضرته فاكر إن شيلها هوّه اللى حا يصلح الكون.. قال على رأى المثل....

- طيب اتفضلوا غوروا من هنا، داهية تشيلكو كلكم.

شدّد الشرطى من قبضته على ذراعى فى انتظار أمر الضابط بشانى.. والتفت الضابط

صوبى:

- بتشتغل إيه يا حضرة؟

- صحفى فى جريدة «الأهالى».

صدر من منخاريه صوت ساخر، ثم قال:

- جريدة إيه يا بابا؟... معلش يا شاويش سيبه المرة دى.

- تمام يافندم.

ثم ركب اللواء سيارته وانصرف، مخلفاً إيأى وحدى على الرصيف.

عن سر قوة بعض وزراء الإعلام

لقادة الثورات الناجحة دائماً من المواصفات والمؤهلات والكفاءات، ومن قوة الشخصية وسحر تأثيرها في الجماهير والأعوان، ما لا يتوافر في العادة لخلفائهم في السلطة بعد وفاتهم. ذلك أن متطلبات إنجاح الثورة، كالإحاطة الكاملة بتطلعات الشعب وما يعانيه من مظالم، وعبقورية التنظيم والإدارة، والقدرة على إلهاث عواطف الجماهير ضد السلطة، وعلى الحفاظ - بفضل قوة الشخصية - على وحدة الصفوف داخل الحركة الثورية، تختلف اختلافاً جذرياً عن المؤهلات المطلوبة من الطامح إلى خلافة قائد الثورة في منصبه. والغالب أن تنحصر هذه المؤهلات الأخيرة في موهبة الدسّ والمكيدة، والغدر والوقية، وإدراك سبل نيل الخطوة دون الغير لدى قائد الثورة في حياته، بالطاعة والنفاق والانصياع الكامل وإظهار الولاء، واستخدام الوسائل السرية لنيل المآرب الخاصة، كإحاطة هذا الطامح نفسه بثلة من الأعوان على شاكلته، لهم ما له من أطماع ذاتية، ويسعى جاهداً إلى ضمان تعيينهم في مناصب حساسة قيادية، بحيث يمكنه الاعتماد عليهم، والاستعانة بهم، في الوقت المناسب.

وإزاء هذا الاختلاف الجذري بين شخصية قائد الثورة وشخصية خليفته تلمس دائماً تغييراً كبيراً في طابع نظام الحكم بعد وفاة مؤسسه. ولهذا التغير مظاهر شتى، أهمها اثنان:

الأول: مبادرة الخليفة باستئصال شائقة زملائه من قادة الثورة، واتهامهم بالخيانة لمبادئ الثورة أو لقضية الوطن، أو بالتآمر من أجل الإطاحة به، أو بالفساد وغير ذلك. فهو إذ يدرك جيداً أنه مدين للغدر والدس والمكيدة بالوصول إلى السلطة، لا يستبعد أن يلجأ غيره إلى نفس الوسائل للتخلص منه.

والثاني: أن إدراك الخليفة للفارق الشاسع بينه وبين سلفه، وخشيته من أن تُقَدِّم الجماهير على المقارنة بين الاثنين، ومن أن تتبين اقتقاره إلى المواهب الباهرة التي كان يتمتع

سلفه بها، يدفعانه دفعاً إلى اللجوء إلى وسائل الإعلام والدعاية، من أجل موازنة الكفتين، أو حتى ترجيح كفته هو على كفة الزعيم الراحل، ومن أجل خلق شعبية له عند الجماهير تماثل أو تفوق شعبية قائد الثورة، وهو الذى يدرك تماماً أنه لا أمل فى نيله هذه الشعبية دون الاعتماد على الإعلام والدعاية، إزاء افتقاره إلى كافة مؤهلات الزعامة ومقوماتها.

وزراء الإعلام

وفى سبيل تحقيق هذا الهدف الثانى، غالباً ما يلجأ خليفة قائد الثورة إلى الاستعانة بوزير للإعلام هو من نوعية خاصة من الناس. فهو عادة من أولئك الذين يفضلون ممارسة سلطانهم من وراء ستار، إما لافتقارهم إلى مواصفات الزعيم، أو لآى سحر خاص، أو لفضائح فى ماضيهم ظلت عالقة فى أذهان الناس بحيث فقدوا الأمل فى منصب الزعامة. غير أن شهوتهم للسلطة تظل قائمة فتدفعهم إلى محاولة إحرازها عن طريق نفوذهم وحظوتهم لدى الزعيم، وعن طريق تولية أصدقائهم المراكز الحيوية، فيتحكمون فى النهاية فى جهاز الدولة بأسره، مع التظاهر دائماً بالتواضع، والخلو من الطموح الشخصى، وبأنهم «صوت سيدهم» الممثلون لإرادته وأوامره. فعشقهم للسلطة الفعلية إذن هو أعظم من عشقهم للمجد وذبوع الصيت، خاصة أنهم - كالخصيان فى الحريم، أو كعشيقات الملوك - لا أمل لديهم فى تولى الزعامة أو العرش فى يوم ما.

وكثيراً ما يحار الرجل العادى - بل والمتقنون - إزاء تفسير ما يتمتع به ذلك الوزير من سلطة وهيلمان ليس بمقدور أحد المساس بهما، حتى إن كان رئيساً للوزراء أو مستشاراً للزعيم، وحتى يبدو وكأنما أضحى الزعيم نفسه غير قابل - أو غير قادر - على تنحيته عن منصبه. وقد يذهب هؤلاء فى محاولتهم التفسير إلى أن ثمة دولة أجنبية أقوى من دولتهم لها مصلحة فى بقاء هذا الوزير بالنظر إلى ما يؤديه لها من خدمات، أو إلى أن الوزير تمكن بأساليبه الخاصة من إقناع رئيس دولته بأنه يخدم أغراضه «القومية» على خير وجه ممكن، وعلى نحو ليس بوسع إنسان غيره النهوض به.

غير أنى أميل إلى الظن أن كفاءة الوزير فى «تلميع» صورة رئيس الدولة الجديد هى المسئولة عن تعاظم سلطانه. فالملاحظ أنه كلما قلَّت الشواهد على كفاءة الزعيم ومزاياه، زادت

الحاجة إلى تكثيف الدعاية له، وهو ما يتطلب تأكيداً دائماً لمواهبه وحنكته، وإعلاناً مستمراً عن ثقب نظره وعبقريته، حتى يحظى بالشعبية المطلوبة، ويتصدىء العامة لمزاعم أجهزة الإعلام. وقد استفادت هذه الأجهزة استفادة كبرى، في مضمار فن الدعاية، من الإعلانات عن السلع، إذ يؤمن القائلون على هذه وتلك بأن من شأن الإكثار والتكرار والتأكيد، والاستعانة بأصوات أو أقلام نجوم قريبة من قلوب الجماهير، إثارة الاعتقاد اللاعقلاني لدى هذه الجماهير بصدق ما يقال، وتصديقها للمزاعم التي تكرر بلهجة مؤكدة وثاقبة، دون حاجة إلى الاستناد إلى أسباب أو حقائق.

ونجاح وزير الإعلام في هذه المهمة هو أكبر ما يشغل بال رئيس الدولة من بين كافة مشاغله، وهو ما من شأنه أن يضيف في نهاية الأمر تلك الأهمية الكبرى على منصب ذلك الوزير وشخصه.

مثل تاريخي

فإن احتاج القارئ إلى مثال تاريخي لما ذكرناه، سقنا إليه مثل وزير الإعلام في عهدي لينين وستالين. ذلك أن لينين، بكل حنكته السياسية، وألمعيته، وقدراته المشهود له بها من الجميع، وطهارة يده ومسلكه الشخصي، لم يكن في حاجة إلى «تلميع»، أو إلى أبواق دعاية تكرر ذكر مفاتنه وتسيح بحمده صباحاً ومساءً. لذلك فإن منصب وزير الإعلام في عهده لم يكن ذا شأن، واقتصرت مهام ذلك الوزير على بيان إنجازات الحزب والتوعية ببرامجه وأهدافه. أما وقد خلفه ستالين في الحكم بفضل مناورات ومؤامرات ودسائسه، وإثارته الواقعة بين قادة الثورة من أمثال تروتسكي وبوخارين وكامينيف وزينوفيف (وجميعهم يفوق ستالين كفاءة وثقافة وتمرساً في الحياة السياسية)، فقد رأى بوضوح أن مقارنة الشعب الحتمية بينه وبين سلفه لن تكون في صالحه على الإطلاق، وأنه لا يتمتع من الشعبية بقدر يؤبه له، ولا له من الصفات ما يؤهله لاكتساب هذه الشعبية في أي وقت من الأوقات. فكان أن استعان بوزير للإعلام من الصنف الذي تحدثنا عنه، يسخر كل وسائل الإعلام والدعاية من أجل تمجيد سيده، ويحرص على أن تنشر كافة الصحف صورته في صفحاتها الأولى في كل مناسبة هامة كانت أو غير هامة، وأن تحمل اللافتات الكبيرة العديدة في الشوارع جُملاً مقتبسة من خطبه،

مهما كانت غبية، وأن يستجلب الماجورين من الكتاب للتفتى بمناقب الزعيم القائد، البطل الملهم، وليعدّوا أفضاله على الاتحاد السوفييتي، بل وأن ترافق الإذاعة وكاميرات التلفزيون السيدة قرينته في زياراتها للملاجئ والمستشفيات والمكتبات، ثم تنشر صورها في الجرائد بعد ذلك وهي تربت على رأس هذه الطفلة أو تلك، أو تبتسم ابتسامة رفيقة رقيقة لهذا المريض أو ذاك.

وكانت النتيجة أن أضحى ذلك الوزير أقرب الناس إلى قلب ستالين، باقياً على مرّ الأيام والسنين في منصبه، لا يمسه تطهير ولا يشملّه تعديل وزارى، وعرف له أناسٌ يتولّون مناصب أسمى أو أكثر نفوذاً في الظاهر (من أمثال چوكوف ومولوتوف وبولجانين ومالينكوف) حظوته لدى الزعيم، فكانوا يتودّدون إليه ويتقربون منه، ويعملون حسابه ويخافون شرّه.

سلاح ذو حدين

غير أن مثل هذه الدعاية التي تطلقها لرئيس الدولة أجهزة الإعلام إنما هي سلاح ذو حدين، ولا بدّ أن تسفر في نهاية الأمر عن عواقب معينة:

* فرئيس الدولة، مع كونه هو الذى أعطى إشارة البدء لهذه الأجهزة كي تشرع في دعاياتها، ثم في تكثيفها، لحاجته الماسة إلى ما تردّده من أكاذيب، غالباً ما ينتهى الأمر به إلى تصديق هذه الأكاذيب، خاصة وهو يرى ويسمع ويقرأ ما يردّده غالبية الكتاب والمفكرين والفنانين من ثناء عليه، وتغرّل في مناقبه ومحامده، فيخال نفسه زعيماً فذاً، وإلها لا شريك له، لا يطيق نقداً لسياساته، أو رأياً مخالفاً لما ارتآه، أو رجلاً قوياً إلى جانبه. فإذا هو وقد أصبح يرى أنه غير مطالب بإثبات مواهبه وأهليته للحكم، ما دام ثمة من ينوب عنه في القيام بهذه المهمة.

* ثم إن سيطرة النظام على وسائل الإعلام، والإحساس المتنامى بمرور الوقت لدى رئيس الدولة بالحاجة إلى إحاطة نفسه دائماً بالمنافقين والطبّالين والزامرين، يميلان إلى إقصائه شيئاً فشيئاً عن الواقع، وازدياد جهله بأمور كان من المهم أن يعرفها، فإذا هو يخال كل شوارع الدولة في نظافة الشوارع التي يمر بها موكبه، وكل وجوه أبناء شعبه تسطع بالابتسامة التي يراها على وجوه أفراد حاشيته، وكل المصانع أو المستشفيات تعمل بنفس

الكفاءة التى لمسها أثناء زيارته الصباحية لهذا المصنع أو المستشفى. ثم إذا به وهو الذى تقدم إليه كل يوم تقارير مخابراته ووزاراته ومعاونيه وسكرتاريته وقد أضحت إحاطته بأحوال دولته أضعف من إحاطة أى عابر سبيل يجول فى شوارعها، ويستخدم مواصلاتها، ويقطن فى حى من أحيائها الشعبية.

* كذلك فإن الإفراط فى تمجيد رئيس الدولة بالحق والباطل، وظهور صورته وتغطيته أخباره يومياً فى الصفحة الأولى من الجرائد، وفى مستهل كافة نشرات الأخبار الإذاعية والتلفزيونية، وتكرّر المديح له على ألسن وأقلام الخطباء والكتاب، والحديث عما تنعم به الرعية من رفاة وحرية وسعادة فى عهده، وعما سيأتى به مستقبل أيامه من خيرات أعظم حتى من تلك التى تنعم اليوم بها، لا بدّ من أن يحدث بمضى الوقت أثراً عكسياً لدى الجماهير: مثقفها الآن، وغوغائها فيما بعد. فالأصل فى الدعاية والإعلان أنها يخاطبان الرغبة، ويستميلان الجمهور عن طريق الوعد بإشباعها، وبيان القدرة على تحقيقها. حتى إذا ما اتضح للجميع أن القدرة على تحقيق الوعد قد أصابها الشلل، وأن البطالة فى ازدياد، وارتفاع الأسعار فى ازدياد، ومشكلات الإسكان والمواصلات فى ازدياد، وأن المجد والرخاء والتقدم والأمن أمور لا سبيل إليها مادام هذا النظام بعينه قائماً، قوبلت الدعاية من الجمهور بالسخرية، وقوبل زمر الزامرين وثناء المفكرين والصحفيين بالاحتقار العميق الذى هما أهل له.

إن المواصفات المطلوبة من خليفة قائد الثورة، والكفاءات اللازمة لوزير إعلامه، هى دائماً صفات غير حميدة، تجعل من النظام الذى يحتضنهما نظاماً فاسداً لا يمكن أن يخدم الصالح العام.. وكلما قويت وسائل الإعلام وزادت جهودها من أجل «تلميع» صورة الزعيم، قويت ردود الفعل العكسية لدى الشعب.. فإن كان الهدف من الدعاية هنا هو تأجيل الثورة، فإن هذه الدعاية نفسها تجعل الثورة عند حدوثها أكثر حدة، وأشدّ عنفاً...

إن شئت فقل، وإن شئت فكثّر!

حين قال المسيح لسائله الشاب: «إن أردت أن تكون كاملاً فاهب وبيع ما تملك واعطِ الفقراء»، لم يكن يقصد حلّ مشكلة اجتماعية، ولا حتى تخفيف العبء عن الفقراء، وإنما كان يتحدث عن الصالح الشخصي لذلك الشاب، وسبيل نجاة روحه ونقاء نفسه، إذ اعتبر ثراه مهلكة مفسدة، وحائلاً دون تبين الحق، وهو المعنى الكامن فى عبارة «إن أردت أن تكون كاملاً»...

وقد فهم الحسن البصرى ذات المعنى حين شاهد أميراً يضرب بالسوط مغلوباً على أمره ضرباً مبرحاً، فخاطب الأمير بقوله: «والله ما تضرب إلا نفسك، فإن شئت فقل، وإن شئت فكثّر». فهنا اهتمام بنفس الأمير وما يلحقها من ضرر فادح طويل الأمد نتيجة لما يرتكبه من ظلم بيّن، يفوق الاهتمام بمن وقع الظلم عليه.

وهو أيضاً ما فهمه برتولت بريخت حين كتب فى إحدى قصائده يقول: «أتعرف سبب رفضى لارتكاب هذه الفعلة الدنيئة؟ لأنى لا أزال راغباً فى سماع الموسيقى فى خيرير الماء، وأن أطرب لغناء الطير وحفيف أوراق الشجر».

* * *

فى كل من هذه الحالات الثلاث نتبين نظرة ثابتة لطبيعة النفس البشرية، وقوانين عملها، وسبل إنمائها والحفاظ على نقائها، وتفسيراً لدواعى الحرص على هذا النقاء... هى نظرة معملية بحتة، لا علاقة لها بوعظ أو دين، أو ضمير أو أخلاق.

* * *

فإن كان الأفاضل من أجدادنا وأبائنا قد فهموا جانباً من هذا الفكر، وألزموا أنفسهم بالعمل على هديه، فقد أخطأوا فى تسميته وتبريره.. نسبوه إلى الضمير، أو الالتزام بتعاليم

الدين ومقتضيات الخلق الرفيع، وتحدثوا عن كيف أن «كرامتهم»، أو «كبريائهم»، أو «أنفتهم»، أو ما شئت، تآبى عليهم التدنى إلى ارتكاب هذا الظلم أو ذلك العمل الدنى، وغفلوا عن الاعتبار الحاسم فى الأمر الذى فطن إليه المسيح والحسن البصرى وبرتولت بريخت، ألا وهو الأهمية السيكلوجية للحفاظ على نقاء النفس الذى يعكّر السلوك الشائن من صفوه، من أجل فهم للحياة والناس أصوب، وراحة بال حقيقية مستقرة.

(٢)

أذكر أنه حين ولدُ للملك فاروق ابنه أحمد فؤاد فى يناير ١٩٥٢، طلعت الصحف والمجلات المصرية تهلل وتبارك، وتتظاهر بالفرح وتناقق، عدا مجلة واحدة هى مجلة «الثقافة» التى كان والدى صاحب امتيازها. ثم كان أن اتصل المستشار الصحفى للملك، وهو كريم ثابت، بوالدى تليفونيا، يخبره أن الملك غاضب حائق، وهدده بأنه مالم تنشر «الثقافة» تهنئة للملك فى عددها التالى فسيصدر الأمر إلى وزارة المعارف بوقف اشتراكات المدارس المصرية فى المجلة، وهو ما كان سيؤدى فى واقع الأمر إلى إفلاسها. فاجتمع أبى برئيس التحرير، وهو زكى نجيب محمود، وأطلعته على حقيقة الوضع، وأخبره أنه شخصياً عاجز عن أن يخط بقلمه تهنئة للملك، أو أن يعبر عن «فرح» لا يشعر به، وعن «أهمية» حدث لا يراه هاماً.. ثم ترك الأمر برمته لزكى نجيب محمود ليرى فيه رأيه، فإن شاء تجنّب إفلاس «الثقافة» كتب الدكتور زكى تهنئة قصيرة للملك، وإن رأى أن ضرر النفاق يفوق ضرر إغلاق المجلة لم يكتب.

وكان أن طلع العدد التالى من «الثقافة» يحمل فى صدافته مقالاً بالغ القصر بعنوان «مولد أمير» بقلم زكى نجيب محمود. وبالرغم من قصر المقال والفتور الجلى فى عبارات التهنئة فيه، ووضوح أن هذا المقال المتأخر قد خرج «من تحت ضرس» كاتبه ورغماً عن إرادته، فقد استثبطت غضباً حين وقع بصرى عليه، وبادرت بإرسال خطاب عنيف اللهجة إلى الدكتور زكى أعبر له فيه عن شدة ألى وخيبة أملى إذ ينضم مثقف مثله إلى زمرة الغوغاء المنافقين.

ومضى يومان.. وإذ كنت جالساً ذات ليلة أقرأ فى غرفتى بالطابق الثانى من منزلنا، سمعت من ينادى بالحديقة:

— يا حسين! يا حسين!

فأطللت برأسى من النافذة.

- حسين؟

- نعم.

- أنا زكى نجيب.

قلت: والدئى ليس هنا.

قال: لا أريد والدك وإنما أريدك أنت.. انزل.

فنزلت. وخرجنا إلى الطريق نتمشى وقد قبض بيده على ذراعى وهو يكرر فى صوت

حزين:

- أنا آسف.. أنا آسف.. أنا آسف.. والله ما خطر ببالى قط أن أكتب ذلك المقال، وما كنت لأكتبه لولا ما قصه على والدك من نبأ مكالمة كريم ثابت التليفونية معه. ولا بوسعك أن تتصور ما شعرت به بعد نشره من جزع وتأنيب ضميم، خاصة بعدما تلقيت رسالتك.. أنا آسف.. أنا آسف.. وأعدك ألا أعود إلى مثلها أبداً.

ما أروى هذه القصة إلا لأذكر من عساه أن يكون من شيوخنا قد نسى، ومن عساه ألا يكون من شبابنا قد عرف، ما كان يتمتع به أبائنا من «أنفة» و«كبرياء» و«كرامة»... لقد كنت وقتها طالباً فى الجامعة دون العشرين، وكان زكى نجيب محمود مفكراً مرموقاً فى السابعة والأربعين ورئيس تحرير أكبر مجلة ثقافية فى العالم العربى. ومع ذلك فقد رأى من واجبه أن يتوجه بنفسه إلى بيت ذلك الطالب للاعتذار عن مقال كتبه، وليطمئنه على أنه لن يعود إلى مثلها قط.

(٣)

ثم لننظر بعد ذلك فى حالنا اليوم؛ فى حال من يسمون بالمفكرين والكتاب والصحفيين عندنا الآن. قد انحصر شغلهم الشاغل فى وسائل الكسب، والكسب السريع إن أمكن. فما من أحد قد عاد يطبق الصبر أو التدرج، أو يؤمن بجذواهما، أو يشك فى صحة القول بأن الغاية تبرر الوسيلة. وقد انتهكت أعراض الجميع بحيث بات من الظلم أن نصم الموس وحدها بأنها

بائعة العرض. فما فعلته لا يتجاوز ما يقتضيه هؤلاء في حق أنفسهم، ولنفس الدافع، وربما بصورة أدنا، خاصة أن هدفهم لم يعد مجرد الحصول على ما يعينهم على مواجهة أعباء الحياة، وإنما أصبح الاستمتاع، وإلى أقصى حد متاح، «بأطياب الحياة ومباهجها»، وهو ما ليس بالوسع تحقيقه بالاعتماد على الدخل الضئيل الذي تدره عليهم كتاباتهم داخل مصر.

يقول برناردشو: «طريقان لا ثالث لهما إلى احراز الثروة: الزواج من امرأة غنية، أو الكدح لمدة عشرين عاماً ثم الزواج بعدها من امرأة غنية!». وقد وعى كتابنا وصحفيونا الآن جيداً هذه «الحقيقة»: فالمرسيدس التي لن يتيسر لك شراؤها ولو بعد عشرين عاماً من التعب والنصب، قد بات بالإمكان ضمان اقتنائك إياها بفضل الحظوة والمنصب العائدين عليك نتيجة تدبيجك لسلسلة من مقالات المديح في هذا الحاكم أو ذاك، أو ضمان إهدائها إليك متى رضيت عن كتاباتك هذه الأسرة الخليجية الحاكمة أو تلك.. وما عاد ثمة من يعمل بنصيحة سفيان الثوري لأحد العلماء:

«إن دعاك الأمراء لتقرأ عليهم (قل هو الله أحد) فلا تمض ولا تقرأها».

قد أضحى رضا القارئ أهون ما يعينهم وآخر ما يهمهم. وإنما هو رضا السادة الجائمين بأجسادهم الغليظة المرفهة على حقول النفط، ورضا الرؤساء الذين يملكون توزيع الامتيازات والمناصب. أما القارئ قفى ألف داهية. فهو لا يملك نفطاً أو سلطة.. إن ساء هذا الحاكم أو ذاك ما ذكره محمد حسنين هيكل في كتابه «حرب الخليج»، سلط عصبه من هؤلاء لمهاجمته وتوجيه السباب البذيء إليه، دون أن يضطر الحاكم إلى أن يكلف نفسه حتى أن يفتح فاه بكلمة. وإن غضب على مفكرين مصريين إذ يعبرون عن آراء تضايقه، أو رآها مهددة لسلطانه، فإنه يكفيه أن ينهج نهج بابوات العصور الوسطى، فيصدر قراراً بالحرمان، ويذيع قائمة بالإهماء التي يريد من الصحافة ووسائل الإعلام المصرية (التي أضحى معظم رجالها بمثابة الحرس البريتوري لحكام دول الخليج) أن توقف تعاملها معهم.

غير أن هذا ليس ما يعينني هنا، ولا ما يعينني هنا حقيقة أن الحياة الفكرية في مصر تشهد الآن أكبر قدر من العهر والدعارة عرفته في تاريخها كله.. ما يعينني - ويذهلني - هو أن أرى غالبية الكتاب والصحفيين ورجال الإعلام عندنا وقد نسوا تماماً تلك الحقيقة السيكلوجية الساطعة التي تحدث عنها المسيح والحسن البصري وبيروتول بريخت: وهي أنهم يمثل هذا السلوك إنما يضرّون أنفسهم هم، وأنهم باتوا أخرى بالإشفاق والحسرة من القارئ الذي يستغفلونه دوماً قبيحون له الباطل على أنه حق، والزائف على أنه صحيح.

لم أر أحدهم يخفى، ولا سمعته ينكر، هذا السلوك.. فهم دائماً - بكل صراحة وعلانية وقحة - يتحدثون عما يفعلون، وعما يكتبون، وعما يقبضون، ضاحكين ساخرين: «أحسن من عينهم!»، «رزق الهبل على المجانين!»، «أليس قبضنا لهذه المبالغ منهم خير من بعثرتهم إياها على نساء أوروبا، وموائد قمار مونت كارلو؟»، «الكل يعلم حق العلم أننا بمدحهم غير جادين، فما ضرر مدحنا إذن؟ لقد أشدنا بصدام حسين قبل غزوه للكويت، وأخذنا أمواله مقابل المدح فيه، ثم انقلبنا عليه بعد هزيمته، وأخذنا أموال أعدائه مقابل الطعن فيه... وقد مدحنا عبد الناصر ثم هجونا بعد موته، وهللنا للسادات ثم لعنا بعد اغتياله، دون أن نطالب أحداً من قرائنا بتصديق لا ما كتبناه وقتئذ ولا ما نكتبه الآن... فما مبرر هذه الخشية منك إذن من تأثير كتاباتنا في عقول القراء ونفوسهم؟».

بيد أنها أنفسهم هم هي التي أخشى عليها عاقبة هذا السلوك.. فهم لم يعوبوا الآن يتحدثون حتى عما أسماء أجدادنا وأباؤنا بالكرامة والكبرياء والأنفة.. وإنما اسمعهم يتحدثون عن أهمية اقتناء بيت في مارينا على الساحل الشمالي، ومرسيدس من طراز فانتوم، وهو ما لا يضمنه غير قفلة كفيلة فاوست إذ يبيع روحه للشيطان، وغير بيعهم لأقلامهم، والتضحية بأعراضهم الفكرية.

هم إذن لا يحترمون ممدوحيههم (وهم يعلمون حقيقة سلوكهم)، ولا ممدوحوهم يحترمونهم (وهم يدركون مدى حاجتهم إلى أموالهم). وهم لا يحترمون قراءهم (وهم يعلمون أنهم لا يملكون ضراً ولا نفعاً)، ولا قراؤهم يحترمونهم (وهم يدركون حقيقة بواعثهم).. وأكاد أجزم بأنه ما من خطر يتهدد بلدنا وشبابها قدر ما يتهددهما ما نلاحظه اليوم من افتقار الكافة إلى احترام الكافة.

(٤)

لقد حضرت خلال شهر أغسطس ١٩٩٢ ندوة ثقافية تحت رعاية السيدة قرينة الرئيس.. نيهتتنا بطاقة الدعوة إلى ضرورة الحضور قبل موعد وصول السيدة بساعة على الأقل. فوصلنا قبل الموعد بساعة، وانتظرنا ساعة إضافية لتأخر وصولها عن الموعد المقرر. وإذا جلست أراقب طابوراً طويلاً يتألف من رئيس الوزارة والوزراء وكبار رجال الرئاسة

والدولة، وأراقب تعابير وجوههم وانحناء ظهورهم إذ يسيرون خلفها وهى تدلف إلى صالة الندوة، ومللهم الشديد أثناء الاستماع إلى خطب النفاق والكلمات الطويلة من رجال «الفكر والثقافة»، وتخيلت ما يشعرون به حتما من أسف على اضطرابهم إلى إضاعة وقتهم فى ندوة لا تهمهم فى شيء، أو من حاجة ماسة إلى النوم، أو من رغبة فى قضاء ولو ساعة واحدة مع عائلاتهم؛ وإذا لمست من المتحدثين أن أقل ما يشغل بالهم هو حال الثقافة فى مصر التى هى موضوع ندوتهم، وأن شاغلهم الأكبر هو رضا راعيتها ورضا «الأكابر» عنهم، إذا بى أرانى - نون وعى منى ودون إرادة - أردد بصوت خافت ولكنه مسموع:

- والله يا جماعة الحكاية ما تستاهل.. والله ما تستاهل.. والله ما تستاهل.

وكانت «الحكاية» فى مفهومي هى فيلات مارينا، ومرسيدس الفانتوم، ورضا الأكابر، وبهاء المنصب، وكل ما يرى فيه هؤلاء الأمل المنشود، وغاية الحياة، خاصة أنه كان قد سبق للسيد المسيح أن نبه الناس إلى هذه الحقيقة بتساؤله منذ قرابة ألفى عام:

- ما الفائدة فى أن يكسب المرء العالم، ويخسر نفسه؟

المؤلف

- * ولد في القاهرة في ١٩ يونيو ١٩٣٢، وهو نجل المؤرخ الإسلامي الكبير الدكتور أحمد أمين.
- * تخرج في كلية الحقوق، جامعة القاهرة، عام ١٩٥٣، ثم درس الأدب الإنجليزي بجامعة لندن.
- * عمل محامياً، فمذيعاً بالإذاعة المصرية، فمذيعاً بالقسم العربي بهيئة الإذاعة البريطانية بلندن.
- * التحق بالسلك الدبلوماسي المصري، وعمل ملحقاً فسكرتيراً ثالثاً بالسفارة في أوتاوا (كندا)، فسكرتيراً ثانياً بالسفارة في موسكو (روسيا)، فمستشاراً بالسفارة في لاجوس (نيجيريا)، فوزيراً مفوضاً بالسفارة في بون (ألمانيا)، فتنصلاً عاماً في ريودي جانيرو (البرازيل)، فمفسراً لمصر في الجزائر.
- * انتدب خلال عمله بوزارة الخارجية مستشاراً فنياً لوزير الثقافة، وأعيد للعمل نائباً لمدير مركز الأمم المتحدة للإعلام بالقاهرة.
- * يجيد الإنجليزية والفرنسية والروسية والألمانية والبرتغالية.
- * حصل كتابه «دليل المسلم الحزين» على جائزة أحسن كتاب في معرض القاهرة الدولي للكتاب عام ١٩٨٤، وقد صدرت الترجمة الفرنسية له في باريس في إبريل ١٩٩٢.
- * كما أهدت له الحكومة الألمانية وسام الاستحقاق الأكبر عام ١٩٨٣.
- * متزوج وله ثلاث بنات.
- * من مؤلفاته: دليل المسلم الحزين (١٩٨٣) - الحروب الصليبية (١٩٨٣) - فضل الإسلام على الحضارة الغربية (١٩٨٣) - ألف حكاية وحكاية من الأدب العربي القديم (١٩٨٤) - حول الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية (١٩٨٤) - في بيت أحمد أمين - التسامح الديني والتفاهم بين المعتقدات (١٩٨٦) - تكنولوجيا تنمية المجتمع العربي (١٩٨٧) - الإسلام في عالم متغير (١٩٨٨) - أزمة حقوق الإنسان في الوطن العربي (١٩٨٩) - مسرحية «الإمام» (١٩٩٠) - مصابيح أقوال العرب (١٩٩٠) - حوليات العالم الإسلامي (١٩٩٠) - المائة الأعظم في تاريخ الإسلام (١٩٩١) - رسالة من تحت الماء (١٩٩٢) - الاجتهاد في الإسلام (١٩٩٣).
- * له العديد من المقالات والبحوث نشرت في مجلات - الثقافة - الرسالة - المجلة - المسرح - روز اليوسف - صباح الخير - الأهرام الاقتصادي - أكتوبر - المصور - الطليعة - أدب ونقد - الهلال - اليسار - إبداع - العربي الكويتية - الدوحة التطرية - وجراند المصري - الأخبار - الجمهورية - الأهالي - أهرام ويكلي - الوطن الكويتية - الشعب الجزائرية، كما أذيعت له تمثيلات في إذاعة الشرق الأدنى، والإذاعتين المصرية (البرنامج الثاني)، والبريطانية (القسم العربي).

١ - مؤلفات:

- ١ - دليل المسلم الحزين الطبعة الأولى دار الشروق - القاهرة ١٩٨٣
- الطبعة الثانية ١٩٨٥ » » »
- الطبعة الثالثة ١٩٨٧ مكتبة مدبولي - القاهرة
- الطبعة الرابعة ١٩٩٠ الفنون المطبعية - الجزائر
- الطبعة الخامسة ١٩٩٢ مؤسسة سعاد الصباح - القاهرة
- ٢ - الحروب الصليبية مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٨٣
- ٣ - ألف حكاية وحكاية من الأدب العربي القديم الطبعة الأولى دار الشروق - القاهرة ١٩٨٤
- (المجلد الأول) الطبعة الثانية ١٩٩٠ » » »
- ٤ - حول الدعوة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية الطبعة الأولى دار النهضة العربية - بيروت ١٩٨٥
- الطبعة الثانية ١٩٨٧ مكتبة مدبولي - القاهرة
- الطبعة الثالثة ١٩٩٠ الفنون المطبعية - الجزائر
- الطبعة الرابعة ١٩٩٢ مؤسسة سعاد الصباح - القاهرة
- ٥ - في بيت أحمد أمين الطبعة الأولى دار الهلال - القاهرة ١٩٨٥
- الطبعة الثانية ١٩٨٩ مكتبة مدبولي - القاهرة
- ٦ - الإسلام في عالم متغير » » » ١٩٨٨
- ٧ - ألف حكاية وحكاية (المجلد الثاني) دار الشروق - القاهرة ١٩٨٩
- ٨ - الإمام (مسرحية) مكتبة مدبولي - القاهرة ١٩٩١
- ٩ - مصابيح أقوال العرب » » » ١٩٩١
- ١٠ - حوليات العالم الإسلامي » » » ١٩٩١
- ١١ - المائة الأعظم في تاريخ الإسلام » » » ١٩٩١
- ١٢ - رسالة من تحت الماء، وسخریات صغيرة دار سعاد الصباح - القاهرة ١٩٩٢
- أخرى،
- ١٣ - الاجتهاد في الإسلام الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣
- ١٤ - الموقف الحضاري من النزعات الدينية دار سينا - القاهرة ١٩٩٣

ب - مؤلفات بالاشتراك مع غيره:

- ١٥ - التراث وتحديات العصر الطبعة الأولى مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت ١٩٨٥
- الطبعة الثانية ١٩٨٧ » » » » »

- ١٩٨٦ Bernard Grasset - باريس L'Islam en Questions - ١٦
- ١٩٨٦ اتحاد المحامين العرب - القاهرة ١٧ - التسامح الدينى
- ١٩٨٧ المركز الإقليمى العربى للبحوث فى العلوم الاجتماعية ١٨ - تكنولوجيا تنمية المجتمع العربى
- ١٩٨٧ دار الساقى - لندن الطبعة الأولى ١٩ - رأيهم فى الإسلام
- ١٩٩٠ » » » الطبعة الثانية
- ١٩٨٨ Labor et Fides - جنيف ٢٠ - Le défi du Fondamenrtanisme Islamique
- ١٩٨٩ اتحاد المحامين العرب - القاهرة ٢١ - أزمة حقوق الإنسان فى الوطن العربى
- ١٩٩٢ - Council of Europe ٢٢ - Euro - Arab Understanding
- ستراسبورج
- ١٩٩٢ دار الهلال - القاهرة ٢٣ - أهم مائة كتاب فى مائة عام
- ١٩٩٣ مؤسسة روكفلر - نيويورك ٢٤ - Pluralism and Cultural Expressions
- ١٩٩٣ اللجنة المصرية للتضامن ٢٥ - مصر فى عالم متغير
- ١٩٩٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٦ - المثقفون والإرهاب
- ١٩٩٣ » » » » ٢٧ - جذور الإرهاب
- ج - كتب مترجمة:
- ١٩٦٣ سلسلة الألف كتاب - القاهرة الطبعة الأولى ٢٨ - معضلة الرجل الأبيض للورد بويد أور
- ١٩٨٣ دار الشروق - القاهرة ٢٩ - فضل الإسلام على الحضارة الغربية
- الطبعة الثانية لمونتجومرى وات
- ١٩٩١ مكتبة مدبولى - القاهرة ٣٠ - نهاية التاريخ وخاتم البشر لفرانسييس فوكوياما
- ١٩٩٣ مركز الأهرام للترجمة والنشر ٣١ - ثلاث مسرحيات عالمية: المقامرون - لله
- ١٩٩٣ دار سينا ٣٢ - مائة إسم - حوض الأزهار
- ١٩٩٣ » » ٣٢ - نحو تطوير التشريع الإسلامى لعيد الله النعيم
- د - كتب من تأليفه مترجمة إلى لغات أجنبية:

١٩٩٢ - La Découverte - باريس

٣٣ - Le livre du musulman
déséparé

هـ - كتب جاهزة للنشر:

المجلد الثالث

٣٤ - ألف حكاية وحكاية من الأدب العربي

القديم

٣٥ - محمد

٣٦ - قصص للأطفال

٣٧ - أزجال

الفهرس

القسم الاول

٥	عروبة وإسلام
٧	الموقف الحضارى من النزعات الدينية
٨	موقف الفرس من المؤسسات الدينية
٩	إخانات وكهنة أمون
١٠	هزيمة إخانات على يد الرجعية
١١	دولة الإسلام وحضارة البيزنطيين
١٢	بين الإسكندر ونابليون
١٣	اضمحلال حضارة الإسلام
١٦	عالم اليوم
١٧	خاتمة
١٨	مشكلات التماور مع الجماعات الدينية المتطرفة
٢٨	رسالة من الشيخ عمر عبد الرحمن إلى الجهاز القىادى لتنظيم الجهاد
٣٨	الأحزاب السياسية المصرية وقضية التطرف
٣٩	فى عهد عبد الناصر
٤٠	فى السبعينيات
٤٢	فقدان الثقة فى مختلف الأحوال
٤٣	موقف حزبى التجمع والوقد
٤٦	موقف الحزب الوطنى
٤٧	العنصر الإيجابى فى الموقف

٤٩	من هنتر.. والملكة إليزابيث.. والشيخ عمر عبد الرحمن
٥٤	«الإسلام هو الحل»
٦١	حق المسلم في حرية الرأي والاجتهاد والتعبير عن رأيه
٦٣	حرية الرأي
٦٥	الاجتهاد حق هو أم واجب ؟
٦٩	حق الإنسان في اعتناق الرأي الذي يراه
٧١	معنى قفل باب الاجتهاد
٧٢	إمداد الحق
٧٨	العلاقات الطائفية في مصر
٨٦	يوم صلى النبي على أخ نصراني له
٩٢	موقف البدو من دولة الإسلام
٩٣	البدو والفتوحات الإسلامية
٩٤	موقف البدو من السلطة السياسية
٩٥	الخوارج
٩٦	البدو والشعبوية
٩٨	موقف المسلمين العرب من الحضارة الأوروبية
١٠٩	تقييم المسلمين للحروب الصليبية بين التفريط والإفراط
١١٠	الاستهانة بالحروب الصليبية لدى المسلمين المعاصرين لها
١١١	أسباب قلة أكتراث المسلمين بتلك الحروب
١١٢	اهتمام الأوروبيين العميق بالحروب الصليبية
١١٣	من التفريط إلى الإفراط
١١٤	الدرس الأكبر للحروب الصليبية

١١٦ قصة صلاح الدين الأيوبي والسهورودي المقتول
١١٧ غيرة الفقهاء
١١٨ موقف صلاح الدين
١١٩ تقييم فعلة صلاح الدين
١٢٢ حول الكتابة التاريخية عند المسلمين
١٢٣ كونه الإرادة الإلهية
١٢٤ نشأة الكتابة التاريخية عند المسلمين
١٢٦ علم الرجال وكتب السيرة النبوية
١٢٧ ازدهار الكتابة التاريخية عند المسلمين
١٢٨ قرون الانحطاط الفكري
١٣٠ الثقافة العربية في عالم متغير
١٣٥ حماد نصف قرن من القومية العربية (١٩٤٣ - ١٩٩٣)
١٣٥ في البدء كانت الكلمة
١٣٦ حزب البعث
١٣٧ تقييم فكرة القومية العربية
١٣٨ التناقضات الكامنة
١٤٠ عبد الناصر يدخل الميدان
١٤١ في السبعينيات

القسم الثاني

١٤٥ متنوعات
١٤٧ حيرة إسرائيل بين السلام واستمرار الخصومة
١٥٥ من حاضر العالم الثالث ومستقبله
١٦٢ صهوة الموت
١٦٧ خواطر حول مفهوم السياسة
١٦٧ وعود وكوارث

١٦٨	إنجازات الرأسمالية الصناعية
١٧٠	تدخل السياسيين في الإنتاج
١٧١	عالم القذ ومستقبل السياسة فيه
١٧٤	خواطر حول مفهوم الشرف
١٧٩	(واسمعتُ كلماتي مَنْ به صممُ)
١٩١	أحمد أمين
١٩١	الإنسان
١٩٢	المريسي
١٩٤	العالم والفكر
١٩٦	الأديب
١٩٦	المؤرخ الإسلامي
١٩٩	(أذمَّ إلى هذا الزمان أهيلَه)
٢٠٤	أبناء الدبلوماسيين: محظوظون أم مغبونون؟
٢٠٨	مجرد وقاحة
٢١٧	انطباعات عائد إلى أرض الوطن
٢٢٥	مجتمع الشحاذين
٢٣٢	رحلة المليون
٢٤٠	على الرصيف
٢٤٤	عن سرِّ قوَّة بعض وزراء الإعلام
٢٤٥	وزراء الإعلام
٢٤٦	مثل تاريخي
٢٤٧	سلاح نوحدين
٢٤٩	إن شئتَ فقلَّ، وإن شئتَ فكثُرَا



مدينة العاشر من رمضان المنطقة الصناعية ٨١
تليفون ٣٦٢٨٨١ - ٠١٥

٩٤ / ١٦١٦

I . S . B . N : 977 - 5140 - 71 - 4